



اضطهاد العلماء

أسبابه وآثاره وواجب الأمة تجاههم

aidtihad aleulama'

muhamad fathi alnnadi

1. Baskı:İstanbul
2019 - 1441

اضطهاد العلماء

أسبابه وآثاره وواجب الأمة تجاههم

إعداد: محمد فتحي النادي

وحدة البحوث والدراسات في منتدى العلماء

اسطنبول
مكتبة الأسرة العربية
نحو أسرة عربية واعية ..
ARAP AİLE KÜTÜPHANESİ - ISTANBUL

منتدى
العلماء
خدمة العلم والعلماء

اضطهاد العلماء

((أسبابه وآثاره وواجب الأمة تجاههم))

إعداد: محمد فتحي النادي

القياس: 17 X 24 سم

عدد الصفحات : 304 ص

ISBN:978-605-7618-16-0

الطبعة: الأولى

1441 هـ - 2019 م

جميع الحقوق محفوظة



خدمة العلم والعلماء

msf.online.manager@gmail.com msf-online.com
youtube.com/MuntadaAlulama muntadaalulama
https://t.me/MuntadaAlulama muntada.ulama.2015

اسطنبول
مكتبة الأسرة العربية

نحو أسرة عربية واعية ..

ARAP AİLE KÜTÜPHANESİ - İSTANBUL



www.ArabFamilyBs.com

+90 212 631 81 09 - +90 531 935 71 31

info@arabfamilybs.com



Sertifika No: 35657

UFUK NEŞRİYATIN.®  TÜRKİYE
BASIM YAYIN
MESLEK BİRLİĞİ ÜYESİDİR.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه،
وبعد؛ فإن الاضطهاد أخو الاستبداد؛ إذ إن المستبد يؤمن بالفردية، وأحادية
الفكر، وأحادية التوجه، وأحادية الطرح؛ لذا لا يقبل الفكر الآخر، ولا الرأي
الآخر، ويعمل جاهداً على منع الرأي الآخر ومحاصرتة، والتنكيل بأصحابه.
والاضطهاد أخو الجهل؛ فبعض بني الإنسان أعداء لما يجهلون،
ولو ملكوا سلطة كبيرة أو صغيرة لأفسدوا من حيث يرون الإصلاح.
والاضطهاد أخو العنصرية؛ فبعض البشر يرى أن جنسه، أو مذهبه،
أو جماعته، أو طائفته خير من الآخرين، ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل
يتجاوزة إلى الاحتقار والتسفيه والإقصاء، وقد يصل للقتل.
والاضطهاد يقع من الأقوى؛ إذ الضعيف لا حول له ولا قوة.
والاضطهاد يقع من صاحب السلطة؛ إذ هو القادر على إنفاذ وعيده.
والعلماء ممن اصطلوا بنيران الاضطهاد على مر العصور.
وكان هذا الاضطهاد سبباً في بقاء ذكرهم وخلوده، وكلما كان
الاضطهاد شديداً كان علو الشأن أكثر ممن لم ينله الأذى في الغالب.
ومن حاز العلم وأخلص له عرف أن الطريق ليست معبّدة، وأنه ليس
طريقاً يسلكه كل واحد؛ لذا فإن من يعرف قيمة العلم يصبر على سلوك
طريقه، ومن يعرف أجر العلماء فإنه يسترخص كل غال ونفيس ابتغاء
ما عند الله من الأجر.

١ - قيمة العلم وفضل العلماء:

العلم هو الهبة والمنحة والعطية التي منحها الله -تعالى- للبشر، ففضلهم به وميزهم على سائر المخلوقات، وآلته هو العقل، وبه يكون التكليف، وبانتفائه يكون الإعذار.

قال الله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَتَّبِعُونَ آسْمَاءَهُمْ... ﴾ [البقرة: ٣١-٣٣].

وعمار الأرض بانتشار العلم، ويوم يُرفع العلم فهذا إيذان بخراب الأرض، وقرب الساعة؛ فعن عبد الله بن مسعود وأبي موسى قالوا: قال النبي ﷺ: «إن بين يدي الساعة لأيامًا ينزل فيها الجهل، ويُرفع فيها العلم، ويكثر فيها الهرج، والهرج القتل»^(١).

وقد أذن الله لأهل العلم بالرفعة، وجعلهم السادة والقادة؛ قال تعالى: ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة: ١١].

وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «يرفع الله بهذا العلم أقوامًا فيجعلهم قادة يقتدى بهم في الخير، وتقتص آثارهم، وترمق أعمالهم، وترغب الملائكة في خلتهم، وبأجنتها تمسحهم»^(٢).

(١) أخرجه البخاري في «الفتن»، باب: «ظهور الفتن»، (٤٨/٩)، ح (٧٠٦٣).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء»، ١/٣٤٦-٣٤٧.

وأهل العلم هم أعرف الناس بالله بعد الأنبياء؛ لذا فإن العلماء العارفين هم أخشى الناس لله، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨].

والعلم النافع هو ذخيرة لصاحبه، وأجر عظيم غير منقطع، وثواب دائم متصل؛ فعن أبي هريرة، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»^(١).

فساد العلماء يتبعه فساد العوام والمجتمعات، قال ابن المبارك: «إن فساد العوام من قبل الخواص.

وإن الناس على خمس طبقات: من أولهم الزهاد وهم ملوك هذه الأمة، والثاني: العلماء وهم ورثة الأنبياء، والثالث: الولاة وهم الرعاة، والرابع: التجار وهم أمناء الله في الأرض، والخامس: الغزاة وهم سيف الله في الأرض، وإذا كان الزاهد راغباً فبمن يقتدي الناس؟

وإذا كان العالم طامعاً فبمن يهتدي الناس؟
وإذا كان الراعي جائراً فإلى من يلتجئ الناس؟
وإذا كان التاجر خائناً فبمن يأمن الناس؟
وإذا كان الغازي مرئياً فمتى يرجو الظفر؟»^(٢).

(١) أخرجه مسلم في «الوصية»، باب: «مَا يَلْحَقُ الْإِنْسَانَ مِنَ الثَّوَابِ بَعْدَ وَفَاتِهِ»، (٣/١٢٥٥)، ح(١٦٣١).

(٢) شعب الإيمان، للبيهقي، ٣١٢/٢.

وقال كذلك: «صنفان من الناس إذا صلحا صلح الناس، وإذا فسدا فسد الناس.

قيل: من هم؟.

قال: الملوك والعلماء»^(١).

وقال الغزالي: «إنما فسدت الرعية بفساد الملوك، وفساد الملوك بفساد العلماء؛ فلولا القضاة السوء والعلماء السوء لقل فساد الملوك؛ خوفاً من إنكارهم»^(٢).

لذا كان من أشنع الأوصاف التي وردت في القرآن وصف العالم الذي أدار ظهره لآيات ربه بعد أن بلغته فلم ينتفع بها ولم يعمل بها، قال تعالى: ﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْعَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصِصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦].

٢- أهمية الموضوع:

تأخذ هذه الدراسة أهميتها من أهمية العناصر التي تم تناولها؛ فموضوع التناول هم العلماء - بشقيهم: العلماء الأثبات العاملين وعلماء السلاطين -

(١) إعلام الموقعين، لابن قيم الجوزية، ١/ ١٠.

(٢) إحياء علوم الدين، للغزالي، ٢/ ١٥٠.

وعلاقتهم بالحكام، وكيف تسير وتيرة هذه العلاقة، ومردود هذه العلاقة على الأمة، فتأثر الأمة بهذه العلاقة شديد، بل هو مؤثر من مؤثرات قوة الأمة وضعفها.

٣- إشكالية الدراسة:

لقد أردنا الإجابة عن تساؤل يتعلق بمسألة الاضطهاد، لكن ليس الاضطهاد عمومًا، بل اضطهاد العلماء بالخصوص، ومعرفة الأطراف المرتبطة بهذا الأمر، وما أبعاد هذه القضية، والأسباب الموقعة فيها، والآثار المترتبة عليها، وكيفية تفاديها أو التقليل من شدتها.

٤- أهداف الدراسة:

من الأهداف المبتغاة من هذه الدراسة توضيح معالم طريق العلم، وأن مكانة العلماء عند الله والناس لا تأتي من فراغ، فمن حمل الأمانة، ثم قام بالبلاغ، ووافق عمله علمه، فقد حاز قصب السبق.

وأن يعلم أهل السلطة أنهم باضطهادهم للعلماء يقترفون جرمًا وإثمًا لا تغسله مياه البحور والمحيطات والأنهار.

ويريد الكتاب أن يضع الشعوب أمام مسؤوليتهم؛ فالفرار من الصراع لن يمنعه، وضريبة سكوتهم وخذلانهم لمن يناصر الحق فادحة عليهم وعلى معاشهم.

٥- الدراسات السابقة:

اجتهدنا للوقوف على دراسات سابقة في هذا الباب، فلم نجد غير كتيب للشيخ وحيد عبد السلام بالي اسمه: «صور من ابتلاء العلماء... مواقف مشرقة من تاريخ أمتنا الإسلامية»، جمع فيه بعض المواقف التاريخية التي كانت شهادة على ابتلاء العلماء من قبل السلطة.

لذا لم يكن أمامنا من بدِّ إلا بالعودة إلى المصادر التاريخية ومحاولة الخروج منها بما يبين هذه القضية الخطيرة.

لذا أزعم بأن هذا الكتاب فريد في بابه، لم يسبق إليه بهذا الجمع والأفكار والتحليل.

٦- المنهج المتبع:

في هذا العمل اتبعنا المنهج العلمي، فاستخدمنا عدة مناهج:

استخدمنا المنهج الاستقرائي، والذي حاولنا من خلاله ربط بعض الظواهر بعضها ببعض، ثم الخروج بنظرة كلية.

وكذا استخدمنا المنهج الاستنباطي، والذي حاولنا من خلاله تأكيد بعض النظريات من خلال إيراد الشواهد الجزئية التي وقفنا عليها.

وكان معنا المنهج الوصفي الذي كان يصاحبنا في إيراد الكثير من الشواهد التاريخية التي تصف الظاهرة التي كنا نتبعها من خلال الواقع دون اجتزاء، أو تحميلها أكثر مما تحمل.

وكان يسير معنا في العمل المنهج التحليلي؛ حيث كنا ننظر للمسألة فنقوم بتفسيرها ونقدها واستنباط بعض القضايا من خلالها.

٧- الخطة:

لقد وقعت هذه الدراسة في مقدمة وستة فصول وخاتمة، وفي كل فصل وطلباً له بتوطئة، ولم يكن يشغلنا حجم الفصول وتناسبها، بل كان الشاغل أن يستوعب الفصل الفكرة كاملة، مع الاقتصاد في الكلام وعدم الاسترسال.

وفي المقدمة: عالجنا بعض الأمور المنهجية المتعلقة بأهمية الموضوع وأهدافه والمنهج المتبع، والتأكيد على تفرد هذه الدراسة بهذه الموضوع، وأنها لم تُسبق إلى مثل هذه المعالجة التي تمت بها.

وكان الفصل الأول: فصلاً تمهيدياً حاولنا فيه التعريف بعنوان الكتاب وبموضوعاتٍ هي مداخل مهمة لمعرفة أبعاد قضية الاضطهاد، فتكلمنا عن الصراع والابتلاء والصدع بالحق ونصح الخلق.

أما الفصل الثاني: فكان الحديث فيه عن الذين يقومون باضطهاد العلماء، سواء أكانوا أفراداً أم جماعات أم مؤسسات، وسواء كانوا في الداخل أو في الخارج.

وفي الفصل الثالث: تكلمنا عن الأسباب التي أدت إلى اضطهاد العلماء، والتي قد تكون مبررة عند أصحابها، ويوجدون لها العلل والمعاذير.

وفي الفصل الرابع: حاولنا أن نستخلص أنواع الاضطهاد التي وقعت على العلماء، والتي قد لا نكون استوعبناها كلها، لكن نظن أننا أتينا على معظمها.

اضطهاد العلماء.. أسبابه وآثاره وواجب الأمة تجاههم

وفي الفصل الخامس: تناولنا الآثار المترتبة على اضطهاد العلماء، والتي تطال الأفراد والجماعات والشعوب.

وفي الفصل السادس والأخير: تحدثنا عن واجب الأمة تجاه علمائها، وأن العلماء قد أدوا ما عليهم، وبقي على الأمة أن تقوم بدورها وما يتحتم عليها تجاه علمائها.

ثم كانت الخاتمة: وفيها وضعنا خلاصة للدراسة، والنتائج التي توصلنا إليها من خلال الدراسة، وبعض المقترحات التي يمكن الاستفادة منها ومحاولة تطبيقها.

ثم المراجع: والتي رتبناها ترتيباً ألفبائياً، وقدمنا اسم الكتاب على اسم المؤلف، ثم الدار التي قامت بالطبع، ومكانها، ثم رقم الطبعة وسنة نشرها. وأخيراً فهرس الموضوعات.

وختاماً فما كان في هذا الكتاب من توفيق فمن الله وحده، وما كان فيه من خلل أو نقص أو زلل فمن نفسي والشيطان، والله أسأل أن يجعل هذا العمل في ميزان الحسنات، والله من وراء القصد.

وكتبه

محمد فتحي النادي

وهران الباهية

٢٨ محرم ١٤٤١هـ / ٢٧ سبتمبر ٢٠١٩م

الفصل الأول

فصل تمهيدي

ويشتمل على أربعة مباحث:

المبحث الأول: تحديد المفاهيم الخاصة بعنوان الكتاب

المبحث الثاني: الصراع من أجديات الوجود البشري

المبحث الثالث: الابتلاء بالمصائب سنة ماضية

المبحث الرابع: أهمية قول الحق ونصح الخلق



المبحث الأول

تحديد المفاهيم الخاصة بعنوان الكتاب

إن من منهجيات الكتابة والحوار والجدال تحديد المصطلحات وضبط المفاهيم؛ حيث إن ترك بعض الأمور بلا تحديد أو ضبط يوقع القراء والمستمعين في الحيرة والاضطراب؛ فبعض المصطلحات تخرج عن معناها اللغوي أو العرفي إلى معنى جديد، فإذا شاعت بين الناس أخذتهم الحيرة في تحديد المراد.

وقد وقع المسلمون الأوائل في مثل هذا؛ فعن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] شَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّنَا لَا يَظْلِمُ نَفْسَهُ؟، قَالَ: «لَيْسَ ذَلِكَ؛ إِنَّمَا هُوَ الشَّرْكَ، أَلَمْ تَسْمَعُوا مَا قَالَ لُقْمَانَ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ: ﴿يَبْنَئِ لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]؟»^(١).

ومن هذا الباب نحاول أن نحدد المصطلحات الواردة بعنوان الكتاب؛ حتى يكون القارئ الكريم على بينة من مرادنا.

وقد اخترنا لهذا الكتاب هذا العنوان: «اضطهاد العلماء ... أسبابه وآثاره وواجب الأمة تجاههم».

(١) أخرجه البخاري في «أحاديث الأنبياء»، باب: «قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾...»، (٤/١٦٣)، ح (٣٤٢٩).

اضطهاد العلماء.. أسبابه وآثاره وواجب الأمة تجاههم

وكان من عادة بعض العلماء المتقدمين أنهم يشبتون عنوان كتابه داخل الكتاب؛ حتى إذا فقد الغلاف لم يعدم القارئ معرفة الكتاب وعنوانه.

وال«اضطهاد» افتعال من الجذر (ضهد)، ضَهَدَه يَضْهَدُه ضَهْدًا واضْطَهَدَه: ظَلَمَه وَقَهَرَه.

فالطاء بدل من تاء الافتعال.

وَأَضْهَدَ بِهِ إِضْهَادًا: جَارَ عَلَيْهِ وَاسْتَأْثَرَ.

ف(ضَهْدُهُ كَأَضْهَدُهُ واضْطَهَدَهُ).

ورجلٌ مَضْهُودٌ ومُضْطَهَدٌ: مَقْهُورٌ ذليل مضطر.

واضْطَهَدَ فلانٌ فلانًا: إِذَا اضْطَعَفَه وَقَسَرَه، وهي الضُّهْدَةُ.

يقال: ما نخاف بهذا البلدِ الضُّهْدَةَ، أي: الغَلْبَةَ والقَهْرَ.

والمُضْطَهَدُ: المُضْطَعَفُ، وبه سُمِّيَ الأَسَدُ.

والضُّهَيْدُ: الرجل الصلب الشديد، ولا فَعِيلٌ سواه في كلام العرب.

وفلان ضُهْدَةٌ لكلِّ أَحَدٍ، أي: كُلُّ مَنْ شَاءَ أَنْ يَقَهَرَه فَعَلَ.

فالاضطهاد: هو الظلم والقهر والإكراه والضُّغْطَةُ والعصرة والإلجاء

من الغريم.

ويقولون: إن تلقني لا تلق ضهدة واحد، أي: لستُ بمن يضهده رجل

واحد، وأنشد أبو عمرو:

الفصل الأول: فصل تمهيدي

إن تَلَقَّنِي لا تَلقُ ضُهْدَةً واحدٍ لا طائشٍ رِعرِشٍ ولا أنا أُعْزَلُ^(١)

و«العلماء» لا أقصد بهم العلماء الشرعيين فقط، بل كل من حاز العلم فهو عالم، لذا ذكرت في ثنايا الكتاب بعض علماء الذرة والطب والكيمياء... إلخ.

فهم لمواقفهم قد نالهم الأذى مثلهم مثل أهل الشرع والفكر، وإن كان غالب الأمثلة والإسقاطات الواردة في الكتاب كانت عن علماء الشرع والفكر.

و«الأمة» كنت أقصد بها كل الشعوب المسلمة عربيها وعجمها؛ فالعلماء أثر كلمتهم ومواقفهم لا يتوقف عند بلادهم وشعوبهم فقط، بل تتعدى إلى كل البلدان والشعوب المسلمة.

وإن كان هذا المعنى العام لا يمنع من وجود المعنى الخاص للأمة، وهو الشعب الذي يعيش بينهم هذا العالم أو ذلك؛ فواجب النصره يبدأ من الأقربين، ثم يتسع خطوة خطوة، وذلك حسب تأثير العالم في بلده والبلدان المحيطة به.

* * *

(١) انظر: الفائق في غريب الحديث، للزمخشري، (٢/٣٥٠)، وتاج العروس، للزبيدي، (٨/٣١٦)، ولسان العرب، لابن منظور، (٣/٢٦٦).



المبحث الثاني الصراع من أجديات الوجود البشري

يحاول بعض الدعاة الجدد أن يؤصلوا لقضية أن الأصل في الحياة: «السلام»، وأن ما دون ذلك هو العارض الشاذ، لكن الكتب السماوية والتاريخ والواقع لا يشهدون على ذلك ألبتة، بل يؤكدون على أن الأصل في الحياة هو: «الصراع».

فمهما وادعت الناس فلن يوادعوك، ومهما طلبت السلام لنفسك ولغيرك فلن يمنحك الناس هذا السلام الذي تبتغيه.

والصراع على مستويات متعددة، وبأشكال متنوعة.

صراعات فردية وصراعات كبرى.

صراعات من أجل المصالح والمنافع وأخرى من أجل المبادئ.

والقرآن الكريم يبرز في ثاني سوره وأكبرها فكرة الصراع؛ فأول إفادة ومعلومة علمها الله - تعالى - لآدم عليه السلام أن هناك عداوة بدأت ولن تنتهي، عداوة تتجلى في صراع بأشكاله وأنواعه ومستوياته المختلفة.

ولم تكن معلومة عابرة، بل تم تأكيدها مرارًا على طول القرآن؛ فجاءت في سور: البقرة والأعراف وطه.

قال تعالى: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [البقرة: ٣٦].

وقال: ﴿ قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۗ ﴾ [الأعراف: ٢٤].

وقال: ﴿ قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فِيمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۗ ﴾ [طه: ١٢٣].

وكل الأطراف المذكورة في القصة سيدور بينها الصراع، ولن تتوقف عجلته حتى قيام الساعة.

فإبليس وذريته أعداء لآدم وذريته أبد الدهر.

وذرية آدم من ناحية أخرى بعضهم لبعض عدو كذلك.

ففي معنى العداوة بين آدم وإبليس يقول البيضاوي في تفسير قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۗ ﴾: «الخطاب لآدم وحواء، أو له ولإبليس، ولما كانا أصليّ الذرية خاطبهما مخاطبتهم فقال: ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۗ ﴾ لأمر المعاش كما عليه الناس من التجاذب والتحارب، أو لاختلال حال كل من النوعين بواسطة الآخر»^(١).

وفي عداوة بني آدم بعضهم لبعض يقول النيسابوري: «ومعنى ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۗ ﴾ [طه: ١٢٣]: ما عليه الناس من التعادي والتباغي وتضليل بعضهم لبعض.

وليست هذه هي العداوة المأمور بها في قوله: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۗ ﴾ [فاطر: ٦] فلا يدخل تحت الأمر، بل المراد: اهبطوا

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوي، ٤/٤١.

الفصل الأول: فصل تمهيدي

وسيكون حالكم كذا؛ لأن عالم التضاد والتنافي ليس كعالم الأنوار الذي لا تعاند فيه ولا تمنع»^(١).

والصراع البشري ليس محصوراً في الأبعاد الشائنين، بل قد يكون من أقرب الناس إليك، فتدور رحاها بين الرجل وولده، أو بين الرجل وزوجه، يقول تعالى: ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ ﴾ [التغابن: ١٤].

والسما والجنة ليستا محلاً أو مكاناً للصراع، وإنما جعلت الأرض محلاً للصراع والتنازع.

فأهل الجنة امتن الله عليهم بأن جنّبهم أهل الشرور والفساد والإفساد، وطهر نفوسهم من الأمراض والأدران فقال: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾ [الحجر: ٤٧].

فستكون الجنة محلاً للخير وأهله فلا صراع ولا عداوة ولا بغضاء؛ فهي امتداد للخير الذي كان على الأرض.

وستكون النار محلاً للصراع والعداوة التي لا تنقطع؛ إذ هي مكان اجتماع عتاة الفساد والإفساد وأهل الشرور والأحقاد، الكل يلوم غيره، والكل يلعن غيره، قال تعالى: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾ [١٦٦] وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ

(١) غرائب القرآن، للنيسابوري، ١/ ٢٦١-٢٦٢.

مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسْرَتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾ [البقرة: ١٦٦-١٦٧].

وقال: ﴿ قَالَ أَدْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا آدَرُكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَبْنَاهُمْ لِأَوْلَانِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَعَاتِبْهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ [الأعراف: ٣٨].

والنار هي الامتداد للشر الذي كان على الأرض.

وقد رأى الطاهر بن عاشور في الصراع رؤية ذات دلالة عظيمة، هذه الرؤية استخرجها من قوله تعالى: ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ فقال: «وهذا أصل عظيم في تربية العامة ولأجله كان قادة الأمم يذكرون لهم سوابق عداوات منافسيهم ومن غلبهم في الحروب؛ ليكون ذلك باعثاً على أخذ الثأر»^(١).

فكأن التربية على الصراع مفيد للأمم والشعوب التي تبحث لنفسها عن مكان ومكانة على وجه البسيطة.

ولم تؤت الشعوب والأفراد إلا من الغفلة؛ فكانت الهزائم والنكسات.

فالغفلة عن العدو الحقيقي وعن خططه ومكائده أقرب سبيل للهلكة والانكسار، لكن اليقظة والتبصر يقودان الإنسان إلى طريق النصر والتمكين.

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور، ١ / ٤٣٤.

الفصل الأول: فصل تمهيدي

لذلك جعل الحكماء من حالات الإنسان المذمومة: «الغفلة والأمن»^(١).

وعندما سئل أحد الحكماء عن الغفلة قال: «تركك المجد وطاعتك المفسد»^(٢).

وبالغفلة تزول الممالك والدول، قالت الحكماء: «إذا انقضت مدة الدول أدبرت سنة الغفلة من سنة الحذر»^(٣).

والصراع نوعان:

● صراع أنت مأمور به، وهو الصراع المفروض عليك مهما حاولت الفرار منه، هو الصراع الذي تُمتحن به وتُبتلى.

صراع من أجل الإيمان والحفاظ عليه ونشره في العالمين.

وهذا الصراع هو المعركة الصحيحة التي لو بذل الإنسان فيها مهجته لما كان مهدرًا لها ولا مضيعًا لها سدى.

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

● صراع أنت منهي عنه، وهو الصراع مع أولياء الله وحزبه.

(١) حلية الأولياء، للأصبهاني، ٢٩٤/٩.

(٢) السابق، ٣٦/٢.

(٣) سراج الملوك، للطرطوشي، ص ١٧٥.

اضطهاد العلماء.. أسبابه وآثاره وواجب الأمة تجاههم

صراع لو انتصرت فيه فأنت خاسر... صراع حذر الله ورسوله منه؛ لأنه يُضعف الصف، ويذهب بالشوكة، ويفتح الباب لتسلل العدو وتحكمه وانتصاره.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَنْزِعُوا فَتَقْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وقال -صلى الله عليه وآله وسلم-: «لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»^(١).

فهناك صراع يحافظ على الأرض من الفساد والإفساد، يحافظ عليها مادياً ومعنوياً.

هذا الصراع إذا أداره أهل الحق بيقظة وحذر ومعرفة لطبيعة المعركة دحروا الشيطان وحزبه، وكان صلاح الأرض وعمرانها.

وبالغفلة عن هذا الصراع وعدم مدافعتة تفسد الأرض، وتسوء أحوال البشر مادياً ومعنوياً.

وقد خاض غمار تلك الصراعات الأنبياء والمصلحون؛ فلم يظلموا في محاربتهم باكين ضارعين أن يدحر الله -تعالى- الشر وأهله، بل قاوموا بكل الوسائل، ونزلوا لميدان الصراع، وتركوا وطن الغفلة إلى وطن اليقظة.

واليقظة تعني الوعي بالذات وبالقضية الكبرى وبالهدف الأسمى،

(١) أخرجه البخاري في «العلم»، باب: «الإنصاف للعلماء»، (١/٣٥)، ح (١٢١) من حديث جرير -رضي الله عنه-.

الفصل الأول: فصل تمهيدي

ودراسة الآخر دراسة واعية كاشفة؛ فدخل معركة دون معرفة العدو هي معركة في غالبها سيكون مصيرها الفشل.

والتابع لا يعي معنى الصراع؛ فهو مسلوب الإرادة تجاه سيده الذي يسمع له ويطيع، لذا المتبع لإبليس هو إنسان فاقد لوعيه الذاتي، جاهل بعدوه، بل يكون وقوداً لمعركة هو خاسر فيها حال نجاحها أو فشلها.

فالتابع حتى لو نجح في المعركة الدنيوية فمصيره البوار والهلاك في الآخرة وبئس المصير.

ومن وعي الغرب بذاته ومعرفته للآخر فلسف فكرة الصراع، وقام بتطبيقها على أرض الواقع، ومن أشهر الفلاسفة الذين تكلموا في تلك المسألة هيغل الفيلسوف الألماني، وكذلك كارل ماركس الذي رأى «أن ثمة صراعاً يجب أن ينشأ بين طبقة البورجوازية (الرأسماليين) وطبقة البروليتاريا (العمال)»^(١)، وهنتنجتون صاحب نظرية صدام الحضارات... إلخ.

فهيغل -مثلاً- وهو أحد مؤسسي حركة الفلسفة المثالية- يرى «أن الحركة الحضارية إنما تحقق مسيرتها صوب الأحسن والأكمل عن طريق الصراع المستمر بين النقااض في عالم الأفكار»^(٢)، بل إن «التناقض والصراع

(١) الفلسفة ومفهوم الصراع: نظرة تحليلية (مقالة): لـ محمد سيد حسن، موقع الفلق:

<https://tinyurl.com/ygsz4x9a>

(٢) حكمة الصّراع في حياة الإنسان (مقالة): لمحمد أبو حامد، موقع اليوم السابع، نشر بتاريخ:

الثلاثاء، ١٨ نوفمبر ٢٠١٤م: <https://tinyurl.com/y5szoas4>

اضطهاد العلماء.. أسبابه وآثاره وواجب الأمة تجاههم

هو المحرك للتطور»^(١).

وعنده «وجود الأنا لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال وجود نقيضه،
أي: الأنا الآخر أو الغير.

فلا يمكن للوعي أن يعرف نفسه إلا من خلال انفتاحه على كل ما هو
آخر بالنسبة إليه.

والأنا يسعى إلى الاعتراف به من طرف الآخر، غير أن هذا الاعتراف
يتم من خلال عملية الصراع التي تقوم بين الأنا والغير.

والهدف من هذا الصراع هو إثبات الذات والحفاظ على حرمتها، وذلك
من خلال نزع الاعتراف بالذات من طرف الآخر. إلا أن نزع الاعتراف هذا
لا يتم بسهولة ما دام أن كلا الوعيين يخاطر بحياته ويسعى إلى موت الآخر.

ويبدو انطلاقاً من تصور هيغل أنه لا يمكن تصور حياة بشرية بدون
صراع بين الناس كأغيار.

وهذا الصراع قد يتخذ أحياناً الطابع السلبي المدمر، لكنه في أحيان
أخرى يتخذ طابعاً بناءً وإيجابياً؛ إذ يشكل في هذه الحالة الأخيرة تلك الطاقة
الضرورية لتحريك عجلة التاريخ»^(٢).

(١) الفلسفة ومفهوم الصراع: نظرة تحليلية.

(٢) مفهوم الصراع عند هيغل (مقالة): لمحمد الشبة، باختصار، نشر بتاريخ: ٥ يناير ٢٠١٣م، موقع
عالم التأويل.

الفصل الأول: فصل تمهيدي

فالصراع البشري عنده دليل حيوية وعدم ثبات؛ إذ إنه «عبر الحركة والصراع الموجودين في كل شيء يولد الجديد»^(١)؛ ف«استمرار الصراع من شأنه أن يؤدي إلى استمرار حركة التاريخ، بل ويتجدد التاريخ بهذا الصراع»^(٢).

وهي لم تكن رؤية فردية، بل سياسة عامة منبثقة على فلسفات؛ ف«لقد سعى الفلاسفة والمنظرون السياسيون والاجتماعيون في تناول شكل العالم في المرحلة القادمة، وانتهت تحليلاتهم وأطروحاتهم الفلسفية إلى أن الصراع القادم سيكون صراعاً حضارياً بين حضارات مختلفة، ولكن الشكل المهيمن لهذا الصراع يتمثل بين الحضارة الغربية بقيمتها وبين الحضارة الإسلامية بقيمتها.

ولعل أبرز الكتابات المعاصرة ذات الطبيعة الفلسفية السياسية كتاب صامويل هنتنجتون Samuel Huntington صراع الحضارات The Clash between Civilizations»^(٣)، والتي جسّد فيها نظريته في الصراع.

وعليه، ففهم نظرية الصراع عند الغرب يمكن من خلاله معرفة تحركات الغربيين وتوجهاتهم، فهم يتظاهرون أنهم دعاة سلام، لكنهم

(١) مختصر فلسفة هيغل، موقع سمارانوري: <https://tinyurl.com/yylj7s36>

(٢) المحاور الأساسية لفلسفة التاريخ عند هيغل (المحاضرة الثانية عشرة): لمحمد عيسى حميد اليسار، كلية التربية الأساسية، قسم التاريخ، المرحلة ٣، نشر بتاريخ: ١٣/١٢/٢٠١٧م، موقع

جامعة بابل: <https://tinyurl.com/y4bmykp2>

(٣) الفلسفة ومفهوم الصراع: نظرة تحليلية.

اضطهاد العلماء .. أسبابه وآثاره وواجب الأمة تجاههم

يضمون نيران الحروب والصراعات في مناطق شتى من العالم، ولاسيما منطقتنا العربية.

فوعينا بدوائر الصراع ومستوياته هو البداية الصحيحة لتحسين الأحوال، وتغييرها إلى شكل جديد يكون في صالحنا لا ضدنا.

* * *

المبحث الثالث الابتلاء بالمصائب سنة ماضية

إذا كانت الدار الدنيا هي دار صراع كما أسلفنا ووضحنا، فلن يهناً للإنسان فيها بال، ولن يدوم له فيها حال، فهو في معركة دائمة، قد يخفت ضجيجها حيناً، لكنه ما يلبث أن يعلو ضجيجها مرة أخرى.

هذه المعركة قد تكون من أجل البناء، أو من أجل الهدم.

فبناء القيم والنظم والحضارات يحتاج إلى معركة وبأس شديد، وكذا هدم العقائد الفاسدة والأفكار الهدامة والحضارات المنحرفة يحتاج إلى جلد وطول نفس وصبر ومثابرة؛ إذ لن يمكّنك عدوك أو خصمك من أخذ نفسك للبناء، ولن يغفل عنك لحظة، ولن يألو جهداً في هدم بنيانك، وهو لن يتركك تهدم له ما شيده حتى وإن كان باطلاً.

هي معارك متلاحقة لا ينطفئ أوارها.

هذه المعارك بمستوياتها ودوائرها وأطرافها هي التجلي التام لابتلاء الله لخلقه وامتحانه لهم؛ لينهاز الناس بين مؤمن وكافر، بين مهتد وضال، بين مطيع وعاص وكافر، بين ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالخيرات، بين صالح ومصلح وفساد ومفسد، بين من هو في حزب الله أو في حزب الشيطان.

يقول تبارك وتعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ ﴾ [هود: ٧].

اضطهاد العلماء.. أسبابه وآثاره وواجب الأمة تجاههم

«والبلاءُ يكون في الخير والشر، يقال: ابتليته بلاءً حسناً وبلاءً سيئاً، والله -تعالى- يُبلي العبدَ بلاءً حسناً ويُبليهِ بلاءً سيئاً»^(١).

فالابتلاء قد يكون منحة، وقد يكون محنة، قد يكون خيراً، وقد يكون شراً، قد يكون بما تحبُّ، وقد يكون بما تكرهه، قال تعالى: ﴿وَنَبَلُوكُم بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، أي: «نبتليكم بالشدة والرخاء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، والحلال والحرام، والطاعة والمعصية، والهدى والضلالة»^(٢).

فالتمكن في الأرض ابتلاء، والاستدراج ابتلاء... إلخ.

ورغم هذا الوضوح القرآني في أمر الابتلاء، وأنه بالخير والشر، إلا أن المفهوم المستقر في الأذهان الآن هو أنه عند إطلاق لفظ الابتلاء يكون فقط في المصائب والشدائد والرزايا.

وهذا لأن الإنسان يغفل عن النعمة حتى تزول منه زوالاً مؤقتاً أو دائماً.

فلا يعرف قيمة الصحة إلا بالمرض، ولا الحرية إلا بالحبس والقهر والقيود، ولا الأمان إلا بالخوف... إلخ.

لكن في العموم فإن الصحة بلاء كما أن المرض بلاء... إلخ، فينظر الله ماذا نصنع في كل أحوالنا.

(١) لسان العرب، لابن منظور، ١٤/٨٣.

(٢) تفسير الطبري، ١٨/٤٤٠.

﴿ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [المالك: ٢].

فالابتلاء سنة الله الماضية في خلقه.

ولا يذكر الإنسان إلا الابتلاء بالشر، وينسى وقت النعمة أنها ابتلاء كذلك، يقول تعالى: ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَىٰ جَانِبَهُ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾ [فصلت: ٥١].

والبلاء نوعان:

١- الابتلاء العام لكل البشر: فلا تخلو حياة الإنسان من مشاق ومصاعب وشدائد معاناة تطوف عليه من حين لآخر، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ [البلد: ٤].

فالبلاء على الإنسان بما يكره متجدد متعدد، يأخذ أشكالاً وأنواعاً وألواناً، يطول حيناً، ويقصر أحياناً.

ولكل إنسان نصيبه من البلاء بما يكره، مدرك ذلك لا محالة.

٢- الابتلاء الخاص للمؤمنين: إذا كانت المشقة عامة على البشر كلهم، فلا يهنأ عيش الإنسان من ميلاده حتى وفاته؛ إذ لا بد من المنغصات والكدورات، إلا أن المؤمنين لهم خصيصة أن المشقة عليهم زائدة، والمعاناة وافية، يقول تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٥].

قال ابن عباس: «أخبر الله - سبحانه - المؤمنين أن الدنيا دار بلاء، وأنه

مبتليهم فيها، وأمرهم بالصبر، وبشرهم فقال: ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾، ثم أخبرهم أنه هكذا فعل بأنبيائه وصفوته يطيب نفوسهم فقال: ﴿ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وأما ﴿ الْبَأْسَاءُ ﴾ البأساء: بالفقر، ﴿ وَالضَّرَاءُ ﴾: فالسقم، ﴿ وَزُلْزَلُوا ﴾: بالفتن وأذى الناس إياهم^(١).

والسنة النبوية أكدت على ذلك، وأفادت أن المؤمنين في الدنيا لهم حال مغاير لحال الكافرين؛ فقال النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: «الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ»^(٢).

وفي هذا المعنى جاء هذا الأثر عن عائشة قالت: قال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-: «الدنيا لا تصفو لمؤمن؛ كيف وهي سجنه وبلاؤه»^(٣).

والابتلاء بالمصائب قد يكون:

١- عقوبة على الذنوب: يقول تعالى: ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠].

(١) شعب الإيمان، للبيهقي، ١١٦/٧.

(٢) أخرجه مسلم في «الزهد والرفائق»، (٤/٢٢٧٢)، ح (٢٩٥٦) من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

(٣) أخرجه الديلمي في «الفردوس بمأثور الخطاب»، (٢/٢٢٩)، ح (٣١٠٥)، وقال العجلوني في «كشف الخفاء»، (١/٤١٠)، ح (١٣١٧): «ابن لال عن عائشة، قال ابن الغرس نقلاً عن شيخه: حديث حسن لغيره»، لكن الألباني قال في «السلسلة الضعيفة والموضوعة»، (٨/١١٠): «ضعيف جداً».

الفصل الأول: فصل تمهيدي

يقول الطبري: «وما يصيبكم -أيها الناس- من مصيبة في الدنيا في أنفسكم وأهلكم وأموالكم ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾، يقول: فإنما يصيبكم ذلك عقوبة من الله لكم بما اجترتم من الآثام فيما بينكم وبين ربكم ويعفو لكم ربكم عن كثير من إجرامكم، فلا يعاقبكم بها»^(١).

٢- **تكفيراً للسيئات:** يقول صلوات الله وتسليماته عليه: «مَا مِنْ مُصِيبَةٍ تُصِيبُ الْمُسْلِمَ إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا عَنْهُ، حَتَّى الشُّوْكَةِ يُشَاكُهَا»^(٢).

٣- **رفعاً للدرجات:** الأنبياء هم صفوة الله من خلقه، وقد أصيبوا في أنفسهم وأعراضهم وأموالهم وأهلهم، وأوذوا أشد الإيذاء، ولم يكن هذا البلاء لمعاص وكبائر اقترفوها فعوقبوا بما ابتلوا به، ولم يكن لهم سيئات حتى تكون المصائب والبلايا لتكفيرها، بل إن سيد ولد آدم -عليه أفضل الصلاة والسلام- قد عُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فلم يبق إلا أن تكون هذه البلايا والرزايا والمصائب زيادة ورفعة لهم في درجاتهم.

عن سعد بن أبي وقاص قال: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟، فَقَالَ: «الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ، فَالْأَمْثَلُ، فَيَبْتَلِي الرَّجُلَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ رَقِيقَ الدِّينِ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ ذَاكَ، وَإِنْ كَانَ صُلْبَ الدِّينِ ابْتُلِيَ عَلَى

(١) تفسير الطبري، ٢١/٥٣٨.

(٢) أخرجه البخاري في «المرضى»، باب: «مَا جَاءَ فِي كَفَّارَةِ الْمُرْضِيِّ...»، (٧/١١٤)، ح (٥٦٤٠) من حديث عائشة -رضي الله عنها-.

حَسْبِ ذَاكَ، قَالَ: فَمَا تَزَالُ الْبَلَايَا بِالرَّجُلِ حَتَّى يَمُوتَ فِي الْأَرْضِ وَمَا عَلَيْهِ
حَاطِيَّةٌ»^(١).

فالابتلاء بالمصائب تبلِّغ بعض المؤمنين منازل لن يبلغوها بأعمالهم، فأراد الله أن يبلغهم تلك المنازل العليا، فصب عليهم البلاء صبًّا، وقابل هؤلاء المؤمنون فعل الله معهم بالتسليم المطلق لقضائه سبحانه، والرضا التام عن الله تعالى؛ فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل تكون له المنزلة عند الله فما يبلغها بعمل، فلا يزال يبتليه بما يكره حتى يبلغه ذلك»^(٢).

بل إن هذه الدرجة يمكن أن نطلق عليها (ابتلاء الكرامة)؛ حيث يكون الابتلاء بالمصائب كرامة من الله لصاحبها؛ فعن أبي فاطمة الضمري قال: كنا مع رسول الله ﷺ فقال: «من أحب منكم أن يصح فلا يسقم؟»

فابتدرناه فقلنا: نحن، فعرفنا ما في وجهه، ثم قال: «أتريدون أن تكونوا كالحمير الصيالة؟ إن الله - عز وجل - ليبتي المؤمن بالبلاء، وما يبتليه إلا لكرامته عليه، إن الله يريد أن يبلغه منزلة لم يبلغها بشيء من عمله إلا بما يبتليه، فيبلغه تلك المنزلة»^(٣).

(١) أخرجه أحمد في «المسند»، (٨٧/٣)، ح (١٤٩٤)، وقال شعيب الأرنؤوط: «إسناده حسن».
(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرک»، (٤٩٥/١)، ح (١٢٧٤)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه»، وسكت عنه الذهبي.
(٣) أخرجه أبو نعيم في «معرفة الصحابة»، (٢٩٨٧/٦)، ح (٦٩٤٩)، وقد ضعفه الألباني في «ضعيف الجامع»، (٢٣٩/١)، ح (١٦٤٨).

الابتلاء بالخصم:

قد يظن من وقعت عليه المصائب أنه مبتلى بهذا الخصم أو العدو الذي أوقع به ما أوقع من نفي أو تضيق أو سجن أو مصادر مال... إلخ، وأن هذا الخصم خلّو من البلاء منه.

لا؛ فالبلاء متبادل بينهما.

فأنت مبتلى بخصمك، وخصمك مبتلى بك؛ فهو يخطط لك ويكيد لك، وأنت غير مستقيم له على طريقة يرضاها.

هو مبتلى بك وتظنه منعماً، لكنه في أرق منك، وخوف دائم من ردة فعلك، أو من قد ينتصر لك؛ فهو لا ينام ملء جفونه، بل إنك تطارده حتى في أحلامه وكوابيسه.

فهذا الحجاج بن يوسف بعد قتله لسعيد بن جبير «كان إذا نام يراه في منامه يأخذ بمجامع ثوبه فيقول: يا عدو الله، لم قتلتنني؟ فيقول: ما لي ولسعيد بن جبير! ما لي ولسعيد بن جبير»^(١).

وكما أن الدعوات والرسالات تُبتلى بالمخالفين، فكذا المخالفون يُبتلون بها؛ فقد خطب النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- خطبة في أصحابه قال فيها: «... وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب، وقال: إنها بعثتك لأبتليك وأبتلي بك...»^(٢).

(١) تاريخ الطبري، ٦/٤٩١.

(٢) أخرجه مسلم في «الجنة وصفة نعيمها وأهلها»، باب: «الصفات التي يُعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار»، (٤/٢١٩٧)، ح (٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار المجاشعي -رضي الله عنه-.

وأخيراً:

فالابتلاءات بالمصائب كاشفة عن المواقف، وعن الإيمان والمعتقدات، وعن مكونات النفوس، وهي تصقل النفس وتُظهر معدنها الحقيقي.

ولولا المصائب لما ثبتت لأحد دعوى؛ فالكل يدعي الشجاعة والثبات والبذل والتضحية... إلخ، ولا يمكن إثبات تلك الدعاوى إلا بالمواقف الكاشفة؛ فتظهر الشجاعة وقت الحروب، والثبات وقت الأزمات... إلخ.

وصدق المتنبي حين قال:

وَإِذَا مَا خَلَا الْجَبَانُ بِأَرْضٍ طَلَبَ الطَّعْنَ وَحَدَهَ وَالنِّزَالَ

فالابتلاءات ليست سُنَّة الله في الدعوات فحسب؛ فهذا تضيق لها، بل هي سُنَّة الله في خلقه أجمعين مؤمنهم وكافرهم، إلا أنها تزداد وتشتد على أهل الحق ليتمحصوا وليحدث التمايز بين الخلق.

* * *

المبحث الرابع أهمية قول الحق ونصح الخلق

إن أخلاق البشر منها ما هو سوي رضي ك: الصدق والأمانة، ومنها ما هو ذميم ردي ك: الكذب والخيانة.

ولن يخلو مجتمع مهما صغر من هذين الصنفين.

فإن كانت هذه الأخلاق الذميمة في القاعدة من المجتمع وبدرجات محدودة فإنه يمكن إصلاحه بالتقويم والتأديب والإرشاد.

هذا إن كان المسؤول والحاكم ينهج النهج القويم، ويسلك السلوك المستقيم، وله أعوان على شاكلته يأتمرون بأمره وينهجون نهجه.

عندئذ لن تفشو الأمراض الأخلاقية في المجتمع، وستكون محاصرة، وفي حدودها الدنيا، وسيكون في المجتمع مقاومة ذاتية للانحراف والاعوجاج الأخلاقي؛ فالعقل الجمعي سليم، وكذا الضمير الجمعي يقظ فعّال، وأدوات الإصلاح حاضرة جاهزة.

أما إن كان رأس النظام فيه اعوجاج وانحراف أخلاقي، فعندئذ سيكون الضرر عظيمًا والشر مستطيرًا والفساد منتشرًا؛ إذ إنه يستقطب أمثاله من المرضى الأخلاقيين، ويُقصي ذوي الأخلاق السليمة المستقيمة.

فيعلو شأن الفساد والاعوجاج، ويتحكّم السّفلة في ذوي المروءة والأخلاق.

اضطهاد العلماء.. أسبابه وآثاره وواجب الأمة تجاههم

والدنيا لا تُصلح فسادها من تلقاء نفسها، أو ما يمكن أن نسميه بـ: الإصلاح الذاتي، بل تحتاج إلى قوة خارجية تعدّل هذا الانحراف، وتقوم مساره.

وإصلاح الفساد يقع على عاتق كل فرد صالح مستقيم عالم بمآلات الأمور، وهو إن كان لازماً على الجميع فإنه على عاتق أهل العلم والحزم والرئاسة ألزم.

وعند الرغبة في الإصلاح بله الشروع فيه لن تسلم من الناس، وأعظم الناس ممانعة هم أصحاب النفوذ والسلطان الذين ملكوا وأثروا من الفساد وبالفساد، لذا فإن ردّات فعلهم عنيفة وقاسية.

لذا حث الإسلام على السعي في تغيير الفساد بقول كلمة الحق، مهما كان من قيلت له، ومهما كانت النتائج والآثار؛ فقد ذكر أبو ذرّ وصية أوصاه بها النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فقال: **أَمَرَنِي خَلِيلِي ﷺ بِسَمْعِ** منها: **«... وَأَمَرَنِي أَنْ أَقُولَ بِالْحَقِّ وَإِنْ كَانَ مَرًّا، وَأَمَرَنِي أَنْ لَا أَخَافَ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ...»**^(١).

والأمر تجاوز قول الحق، بل بلغ مرحلة القيام به وحمله وتحمل تبعاته؛ فعن عبادة بن الصّامت قال: **بَايَعَنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى: السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي**

(١) أخرجه أحمد في «المسند»، (٣٢٧/٣٥)، ح (٢١٤١٥)، وقال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على «المسند»: «حديث صحيح، وهذا إسناد حسن من أجل سلام أبي المنذر -وهو ابن سليمان المزني- فهو صدوق حسن الحديث، وقد توبع، وباقي رجال الإسناد ثقات رجال الصحيح».

الفصل الأول: فصل تمهيدي

الْمُنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، وَأَنْ نَقُومَ -أَوْ نَقُولَ- بِالْحَقِّ حَيْثُمَا كُنَّا، لَا نَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَائِمَةً^(١).

قال النووي: «مَعْنَاهُ: نَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَنَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، الْكِبَارِ وَالصَّغَارِ، لَا نُدَاهِنُ فِيهِ أَحَدًا، وَلَا نَخَافُهُ هُوَ، وَلَا نَلْتَفِتُ إِلَى الْأَيْمَةِ.

وَأَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّهُ فَرَضَ كِفَايَةَ فَإِنْ خَافَ مِنْ ذَلِكَ عَلَى نَفْسِهِ أَوْ مَالِهِ أَوْ عَلَى غَيْرِهِ، سَقَطَ الْإِنْكَارُ بِيَدِهِ وَلِسَانِهِ، وَوَجِبَتْ كَرَاهَتُهُ بِقَلْبِهِ، هَذَا مَذْهَبُنَا وَمَذْهَبُ الْجَمَاهِيرِ.

وَحَكَى الْقَاضِي هُنَا عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ ذَهَبَ إِلَى الْإِنْكَارِ مُطْلَقًا فِي هَذِهِ الْحَالَةِ وَغَيْرِهَا»^(٢).

ولن يبلغ الإنسان العلاء إلا إذا وعظ نفسه قبل أن يعظ غيره، إلا إذا أصلح نفسه قبل طلبه الصلاح من غيره، قال -صلى الله عليه وآله وسلم-: «صِلْ مَنْ قَطَعَكَ، وَقُلْ الْحَقَّ وَلَوْ عَلَى نَفْسِكَ، وَأَحْسِنْ إِلَى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ»^(٣).

(١) أخرجه البخاري في «الأحكام»، باب: «كَيْفَ يُبَايِعُ الْإِمَامُ النَّاسَ»، (٧٧/٩)، ح (٧١٩٩)، (٧٢٠٠).

(٢) شرح النووي على مسلم، ٢٣٠/١٢.

(٣) أخرجه ابن الأعرابي في «معجمه»، (٧٤٤/٢)، ح (١٥٠٧) من حديث علي -رضي الله عنه-، وقد ذكره الألباني في «السلسلة الصحيحة»، (٥٤٢/٤)، ح (١٩١١).

وموقفك هذا من الإصلاح سوف يجلب عليك المشاكل، ولن تسلم لا في نفسك أو مالك أو عرضك، يقول حكيم العرب أكثم بن صيفي: «اعلموا أنَّ كَثِيرَ النَّصْحِ يَهْبِطُ عَلَى كَثِيرِ الظَّنَّةِ، وَأَنَّ قَوْلَ الْحَقِّ لَمْ يَتْرُكْ لِي صَدِيقًا»^(١)، «أي: إذا بالغت في النصيحة اتهمك من تنصحه»^(٢).

وقيل: «معناه: أنك إذا بالغت في النصح لصاحبك ظن أنك تريد خطأ لنفسك، وقال أكثم في موضع آخر: (إذا بالغت في النصيحة فتأهب للتهمة)»^(٣).

وفي نفس السياق يقول أويس القرني: «إن قيام المؤمن بأمر الله لم يُبق له صديقًا، والله إنا لنأمرهم بالمعروف، وننهاهم عن المنكر، فيتخذوننا أعداء، ويجدون على ذلك من الفاسقين أعوانًا حتى والله لقد يقذفوننا بالعظام، ووالله لا يمنعني ذلك أن أقول بالحق»^(٤).

أما ذو النون فقد قال: «ثلاثة من أعلام الصبر: التباعد عن الخلطاء في الشدة، والسكون عليه مع تجرع غصص البلية، وإظهار الغنى مع كثرة العيال وجفاء الخلق وهجرانهم له، وقولة الحق فيهم باحتمال الضرر في المال والبدن»^(٥).

(١) معرفة الصحابة، لأبي نعيم، ١/٣٤٣.

(٢) مجمع الأمثال، للميداني، ١/٦٧.

(٣) جمهرة الأمثال، للعسكري، ٢/١٦١.

(٤) المستدرک، للحاكم، ٣/٤٥٨.

(٥) شعب الإيمان، للبيهقي، ٧/٢٢٨.

الفصل الأول: فصل تمهيدي

وقد اعتبر أحد الحكماء أن قول الحق هي أعدل الأقوال؛ فحينما سأل سليمان بن عبد الملك أبا حازم - وهو أحد أصحاب النبي ﷺ -: أي القول أعدل؟، قال: «قول الحق عند من تخافه أو ترجوه»^(١).

فالخوف قد يمنع الإنسان من قول الحق، إذا خاف وقوعه في برائن من لا يقبل سماع كلمة الحق، والذي قد يفتك بقائلها.

وكذا الرغبة في النوال أو العطاء أو من تريد منه أمرًا ليقضيه لك قد يمنعك ذلك من قول الحق.

فليس الترهيب وحده المانع من قول كلمة الحق، فالترغيب كذلك.

وقد عجبت أشد العجب من سيد الطائفة الجنيد - وهو من هو في علم التصوف والسلوك - حينما قال: «مكابدة الصمت أحسن من قول الحق، ومكابدة العزلة أيسر من مداراة الخلطة»^(٢).

فالتصوف هو مقام الإحسان، والتصوف يتكلم دائمًا في العزائم لا الرخص، لذا وجدت أن قول العابدة قريشية النسوية خير من قول الجنيد؛ فقد قالت: «مكابدة الصمت أيسر من اعتذار بكذب»^(٣).

وكلمة الحق يجب أن تكون خالصة لوجه الله تعالى، ولا يتم كتبها لعل من العلل أو هوى من الأهواء؛ فالبعض لا ينصح إلا المخالف؛ إذ

(١) سنن الدارمي، ١/١٦٣-١٦٤.

(٢) شعب الإيمان، للبيهقي، ٤/٢٧١.

(٣) طبقات الصوفية، للسلمي، ص ٤١٨.

تعظم عنده -دائماً- أخطاء الآخر، أما أخطاء حزبه أو حركته أو جماعته أو أحبابه فمغفو عنه ومغفور له ومتأوّل له.

وهذا خلل إذا لم يتم التنبه له يكون الفساد عظيماً؛ فعن جرير بن عبد الله قال: **بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى إِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ^(١).**

وقد تم تفصيل النصيحة في حديث آخر؛ فعن تميم الداري، أن النبي ﷺ قال: **«الدين النصيحة»**، قلنا: لمن؟ قال: **«الله، وليكاتبه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم»^(٢).**

«قال العلماء: النصيحة لله: إخلاص الاعتقاد في الوجدانية، ووصفه بصفات الألوهية، وتنزيهه عن النقائص، والرغبة في محابه، والبعد من مساخطه.

والنصيحة لرسوله: التصديق بنبوته، والتزام طاعته في أمره ونهيه، وموالاته من والاه، ومعاداة من عاداه، وتوقيره، ومحبته، ومحبة آل بيته، وتعظيمه وتعظيم سنته، وإحيائها بعد موته بالبحث عنها، والتفقه فيها والذب عنها ونشرها والدعاء إليها، والتخلق بأخلاقه الكريمة ﷺ.

(١) أخرجه البخاري في «الإيمان»، باب: «قول النبي ﷺ: الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم...»، (٢١/١)، ح(٥٧) ومواضع آخر، ومسلم في «الإيمان»، باب: «بيان أن الدين النصيحة»، (٧٥/١)، ح(٥٦).

(٢) أخرجه مسلم في «الإيمان»، باب: «بيان أن الدين النصيحة»، (٧٤/١)، ح(٥٥).

الفصل الأول: فصل تمهيدي

وكذا النصح لكتاب الله: قراءته والتفقه فيه، والذب عنه وتعليمه وإكرامه والتخلق به.

والنصح لأئمة المسلمين: ترك الخروج عليهم، وإرشادهم إلى الحق، وتنبههم فيما أغفلوه من أمور المسلمين، ولزوم طاعتهم، والقيام بواجب حقهم.

والنصح للعامة: ترك معاداتهم، وإرشادهم، وحب الصالحين منهم، والدعاء لجميعهم، وإرادة الخير لكافتهم^(١).

وقد يرى البعض أن التناصح بين المسلمين قد يؤدي إلى خصام وكره المنصوح للناصح، وضيقه به، وتجافيه عنه.

هذا إذا كانت النصيحة لغير وجه الله، وكانت بأساليب منفرة لا تراعي طبائع الناس، ولا تعرف كيفية التعامل معها، ولا معرفة مفاتيح القلوب ومغاليقها.

أما إذا كانت النصيحة لوجه الله فإن النصيحة ستكون أخت المودة، قال الإمام علي -كرم الله وجهه: «إن المؤمنين قوم نصحة بعضهم لبعض، متوادون وإن بعدت ديارهم وأبدانهم، وإن المنافقين غششة بعضهم لبعض»^(٢).

والناصح الحق هو من يبغي الخير للمنصوح، فمن يضمم للمنصوح الشر فلن ينصحه، وإن نصحه فإنها ستكون عظة شيطان.

(١) تفسير القرطبي، ٨/ ٢٢٧.

(٢) تاريخ دمشق، لابن عساکر، ٢٣/ ٤٦٥.

اضطهاد العلماء.. أسبابه وآثاره وواجب الأمة تجاههم

ومن نسي ربه وأغرته الدنيا وغرق في ملذاتها فلا تنتظر منه نصحاء؛ لأنه قد غفل عن نصح نفسه، وشرب من خمر الدنيا حتى الثمالة، لذا قال أبو عبد الله المغربي: «من أحب الدنيا فلا ينصحك، ومن أحب الآخرة فلا يصحبك، لا ترج نصح من قد خان نفسه»^(١).

وزكاة حسن الرأي النصح؛ فمن أخلص النصح للناس بارك الله له في عقله ورأيه، يروى عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أنه قال: «إن الرجل لا يزال في صحة رأيه ما نصح لمستشيريه، فإذا غش مستشيريه سلبه الله صحة رأيه»^(٢).

ولا تزال الأمة بخير ما تناصحت فيما بينها، وحاول كل واحد فيها أن يسد الخلل، وأن يقوم المعوج.

يقول تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].



(١) شعب الإيمان، للبيهقي، ٦٥/٧.

(٢) تاريخ دمشق، لابن عساکر، ٥٦/٥١٧ من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما-، وقد ضعفه الألباني في «ضعيف الجامع»، ح(١٤٤٩).

الفصل الثاني

ممن يحصل اضطهاد العلماء؟

ويشتمل على توطئة وستة مباحث:

المبحث الأول: من العوام

المبحث الثاني: من الأقران

المبحث الثالث: من الساسة وذوي السلطان

المبحث الرابع: إعانة المرء على نفسه

المبحث الخامس: من الإعلام

المبحث السادس: من القوى الخارجية



توطئة:

العلماء هم مشاعل النور والهداية والتبيين، وحملّة العلم إلى العالمين، وورثة الأنبياء والمرسلين.

فهِمُوا عن الله مراده من خلقه، وأفهموا الخلق مراد الله منهم.
فهُم واسطة تبليغ لا واسطة عبادة.
مقامهم عند الله عال، ومقامهم عند الخلق رفيع.

وقد تكلم الإمام أحمد بن حنبل عن وظيفة العلماء فقال: «ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين»^(١) الذين عقدوا ألوية البدعة، وأطلقوا عقال الفتنة، فهم مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب، مجمعون على مفارقة الكتاب، يقولون على الله وفي الله وفي كتاب الله بغير علم، يتكلمون بالمتشابه من الكلام، ويخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم، فنعوذ بالله من فتن المضلين»^(٢).

ورغم هذا المقام الرفيع إلا أنهم مبتلون بالخلق على تنوع فئاتهم، واختلاف أفهامهم، وتعدد اتجاهاتهم، وبدخول الهوى والجهل وغيرهما من الأسباب يكون الصدام بدرجاته المختلفة.

(١) مقتبس من قول النبي ﷺ: «يرث هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين، وتحريف الغالين»، وقد أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى»، (٢٠٩/١٠)، ح (٢٠٧٠٠)، وقد صححه الألباني في «مشكاة المصابيح»، (٨٢/١)، ح (٢٤٨).

(٢) الرد على الزنادقة والجهمية، لأحمد بن حنبل، ص ٦.

اضطهاد العلماء.. أسبابه وآثاره وواجب الأمة تجاههم

ومن أعظم البلايا سوء إدارة الخلاف؛ فالخلاف سُنّة لن تتبدل؛ فهي قائمة مستمرة استمرار الخليفة حتى قيام الساعة.

لكن سوء إدارة الخلاف ينتج عنه مشاكل لا حصر لها على مستوى الأفراد والجماعات والمجتمعات والبلدان.

وهذا الخلاف -إن وجد- ليس بين فئة العلماء قاطبة وبين غيرهم من الخلق، بل يكون الخلاف مع بعضهم، والوفاق يكون مع غالبهم.

وقد تكلم الفاروق عمر عن العلماء وما يصيبهم، فقال في خطبة له: «الحمد لله الذي امتنَّ على العباد بأن يجعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم، يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، ويحيون بكتاب الله أهل العمى.

كم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وضال تائه قد هدوه.

بذلوا دماءهم وأموالهم دون هلكة العباد.

فما أحسن أثرهم على الناس، وأقبح أثر الناس عليهم، يقتلونهم في سالف الدهر إلى يومنا هذا بالحدود ونحوها، فما نسيهم ربك ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ [مريم: ٦٤].

جعل قصصهم هدى، وأخبر عن حسن مقاتلتهم، فلا تقصُر عنهم؛ فإنهم في منزلة رفيعة، وإن أصابتهم الوضيعة»^(١).

(١) البدع، لابن وضاح، (١/٢٦-٢٧)، ح(٣).

الفصل الثاني: ممن يحصل اضطهاد العلماء؟

وفيما يلي سنحاول الوقوف على أهم الفئات التي حاولت الإضرار بالعلماء أثناء صراعها معهم، وذلك من خلال الإجابة عن السؤال التالي:

ممن يحصل اضطهاد العلماء؟.

* * *



المبحث الأول من العوام

قبل أن نلج في صلب موضوعنا نريد التنبيه على أننا لا نقصد بالعوام الإهانة أو التقليل من الشأن لأي إنسان كائنًا من كان.

ولا نقصد بالعوام السوقة أو الرعاع أو الأوباش أو أي معنى يحمل في طياته أي انتقاص.

وللعوام خصائص عقلية ونفسية يتميزون بها؛ فالعقل الجمعي للعامّة عاطفي أكثر منه عقلاً، وفكرهم بسيط لا تعقيد فيه، وآراؤهم غير ثابتة تتحول من النقيض للنقيض.

وإذا أحبوا شخصًا يرفعونه عاليًا، وإذا كرهوه جعلوه في أسفل سافلين.

وقد نبه الإسلام على ذلك؛ فقد روي أن النبي ﷺ قال: «أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم»^(١).

وقال عليّ - رضي الله عنه -: «حدّثوا الناس بما يعرفون؛ أمحبون أن يكذب الله ورسوله»^(٢).

(١) أخرجه الديلمي في «مسند الفردوس»، (١/٣٩٨)، ح (١٦١١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وقد ضعّف إسناده السخاوي في «المقاصد الحسنة»، ص ١٦٤، ح (١٨٠).

(٢) أخرجه البخاري في «العلم»، باب: «من خصّ بالعلم قومًا دون قوم كراهية أن لا يفهموا»، (٣٧/١)، ح (١٢٧).

وَكَذَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: «مَا أَنْتَ بِمُحَدِّثٍ قَوْمًا حَدِيثًا لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ إِلَّا كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةٌ»^(١).

أما ابنُ الجوزيِّ فقد قال: «وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُمْلِيَ مَا لَا يَحْتَمِلُهُ عُقُولُ الْعَوَامِ»^(٢).

وفي نفس المعنى قال السمعاني: «ولا يروى ما لا يحتمله عقول العوام»^(٣).

وقد تكلم الجاحظ عن العامة وبعض طبائعهم فقال: «العامة وإن كانت تعرف جُمل الدين بقدر ما معها من العقول، فإنه لم يبلغ من قوة عقولها، وكثرة خواطرها أن ترتفع إلى معرفة العلماء، ولم يبلغ من ضعف عقولها أن تنحط إلى طبقة المجانين والأطفال.

وأقدار طبائع العوام والخواص، ليست مجهولة فيحتاج إلى الإخبار عنها بأكثر من التنبيه عليها؛ لأنكم تعلمون أن طبائع الرسل فوق طبائع الخلفاء، وطبائع الخلفاء فوق طبائع الوزراء، وكذلك الناس على منازلهم من الفضل، وطبقاتهم من التركيب، في: البخل والسخاء، والبلادة والذكاء، والغدر والوفاء، والجبن والنجدة، والصبر والجزع، والطيش والحلم، والكبر والتهيه، والحفظ والنسيان، والعي والبيان.

(١) أخرجه مسلم في «المقدمة»، باب: «النَّهْيُ عَنِ الْحَدِيثِ بِكُلِّ مَا سَمِعَ»، ١٠ / ١.

(٢) الآداب الشرعية، لابن مفلح، ١٥٠ / ٢.

(٣) أدب الإملاء والاستملاء، للسمعاني، ص ٥٩.

الفصل الثاني: ممن يحصل اضطرار العلماء؟

ولو كانت العامة تعرف من الدين والدنيا ما تعرف الخاصة، كانت العامة خاصة، وذهب التفاضل في المعرفة، والتباين في البنية.

ولو لم يخالف بين طبائعهم لسقط الامتحان وبطل الاختبار، ولم يكن في الأرض اختيار، وإنما خولف بينهم في الغريزة ليصبر بها صابر، ويشكر شاكر، ولينفقوا على الطاعة، ولذلك كان الاختلاف هو سبب الائتلاف^(١).

وفي العصر الحديث اهتم غوستاف لوبون بدراسة نفسية الجماهير، ووضع يده على أمور مميزة للجماهير وسلوكها.

فهو يرى -مثلاً- أن «الجماهير غير ميالة كثيرًا للتأمل، وغير مؤهلة للمحاكمة العقلية»^(٢).

وتكلم عن الفرد وكيفية ذوبانه في الجمهور فقال: «مجموع الخصائص الأساسية للفرد المنخرط في الجمهور:

تلاشي الشخصية الواعية، هيمنة الشخصية اللاواعية، توجه الجميع ضمن نفس الخط بواسطة التحريض والعدوى للعواطف والأفكار، الميل لتحويل الأفكار المحرّض عليها إلى فعل وممارسة مباشرة.

وهكذا لا يعود الفرد هو نفسه، وإنما يصبح عبارة عن إنسان آلي ما عادت إرادته بقادرة على أن تقوده.

(١) العثمانية، للجاحظ، ص ٢٥٦-٢٥٧.

(٢) سيكولوجية الجماهير، لغوستاف لوبون، ص ٤٥.

هذا يعني أنه بمجرد أن ينضوي الفرد داخل صفوف الجمهور فإنه ينزل درجات عديدة في سلم الحضارة؛ فهو عندما يكون فرداً معزولاً ربما يكون إنساناً مثقفاً متعلقاً، ولكنه ما إن ينضم إلى الجمهور حتى يصبح مقوداً بغريزته وبالتالي همجياً، وهو عندئذ يتصف بعفوية الكائنات البدائية وعنفها وضاوتها وحماستها وبطولاتها - أيضاً، ويقترّب منها أكثر بالسهولة التي يترك نفسه فيها عرضة للتأثر بالكلمات والصور التي تقوده إلى اقتراف أعمال مخالفة لمصالحه الشخصية بشكل واضح وصريح.

إن الفرد المنخرط في الجمهور هو عبارة عن حبة رمل وسط الحبات الرملية الأخرى التي تذررها الرياح على هواها.

إن الفرد المنخرط في الجمهور لا يختلف فقط بالأعمال والتصرفات عن نفسه وهو في الحالة العادية، وإنما نلاحظ أنه حتى قبل أن يفقد كل استقلالية فإن أفكاره وعواطفه قد تحولت وتغيرت إلى درجة القدرة على تحويل: البخيل إلى كريم، والشكّك إلى مؤمن، والرجل الشريف إلى مجرم، والجبان إلى بطل.

إن الجمهور هو دائماً أدنى مرتبة من الإنسان المفرد فيما يخص الناحية العقلية والفكرية.

ولكن من وجهة نظر العواطف والأعمال التي تثيرها هذه العواطف فإنه يمكن لهذا الجمهور أن يسير نحو الأفضل أو نحو الأسوأ، وكل شيء يعتمد على الطريقة التي يتم تحريضه أو تحريكه بها.

الفصل الثاني: ممن يحصل اضطهاد العلماء؟

وهذه هي النقطة التي جهلها الكُتَّاب الذين لم يدرسوا الجماهير من وجهة النظر الجرائمية.

صحيح أن الجماهير غالباً ما تكون مجرمة، ولكنها غالباً ما تكون -أيضاً- بطة.

فمن السهل اقتيادهم إلى المذبحة والقتل باسم النضال من أجل انتصار عقيدة إيمانية أو فكرة ما.

ومن السهل تحريكهم وبث الحماسة في مفاصلهم من أجل الدفاع عن المجد والشرف»^(١).

وقد اخترت النصوص السابقة لأنني سأدلل عليها بما جرى لبعض كبار العلماء من البلاء والامتحان والتضييق والقتل في بعض الأحيان، وقد كان العامة هم الأداة الفتاكة.

فهذا البخاري صاحب الصحيح يتلى بسبب حسد أقرانه له واستخدامهم للعامة في هذه المعركة، وكانت عقولهم لا تستوعب دقيق المسألة التي امتحنوه فيها.

وابتداءً ننظر كيف كان دخول البخاري لنيسابور، قال مسلم بن الحجاج: «لما قدم محمد بن إسماعيل نيسابور ما رأيت والياً ولا عالماً فعل به أهل نيسابور ما فعلوا به، استقبلوه مرحلتين وثلاثة.

(١) سيكولوجية الجماهير، لغوستاف لوبون، ص (٦٠-٦١) باختصار.

فقال محمد بن يحيى في مجلسه: من أراد أن يستقبل محمد بن إسماعيل غدًا فليستقبله.

فاستقبله محمد بن يحيى وعامة العلماء.

قال: فازدحم الناس على محمد بن إسماعيل، حتى امتلأ السطح والدار، فلما كان اليوم الثاني أو الثالث، قام إليه رجل، فسأله عن اللفظ بالقرآن، فقال: أفعالنا مخلوقة، وألفاظنا من أفعالنا.

فوقع بينهم اختلاف، فقال بعض الناس: قال: لفظي بالقرآن مخلوق، وقال بعضهم: لم يقل، حتى توثبوا، فاجتمع أهل الدار، وأخرجوهم^(١).

المشاكل مع الإمام البخاري لم تتباطأ عليه، بل جاءتته سريعة بعد قدومه مباشرة، وقد حسده محمد بن يحيى الذهلي وألب الناس عليه وكان له سطوة على الناس، فانفض الناس من حول البخاري، قال أحمد بن سلمة: «دخلت على البخاري، فقلت: يا أبا عبد الله، هذا رجل مقبول بخراسان خصوصًا في هذه المدينة، وقد لجح في هذا الحديث حتى لا يقدر أحد منا أن يكلمه فيه، فما ترى؟ فقبض على لحيته، ثم قال: ﴿ وَأَفْوُضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٤٤].

اللهم إنك تعلم أني لم أرد المقام بنيسابور أشراً ولا بطراً، ولا طلباً للرئاسة، وإنما أبت علي نفسي في الرجوع إلى وطني لغلبة المخالفين، وقد قصدني هذا الرجل حسداً لما آتاني الله لا غير.

(١) سير أعلام النبلاء، للذهبي، (١٢/٤٥٨) باختصار.

الفصل الثاني: ممن يحصل اضهاد العلماء؟

ثم قال لي: يا أحمد، إني خارج غدًا لتتخلصوا من حديثه لأجلي.
قال: فأخبرت جماعة أصحابنا، فوالله ما شيعه غيري»^(١).

ما أسرع تحول العامة والخاصة وانقلابهم على الإمام البخاري، والظعن في عقيدته، وإخراجه من بلدهم بعد استقبالهم له بأيام.

وهنا اجتمع الحسد مع عدم قدرة العامة على فهم المسألة التي يتكلم فيها البخاري.

أما الإمام النسائي فكان الأمر معه أشد؛ إذ إن ثورة العامة عليه قد أفقدته حياته؛ فإنه «دخل إلى دمشق فسأله أهلها أن يحدثهم بشيء من فضائل معاوية، فقال: أما يكفي معاوية أن يذهب رأسًا برأس حتى يروى له فضائل.

فقاموا إليه فجعلوا يطعنون في خصيئته حتى أخرج من المسجد الجامع فسار من عندهم إلى مكة فمات بها في هذه السنة وقبره بها.

هكذا حكاها الحاكم عن محمد بن إسحاق الأصبهاني عن مشايخه.

وقال الدارقطني: كان أفقه مشايخ مصر في عصره وأعرفهم بالصحيح من السقيم من الآثار وأعرفهم بالرجال، فلما بلغ هذا المبلغ حسدوه، فخرج إلى الرملة فسئل عن فضائل معاوية، فأمسك عنه، فضربوه في الجامع.

فقال: أخرجوني إلى مكة، فأخرجوه وهو عليل فتوفي بمكة مقتولاً

(١) سير أعلام النبلاء، للذهبي، ٤٥٩/١٢.

اضطهاد العلماء.. أسبابه وآثاره وواجب الأمة تجاههم

شهيداً مع ما رزق من الفضائل رزق الشهادة في آخر عمره، مات بمكة سنة ثلاث وثلاثمائة.

قال الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الغنى بن نقطة في تقييده: مات أبو عبد الرحمن النسائي بالرملة مدينة فلسطين يوم الإثنين لثلاث عشرة ليلة خلت من صفر سنة ثلاث وثلاثمائة ودفن ببيت المقدس.

وحكى ابن خلكان أنه توفي في شعبان من هذه السنة، وأنه إنما صنف الخصائص في فضل علي وأهل البيت؛ لأنه رأى أهل دمشق حين قدمها في سنة ثنتين وثلاثمائة عندهم نفرة من علي وسألوه عن معاوية فقال ما قال فدققوه في خصيته فمات»^(١).

هنا لم يحتج العوام استثارة من أحد؛ فقد هجموا على الإمام النسائي لمخالفته لما هو مستقر عندهم من الميل إلى سيدنا معاوية والتجافي عن سيدنا علي، لكن تهجمهم لم يكن باللسان فقط أو الطرد، بل زاد العنف في الضرب حتى أفقدوا الرجل حياته.

ومن الحوادث العجيبة من رجل من عوام مصر إقدامه على قتل أحد الأئمة الكبار؛ لعدم فهمه لما يفعل.

ف«أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحاس، النحوي المصري؛ كان من الفضلاء، وله تصانيف مفيدة، وكان للناس رغبة كبيرة في الأخذ عنه، فنفذ وأفاد، وأخذ عنه خلق كثير.

(١) البداية والنهاية، لابن كثير، (١١/١٢٤) - طبعة دار المعارف بيروت، باختصار.

الفصل الثاني: ممن يحصل اضطهاد العلماء؟

وتوفي بمصر يوم السبت لخمس خلون من ذي الحجة سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة، وقيل: سنة تسع وثلاثين، رحمه الله تعالى؛ وكان سبب وفاته أنه جلس على درج المقياس على شاطئ النيل، وهو في أيام زيادته، وهو يقطع بالعروض شيئاً من الشعر، فقال بعض العوام: هذا يسحر النيل حتى لا يزيد فتغلو الأسعار، فدفعه برجله في النيل، فلم يوقف له على خبر^(١).

وقد كان للعامّة سطوة في بعض الأحيان حتى إنهم ليمنعون من دفن أحد كبار العلماء، فقد ذكر ابن كثير في البداية والنهاية في ترجمة الإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، قال: «ودُفن في داره؛ لأن بعض الرعاع من عوام الحنابلة منعوا من دفنه نهاراً، ونسبوه إلى الرفض، ومن الجهلة من رماه بالإلحاد، وحاشاه من هذا ومن ذاك أيضاً، بل كان أحد أئمة الإسلام في العلم بكتاب الله وسنة رسوله، وإنما تقلدوا ذلك عن أبي بكر محمد بن داود، حيث كان يتكلم فيه ويرميه بالعظائم ويرميه بالرفض»^(٢).



(١) وفيات الأعيان، لابن خلكان، (١/٩٩-١٠٠) باختصار.

(٢) البداية والنهاية، لابن كثير، (١٤/٨٤٩)، طبعة هجر.



المبحث الثاني من الأقران

إن ما يفتح الله به على خلقه من الشهرة، أو حسن الفهم، أو حسن المنطق والبلاغة، أو الرسوخ في العلم، هي من أرزاق الله التي قَسَمَهَا على خلقه.

لكن هناك من لا يرضى بقسمة الله له، بل وينظر لعطاء الله لغيره، وتعتمل في صدره وعقله الوسوس والأفراط النفسية.

فيشيع قالة السوء في أقرانه المتميزين، ويطعن فيهم، ويلمزمهم، وقد يسعى بهم عند ذوي النفوذ والسلطان؛ لنزع ما بيدهم من مناصب، أو امتحانهم في آرائهم الاعتقادية أو السياسية... إلخ، والتي قد تكون مخالفة لمذاهب أصحاب السلطان والأمر والنهي.

وفي الغالب لا يغير تلميذ من شيخه، لكن العكس قد يحدث فيغير الشيخ من تلميذه إذا بزّه، ولا يغير لاحق من سابق، لكن المشكلة كلها تكمن في الأقران.

والعلم -للأسف- في بعض الأحيان لا يهدب صاحبه، ولا يقوّم سلوكه، فيفعل في أقرانه المتميزين أفعالاً شنيعة منكرة.

وأقل شيء أنه قد يزهد في قرينه ولا ينزله منزلته اللائقة به، ويحرم نفسه من الاطلاع على ما تنتجه قريحة قرينه فيفوّت على نفسه درراً وكنوزاً لا لشيء إلا لأنها من قرينه، وقد قيل في ذلك: «المعاصرة حجاب».

وقديماً قالوا: «أزهدُ النَّاسِ فِي عَالَمِ قَارُهُ، أَي: من قرَّ معه.
ويروى: أهله وجيرانه.

يُضْرَبُ فِي الْاسْتِهَانَةِ بِمَا كَانَ مَعْرُضًا غَيْرَ مُفْتَقَدًا»^(١).

ولاطِّراد هذه الأمور قَعَّد العلماء قواعد، منها ما قاله حبر الأمة ابن
عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-: «اسْتَمْعُوا عِلْمَ الْعُلَمَاءِ، وَلَا تَصَدَّقُوا بَعْضَهُمْ عَلَى
بَعْضٍ؛ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ هُمْ أَشَدُّ تَغَايِرًا مِنَ التِّيُوسِ فِي زُرُوبِهَا»^(٢).

وقال مالك بن دينار: «يُؤْخَذُ بِقَوْلِ الْعُلَمَاءِ وَالْقُرَّاءِ فِي كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا قَوْلَ
بَعْضِهِمْ فِي بَعْضٍ؛ فَلَهُمْ أَشَدُّ تَحَايُزًا مِنَ التِّيُوسِ، تُنْصَبُ لَهُمُ الشَّاةُ الضَّارِبُ
فَيَنْبِيهَا هَذَا مِنْ هَاهُنَا وَهَذَا مِنْ هَاهُنَا»^(٣).

وقد وقع كبار من العلماء في هذا الأمر؛ فقد كانت بين السيوطي
والسخاوي سجالات ومعارك، قال «الشهاب أحمد بن عبد اللطيف البربر
دفين دمشق في (الشرح الجلي): لا يقدر في الحافظ السخاوي ما قاله الحافظ
السيوطي، ولا ما قاله هو فيه؛ لأن المعاصرة توجب المنافرة، والاتحاد في
الصنعة يغير من كل من المتعاصرين طبعه، وقد ورد أن عدو المرء من يعمل
بعمله؛ وذلك لشدة حرص الإنسان على الانفراد وفسحة أمله»^(٤).

(١) المستقصى في أمثال العرب، للزمخشري، ١/١٥٠.

(٢) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر، ٢/١٠٩٠.

(٣) السابق، ٢/١٠٩١.

(٤) فهرس الفهارس، لعبد الحي الكتاني، ٢/٩٩٢.

الفصل الثاني: ممن يحصل اضهاد العلماء؟

ولو وقفت تلك الأمور عند مجرد المنافرات والمساجلات لكان الأمر ميسورًا، لكنه يتفاقم ويصل إلى مرحلة الإيذاء البدني والمعنوي.

فهذا قاضي القضاة تاج الدين السبكي قد عُقد مجلس له حضره ابن كثير، وقد «اجتمع فيه القضاة الثلاثة، وخلق من المذاهب الأربعة، وآخرون من غيرهم، بحضرة نائب الشام سيف الدين منكلي بغا، وكان قد كتب فيه محضران متعاكسان، أحدهما له والآخر عليه، وفي الذي عليه خط القاضيين المالكي والحنبلي، وجماعة آخرين، وفيه عظام وأشياء منكرة جدًا ينبو السمع عن استماعه.

وفي الآخر خطوط جماعات من المذاهب بالثناء عليه، وفيه خطي^(١) بأني ما رأيت فيه إلا خيرًا، وبعد مناظرات أشار نائب السلطنة بالصلح بينهم وبين قاضي القضاة تاج الدين^(٢).

وقد امتدح المؤرخون تاج الدين السبكي بقولهم: «جرى عليه من المحن والشدائد ما لم يجر على قاض قبله، وحصل له من المناصب والرياسة ما لم يحصل لأحد قبله، وانتهت إليه الرياسة بالشام.

وَأَبَانَ فِي أَيَّامِ مَحَنَتِهِ عَن شَجَاعَةٍ وَقُوَّةٍ عَلَى الْمَنَازِرَةِ حَتَّى أَفْحَمَ خُصُومَهُ مَعَ كَثْرَتِهِمْ، ثُمَّ لَمَّا عَادَ عَفَا وَصَفَحَ عَمَّنْ قَامَ عَلَيْهِ، وَكَانَ كَرِيمًا مَهِيْبًا»^(٣).

(١) أي: ابن كثير.

(٢) البداية والنهاية، لابن كثير، (٣١٦/١٤) بتصرف واختصار.

(٣) الدرر الكامنة، لابن حجر، ٣/٢٣٥.

اضطهاد العلماء.. أسبابه وآثاره وواجب الأمة تجاههم

وهذا ابن تومرت لم يطق أقرانه أن يجاورهم ببلدهم فسعوا به إلى أمير البلد حتى يخرج منه، فقد ورد أنه أقام «بتلمسان - وكل من بها يعظمه من أمير ومأمور- إلى أن فصل عنها بعد أن استمال وجوه أهلها وملك قلوبها، فخرج قاصداً مدينة فاس.

فلما وصل إليها أظهر ما كان يظهره، وتحدث فيما كان يتحدث فيه من العلم، وكان جل ما يدعو إليه علم الاعتقاد على طريق الأشعرية، وكان أهل المغرب ينافرون هذه العلوم، ويعادون من ظهرت عليه، شديداً أمرهم في ذلك.

فجمع والي المدينة الفقهاء وأحضره معهم، فجرت له مناظرة كان له الشُّفوف فيها والظهور؛ لأنه وجد جواً خالياً، وألفى قومًا صيامًا عن جميع العلوم النظرية خلا علم الفروع.

فلما سمع الفقهاء كلامه أشاروا على والي البلد بإخراجه؛ لئلا يفسد عقول العوام، فأمره والي البلد بالخروج، فخرج متوجهًا إلى مراکش^(١).

* * *

(١) المعجب في تلخيص أخبار المغرب، للمراكشي، ص ١٣٩.

المبحث الثالث من الساسة وذوي السلطان

أن يوجد حاكم يضع الأنظمة والقوانين ويطبقها ويفرضها ويجرسها ويعاقب المخالفين لها، ويحل النزاعات، ويحيش الجيوش، ويهيئ للناس أمور معاشهم، ويرد عنهم اعتداء المعتدين، هي بديهة من بدهيات الاجتماع البشري.

وقد توافق البشر على أن يتنازلوا عن بعض حقوقهم وحررياتهم مقابل النظام والأمن... إلخ.

وعليه فهذا الحاكم يملك رقاب الناس -حكماً لا فعلاً- وينفذ إرادته فيهم عن طريق جنده وأعوانه المخلصين.

وهذه السلطات الممنوحة له قد تجعله يغتر ويزداد عتواً واستكباراً، ويبطش بمن يعارضه.

والقليل من أصحاب السلطان يسير بين الناس بسيرة العدل؛ فلا يظلم أحداً، ولا يُظلم عنده أحد.

والصنف المغرور بسلطانه قد يصل عتوه وصلفه أن يدعي الألوهية كم فعل فرعون الذي قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، وذلك بعدما غرّه ملكه فقال: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ [الزخرف: ٥١]، وظن أنه امتلك من أسباب القوة ما تمكنه من فعل ما يريد

فقال: ﴿... يَهْمَنُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابِ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابِ السَّمَوَاتِ فَاطَّلَعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأُظَنُّهُ كَذِبًا...﴾ [غافر: ٣٦-٣٧].

وكذا النمرود الذي أوصله غروره واغتراره بقوته أن يدعي أنه يجيبي ويميت فقال: ﴿أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

ولكل عصر فرعونه ونمروده.

ولا يخلو عصر كذلك من نجاشي لا يسمع لوشاية الواشين، ولا يأخذ بالظنة، بل يحضر المناظرات، ويحكم دينه وعقله وقلبه.

والجامع بين ثلاثتهم أنه قد جرت في حضرتهم مناظرات ومجادلات، وإن اختلفت النتائج التي أسفرت عنها تلك المناظرات.

وصاحب السلطة هو من يقدر أن ينفي أو يسجن أو يقتل... إلخ، لذا يسعى إليه من يريد إنزال العقاب ببعض أهل العلم لأسباب مختلفة، قد تكون وجيهة، وقد تكون لحظوظ النفس.

وقد يُنزل السلطان أو صاحب الأمر العقاب بنفسه ببعض أهل العلم دون سعي من أحد؛ وذلك لمخالفتهم لنهجه أو فكره، أو لمعارضتهم لسياسته.

فهذا الحجاج الثقفي لما حضر سعيد بن جبير بين يديه جعل الحجاج يقول له: «ألم أفعل بك؟ ألم أفعل بك؟

فيقول: بلى.

قال: فما حملك على ما صنعت؟

الفصل الثاني: ممن يحصل اضطهاد العلماء؟

قال: بيعة كانت علي^(١).

فغضب وصدق بيده وقال: بيعة أمير المؤمنين كانت أولى وأسبق.
وأمر به فقتل^(٢).

سعيد بن جبير هذا الذي قال عنه ميمون بن مهران: «مات سعيد بن جبير وما على ظهر الأرض رجل إلا وهو يحتاج إلى علمه»^(٣).

والحاكم وذو السلطان قد يكون محباً للعلم لكنه يتعصب لمذهب ما؛ فيضطهد أصحاب المذاهب المخالفة؛ ففي سنة خمس وأربعين وأربعمائة من الهجرة «نقل إلى الملك طغرلبيك أن الشيخ أبا الحسن الأشعري يقول بكذا وكذا وذكر بشيء من الأمور التي لا تليق بالدين والسنة، فأمر بلعنه، وصرح أهل نيسابور بتكفير من يقول ذلك.

فضج أبو القاسم القشيري عبد الكريم بن هوازن من ذلك وصنف (رسالة في شكاية أهل السنة لما نالهم من المحنة)^(٤).

واستدعى السلطان جماعة من رءوس الأشاعرة منهم القشيري فسألهم عما أنهي إليه من ذلك، فأنكروا ذلك، وأن يكون الأشعري قال ذلك^(٥).

(١) يعني: بيعته لابن الأشعث في ثورته على الحكم الأموي.

(٢) تذكرة الحفاظ، للذهبي، ٦١/١.

(٣) السابق، نفس الصفحة.

(٤) وقد قمت بتحقيق تلك الرسالة وإخراجها في كتاب أسميته: رسائل في المذهب الأشعري، مكتبة وهبة، مصر، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

(٥) البداية والنهاية، لابن كثير، ٦٤/١٢.

«فقال السلطان: إننا نأمر بلعن الأشعري الذي قال هذه المقالة، فإن لم تدينوا بها ولم يقل الأشعري شيئاً منها فلا عليكم مما نقول.

قال القشيري: فأخذنا في الاستعطاف، فلم تُسمع لنا حُجّة، ولم تُقضى لنا حاجة، فأغضينا على قذى الاحتمال، وأحلنا على بعض العلماء، فحضرنا ووطننا أنه يصلح الحال، فقال: الأشعري عندي مبتدع يزيد على المعتزلة»^(١).

«وجرت فتنة عظيمة طويلة»^(٢).

فهذا اضطهاد جماعي لعلماء طائفة عظيمة ولأتباعهم.

وقد يقع الاضطهاد على عالم من العلماء؛ فمثلاً في عام خمس وتسعين وخمسمائة من الهجرة «كانت فتنة عظيمة في عسكر غياث الدين ملك الغورية، وهو بفيروزكوه.

وسببها أن الإمام فخر الدين محمد بن عمر بن حسين الرازي، الإمام المشهور، كان قد قدم إلى غياث الدين وبالغ في إكرامه واحترامه، وبنى له مدرسة بهراة بالقرب من الجامع.

فعظم ذلك على الكرامية، وهم كثيرون بهراة، ومذهبهم التجسيم والتشبيه، وكان الغورية كلهم كرامية، فكرهوا فخر الدين لأنه شافعي، وهو يناقض مذهبهم.

(١) تاريخ الإسلام، للذهبي، ٩/٦١٠-٦١١.

(٢) البداية والنهاية، لابن كثير، ١٢/٦٤.

الفصل الثاني: ممن يحصل اضهاد العلماء؟

فاتفق أن فقهاء الكرامية والحنفية والشافعية حضروا بفيروزكوه عند غياث الدين للمناظرة، وحضر فخر الدين الرازي، والقاضي عبد المجيد بن عمر، المعروف بابن القدوة، وهو من الكرامية الهيصمية، وله عندهم محل كبير لتزهده وعلمه، فتكلم الرازي، فاعترض عليه ابن القدوة وطال الكلام، فقام غياث الدين، فاستطال فخر الدين الرازي على ابن القدوة وشتمه، وبالغ في أذاه، وابن القدوة لا يزيده على أن يقول: لا يفعل يا مولانا إلا وأخذ الله.

فصعب على الملك ضياء الدين، وهو ابن عم غياث الدين، وزوج ابنته، وشكى إلى غياث الدين وذم فخر الدين الرازي، ونسبه إلى الزندقة ومذهب الفلاسفة، فلم يصغ إليه غياث الدين.

فلما كان الغد، وعظ الناس ابن عمر بن القدرة بالجامع وقال -بعد حمد الله والصلاة على نبيه محمد ﷺ: ربنا آمنة بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين.

أيها الناس: إنا لا نقول إلا ما صح عندنا من رسول الله ﷺ، وأما علم أرسطو وكفريات ابن سينا وفلسفة الفارابي فلا نعلمها، فلاي حال يشتم بالأمس شيخ من شيوخ الإسلام يذب عن دين الله وسنة نبيه.

وبكى وبكى الكرامية، واستغاثوا، وثار الناس من كل جانب، وامتلاً البلد فتنة.

فبلغ ذلك السلطان، فأرسل جماعة سكنوا الناس ووعدهم إخراج فخر الدين الرازي من عندهم، وتقدم عليه بالعود إلى هراة فعاد إليها^(١).

فهنا الاضطهاد لم يكن من السلطان مباشرة، ولكنه كان من زوج ابنته ومن ضغط العامة عليه، فرضخ لهم، وأنفذ لهم ما أرادوا تسكيناً للفتنة.

وقد يكون صاحب السلطة والنفوذ ممن يكره العلم والعلماء؛ فيعمل على إيدائهم وتلفيق التهم لهم، ومن هؤلاء الأمير يوسف بك الكبير وهو من أمراء محمد بك أبو الذهب.

يحكي الجبرتي أنه في سنة إحدى وتسعين ومائة وألف من الهجرة «في أوائل شهر جمادى الأولى وقعت حادثة في طائفة المغاربة المجاورين بالجامع الأزهر؛ وذلك أنه آل إليهم مكان موقوف، وجحد واضع اليد ذلك، والتجأ إلى بعض الأمراء وكتبوا فتوى في شأن ذلك واختلفوا في ثبوت الوقف بالإشاعة، ثم أقاموا الدعاوى في المحكمة، وثبت الحق للمغاربة.

ووقع بينهم منازعات، وعزلوا شيخهم وولوا آخر، وكان المندفع في الخصومة واللسانة شيخاً منهم يسمى الشيخ عباس والأمير الملتجئ إليه الخصم يوسف بك.

فلما ترفعوا وظهر الحق على خلاف غرض الأمير حنق لذلك، ونسبهم إلى ارتكاب الباطل، فأرسل من طرفه من يقبض على الشيخ عباس المذكور

(١) المختصر في أخبار البشر، لأبي الفداء، ٣/٩٦-٩٧.

الفصل الثاني: ممن يحصل اضهاد العلماء؟

من بين المجاورين، فطردوا المعينين وشتموهم وأخبروا الشيخ أحمد الدردير، فكتب مراسلة إلى يوسف بك تتضمن عدم تعرضه لأهل العلم ومعاودة الحكم الشرعي، وأرسلها صحبة الشيخ عبد الرحمن الفرنوي وآخرين.

فعندما وصلوا إليه وأعطوه التذكرة نهرهم وأمر بالقبض عليهم، وسجنهم بالحبس.

ووصل الخبر إلى الشيخ الدردير وأهل الجامع فاجتمعوا في صباحها، وأبطلوا الدروس والأذان والصلوات، وقفلوا أبواب الجامع، وجلس المشايخ بالقبلة القديمة، وطلع الصغار على المنارات يكثررون الصياح والدعاء على الأمراء.

وأغلق أهل الأسواق القريبة الحوانيت، وبلغ الأمراء ذلك فأرسلوا إلى يوسف بك فأطلق المسجونين^(١).

* * *

(١) عجائب الآثار، للجبرتي، ١/٤٩٦-٤٩٧.



المبحث الرابع إعانة المرء على نفسه

إن أهل العلم متفاوتون في حظوظ النفس.

فمنهم من يصون نفسه عن مواطن المذلة والمهانة، ويعف عن أي مكسب من مال يرى فيه شبهة حرام، بل يمكن أن يترك كثيرًا من الحلال خوفًا من شبهة اختلاطه ببعض الحرام.

ومنهم من يقول كلمة الحق ولا يخاف في الله لومة لائم، ولو على نفسه أو الأقربين أو ذوي الجاه والسلطان.

ومنهم من يجتنب مخالطة الناس ترفعًا لنفسه عن النميمة والغيبة والوقوع في أعراض الناس.

ومنهم من يتأبى على المناصب فتأتيه وهي راغبة، بل ويعزل ونفسه عنها، ويطلبه السلطان للعودة فيجيب أحيانًا ويتمنّع كثيرًا.

ومنهم من لا تغره الدنيا بزخرفها؛ فيستوي عنده غناه وفقره؛ فلا يفرح لغناه، ولا يحزن لفقره، ويعلم أن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وما أصابه لم يكن ليخطئه.

وهناك من لم يعصمهم العلم... يعظون الناس ولا يتنفعون هم أنفسهم بمواعظهم... انغمسوا في الدنيا وملذاتها... واتخذوا العلم وسيلة للإثراء من الحلال والحرام... اتخذوه وسيلة للاستطالة على غيرهم... رفعهم العلم لكنهم أبوا إلا أن يذلوا أنفسهم.

وقفوا على أبواب الأمراء والسلاطين راغبين في لعاعة الدنيا، لم تمتلئ أعينهم بما عندهم فراحوا يستزيدون ويستزيدون.

يخافون من أهل الجاه والسلطان أكثر من خوفهم من الله تعالى.

جعلوا فتاويهم في خدمة الأمراء والسلاطين، يُجَلُّون ما أراد الأمراء تحليله، ويحرمون ما أرادوا تحريمه.

يدورون مع أهواء الأمراء والسلاطين أينما دارت.

يتلونون مع كل حاكم وأمير؛ فالاشتراكية من الإسلام، ويومًا آخر تكون الرأسمالية والديمقراطية هي العلاج لمشاكل الأمة.

يملكون حسن المنطق لا لإبراز الحق والحقيقة، ولكن لاستمالة قلوب العوام، ولتسويق فتاواهم المداهنة لذوي الجاه والسلطان.

يشغلون الناس بسفاسف الأمور، وبقضايا فرعية، ويهيلون التراب على عظام القضاء.

يقيمون المعارك الكبيرة إذا أراد الحاكم، ويسكتون إذا أراد الحاكم. يتقربون إلى أهل السلطان بالطعن في أهل العلم والحق.

ويميلون إلى تقسيم الناس؛ فهذا أشعري، وهذا معتزلي، وإخواني، وهذا سروري، وهذا جهادي، وهذا حزبي بغض، وهذا قبوري مشرك.

يشعلونها حربًا متقدمة على (عُباد القبور) - في زعمهم، ويكونون بردًا وسلامًا على سكان القصور.

الفصل الثاني: ممن يحصل اضهاد العلماء؟

يدفعون المال للوصول إلى مناصبهم؛ زيادة في الجاه، وزيادة في المال.
كلما ارتقوا في المناصب دفعوا في سبيل ذلك من كرامتهم.
يخافون من عزلهم من مناصبهم خوفهم من الموت أو أشد خوفاً.
يسرون في ركاب القوي مهما كان حتى ولو كان عدواً للأمة، سفاهاً
لدماء أبنائها، محتلاً لأراضيها.
وفي لحظة يخسرون كل شيء عندما يغضب عليهم السلطان، أو يجيء
سلطان آخر فيعزل بطانة من سبقه، أو يبطش بهم لسوء أفعالهم السابقة.
فلم يبق لهم الجاه الذي أمّلوه، ولا الكرامة التي أهدروها، ولا المال
الذي بذلوه.

خسروا أنفسهم، وأعانوا على أنفسهم.

والتاريخ مليء بأمثال هؤلاء الذين تسربلوا بسر بال العلم، لكن قلوبهم
كانت قلوب ذئاب ضارية.

وقد حذر النبي ﷺ من انزلاق الأقدام بالإتيان لأبواب السلاطين،
وما بعد الانزلاق إلا السقوط، وإذا كان يليق بعامة الناس عدم الإتيان
فهي بالعلماء أليق، فقال: «إياكم وأبواب السلطان؛ فإنه قد أصبح صعباً
هبوطاً»^(١).

(١) أخرجه أبو نعيم في «معرفة الصحابة»، (٤/٢٠١٨)، ح (٥٠٧٢)، وقد ذكره الألباني في
«الصحيحة»، (٣/٢٥٢)، ح (١٢٥٣).

قال المناوي: «هُبوطًا»، أي: منزلاً لدرجة من لازمه، مذلاً له في الدنيا والآخرة»^(١).

وقد ضيق جعفر الصادق الدائرة، فقال: «الفقهاء أمناء الرسل، فإذا رأيتم الفقهاء قد ركنوا^(٢) إلى السلاطين فاتهموهم»^(٣).

والفتنة في الدين والنفس والمال ملازمة لمن خالط الأمراء والسلاطين، يقول ابن مسعود: «إن على أبواب السلطان فتناً كمبارك الإبل، والذي نفسي بيده لا تصيبون من دنياهم (شيئاً) إلا أصابوا من دينكم مثله»^(٤).

وقد اعتبر سفيان الثوري العالم الذي يحتمي بالسلطان لصاً؛ فهو لص يسرق من دين السلطان بتزيين أفعاله وإضفاء الشرعية عليها، ويسرق من دين نفسه بالسكوت على الظلم وعدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويسرق من دين العامة الذين يرضون مظالم السلطان، ويسكتون على تعديه على الشرع لسكوت العلماء فقال: «إذا رأيت القارئ يلوذ بالسلطان فاعلم أنه لص، وإذا رأيت يلوذ بالأغنياء فاعلم أنه مُراء، وإياك أن تخدع فيقال لك: ترد مظلمة تدفع عن مظلوم؛ فإن هذه خدعة إبليس اتخذها القراء سلماً»^(٥).

(١) فيض القدير، للمناوي، ١٢١/٣.

(٢) في حلية الأولياء، ٣/١٩٤: «ركبوا».

(٣) تاريخ الإسلام، للذهبي، ٣/٨٣٣.

(٤) مصنف عبد الرزاق، ١١/٣١٧، ح(٢٠٦٤٤).

(٥) شعب الإيمان، للبيهقي، ٧/٥١.

الفصل الثاني: ممن يحصل اضطهاد العلماء؟

ومن سعي العالم على نفسه أن يحدث الناس بما لا يعرفون، يقول الذهبي عن وكيع بن الجراح: «محنة وكيع - وهي غريبة - تورط فيها، ولم يُرد إلا خيرًا، ولكن فاتته سكتة، وقد قال النبي ﷺ: (كفى بالمرء إثماً أن يحدث بكل ما سمع)^(١)، فليترك عبد ربه، ولا يخافن إلا ذنبه.

قال علي بن خشرم: حدثنا وكيع، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن عبد الله البهي، أن أبا بكر الصديق جاء إلى النبي ﷺ بعد وفاته، فأكب عليه، فقبَّله، وقال: (بأبي وأمي، ما أطيب حياتك وميتتك)، ثم قال البهي: وكان تُرك يوماً وليلة حتى ربا بطنه، وانثنت خنصره.

قال ابن خشرم: فلما حدث وكيع بهذا بمكة، اجتمعت قريش، وأرادوا صلب وكيع، ونصبوا خشبة لصلبه، فجاء سفيان بن عيينة، فقال لهم: الله الله! هذا فقيه أهل العراق، وابن فقيمه، وهذا حديث معروف.

قال سفيان: ولم أكن سمعته إلا أني أردت تخليص وكيع.

قال علي بن خشرم: سمعت الحديث من وكيع، بعدما أرادوا صلبه، فتعجبت من جسارته، وأخبرت أن وكيعاً احتج، فقال: إن عدة من أصحاب رسول الله ﷺ، منهم عمر، قالوا: لم يمت رسول الله.

فأراد الله أن يريهم آية الموت.

(١) أخرجه أبو داود في «الأدب»، باب: «في التشديد في الكذب»، (٤/٢٩٨)، ح (٤٩٩٢)، وقد صححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود»، (٣/٢٢٦-٢٢٧).

فهذه زلة عالم، فما لوكيع ولرواية هذا الخبر المنكر المنقطع الإسناد! كادت نفسه أن تذهب غلطاً، والقائمون عليه معذورون، بل مأجورون؛ فإنهم تخيلوا من إشاعة هذا الخبر المردود غضاً ما لمنصب النبوة»^(١).

ومن سعي العالم على نفسه وإيرادها المهالك ما يحكى أن قاضي القضاة شيخ الإسلام أحد الأئمة الأعلام جمال الدين بن جماعة الكِنَانِي الشَّافِعِي بآشر الخطابة بالمسجد الأقصى الشريف، وولي قضاء الشافعية بالقدس، وعزل نفسه مراراً ثم يسأل ويعاد، وولي تدريس المدرسة الصلاحية.

«وَاتَّفَقَ أَنْ بَعْضَ الْحَسَدَةِ أَغْرَى الشَّيْخَ سِرَاجَ الدِّينِ الْحَمِصِي عَلَى السَّعْيِ عَلَيْهِ، فَبَدَلَ مَا لَمْ يَبْعُضْ مَبَاشِرِي^(٢) السُّلْطَانَ، فَطَلَبَ الشَّيْخَ جَمَالَ الدِّينِ إِلَى مِصْرَ، وَعَقَدَ لَهُ مَجْلِسَ لِمُنَازَرَةِ بَيْنِهِ وَبَيْنَ الْحَمِصِي، فَغَيْبَ الْحَمِصِي، فَاسْتَمَرَ الشَّيْخُ جَمَالَ الدِّينِ فِي الْمَشِيخَةِ، وَأَكْرَمَهُ الظَّاهِرُ جَقْمَقَ، وَعَادَ إِلَى الْقُدْسِ مَعَامِلًا بِالْجَمِيلِ.

ثُمَّ سَعَى الْحَمِصِي فِي الْمَشِيخَةِ، وَأَعْطِيهَا، وَبَاشَرَ مُدَّةَ يَسِيرَةٍ ثُمَّ عَزَلَ، وَأَعِيدَ الشَّيْخُ جَمَالَ الدِّينِ وَاسْتَمَرَ بِهَا إِلَى أَنْ تَوَفِّي^(٣).

فهذا الحمصي رغم ما فعله من مكائد، وما بذله من أموال ليصل إلى المناصب الرفيعة ولو على رقاب العلماء الأثبات، لم يمكث في منصبه إلا مدة

(١) سير أعلام النبلاء، للذهبي، (٩/١٥٩-١٦٠) باختصار.

(٢) «مباشر: قيم، ناظر، وكيل» [تكملة المعاجم العربية، لدوزي، ١/٣٥٠].

(٣) تهذيب الأنس الجليل، للعلمي، ص ٣٨٠.

الفصل الثاني: ممن يحصل اضطهاد العلماء؟

يسيرة، وتم عزله؛ فهو قد أهان نفسه، ولم يصنها، وأعان غيره عليه، ولم يشفع له ما بذل من مال.

فضاع عليه المال ومن بعده ضاع المنصب.

وهذا «قاضي القضاة جمال الدين يوسف بن غانم بن أحمد بن غانم المقدسي النابلسي، ولي قضاء نابلس مدة طويلة، ثم ولي قضاء صفد، ثم ولي خطابة القدس في شهر ربيع الآخر سنة إحدى وثمانمائة بهال بذله.

ثم سعى عليه القاضي جمال الدين عبد الله بن السائح قاضي الرملة بمائة ألف درهم، ولم يقم بها غير ثلاثة أشهر، وعزل بالباعوني»^(١).

فماذا أفادت ابن السائح تلك المائة ألف درهم التي بذلها، وهل تمكن من جمعها في ثلاثة أشهر، أم كان يريد ببذلها جاهًا ووجاهة؟!.

والمستفيدون الوحيدون هم أصحاب السلطان وحاشيتهم، استفادوا بتلك الأموال المبدولة، يضربون العلماء بعضهم ببعض؛ حتى لا يجتمع أهل العلم عليهم، فيذعنون لهم وهم صاغرون، لكنهم استفادوا وأذلوا وتمكّنوا من حكمهم.

وقد رأينا حزب النور المصري، هذا الحزب الذي يزعم أنه سلفي، كان شوكة في ظهر إخوانه الإخوان المسلمين في سنة حكمهم لمصر (٢٠١٢-٢٠١٣)، وشاركوا في الانقلاب عليهم، ورضوا بأن يكونوا مطية للعسكر.

(١) تهذيب الأنس الجليل، للعليمي، ص ٤٠٩.

اضطهاد العلماء .. أسبابه وآثاره وواجب الأمة تجاههم

ورغم ذلك لم يشفع لهم فعلهم هذا عند العلمانيين والإعلاميين الذين يسبونهم ليل نهار، ويحذرون الناس منهم، ويحرضون الدولة عليهم.

وكل ما استفادوه هو بقاء حزبهم الذي يظهر وقت الانتخابات والاستفتاءات المزورتين، ولم ينالوا منصباً ولا جاهاً ولا سلطاناً، ويتجرعون كأس المذلة من الجميع.

* * *

المبحث الخامس من الإعلام

إن الإعلام قوة مؤثرة في توجيه الناس، وصناعة الرأي العام، ومن يمتلكه ويجعله طوعه يكون قد امتلك الجماهير، يرفع من يشاء ولو كان سفيهاً وضيعاً، ويضع من يشاء ولو كان كريماً شريفاً.

وهناك أطراف كثيرة تحاول أن تجعل لها قدماً في امتلاك هذه القوة؛ فالدولة تحاول أن تجعله بوقاً لها، وناطقاً باسمها، ومفصلاً عن سياساتها، ومعبراً عن توجهاتها وأفكارها، وموجهاً الناس حسب مرادها وتوجهها.

وبنظرة على الوسائل الإعلامية في دولة مصر كنموذج قبيل ثورة يناير ٢٠١١م نجد أنه في بعض الأحيان يكون الإعلام تحت رعاية وسيطرة عدة أجهزة سيادية داخل الدولة؛ فيكون -مثلاً- للمخابرات العامة قنواتها التابعة لها، وللمخابرات الحربية قنواتها التابعة لها... إلخ.

ورجال المال والأعمال قد جعلوا لهم موطئ قدم في المجال، فاستحوذوا على بعض الوسائل، واتخذوها منابر لهم للترويج لأعمالهم، أو لغسل بعض أموالهم.

وقنوات رجال الأعمال -في الغالب- لا تخرج عن طوع الدولة، وإن كانت بعض الصراعات تحدث نتيجة للصراعات داخل أجنحة الدولة.

وإن خرج أحد رجال الأعمال بقناته عن الخط المرسوم يتم تأديبه حسب مقدار خروجه.

اضهاد العلماء.. أسبابه وآثاره وواجب الأمة تجاههم

وحاول الإسلاميون أن يكون لهم صوت وسط هذا الضجيج، وهو وإن كان أقلهم في النفقات والإمكانات إلا أنه كان له أثر محمود وسط الجماهير العربية.

لكن كان لهم حدود وخطوط حمراء ما كان لهم أن يتخطوها.

ولم يكن مسموحًا للظهور في الإعلام والإذاعات إلا للعلماء المرضي من الدولة، وفي القنوات الإسلامية كان يتم التضييق على العلماء المعارضين للدولة، ولا مانع من اعتقالهم، أو إغلاق القنوات التي يظهرون فيها.

ومن يتسرب من المعارضين للدولة في بعض القنوات والإذاعات الرسمية فإنه سرعان ما يُتنبَّه له ويمنع من الظهور مرة أخرى.

والمنع من الظهور لبعض العلماء كان سلاحًا أصيلاً تستخدمه الدولة تجاه معارضيها.

وعليه فيمكن القول: إن الإعلام -على العموم- يعتبر مؤمماً حتى وإن اتسعت اتجاهاته من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار.

فالكل تحت السيطرة، وإن بدت بعض القنوات بها بعض الهوامش من الحرية، فتفتح الباب للمعارضة، وتهاجم بعض سياسات الدولة ورجالها؛ فهذه سياسة مرسومة؛ حتى يظهر أن الدولة تقبل الرأي المعارض، وأنها دولة بها هامش من الحرية، وحتى يجد الشعب بعض التنفيس؛ حتى لا تنفجر الأوضاع، وتخرج الأمور عن السيطرة.

الفصل الثاني: ممن يحصل اضطهاد العلماء؟

وكانت دول ما بعد ثورات التحرر من الاحتلال رأت أن النهضة والتقدم في إعطاء ظهورها للإسلام، واتخاذ الأفكار المستوردة من الغرب، ورغم أنها حاولت التحرر من الغرب إلا أن هذا التحرر كان منقوصاً؛ فالتحرر العسكري لم يصاحبه ولم يسر معه ولا في ركابه تحرر ثقافي.

وعم الشرق الفكر الاشتراكي وأصبحت له الكلمة العليا، وتم تمكين اليساريين من المنابر الثقافية والإعلامية.

وراخوا بدورهم ينشرون الفكر الماركسي ويروجون لنظرياته، وفي المقابل أخذوا يزرون بالإسلام واتهامه بالرجعية والظلامية والتخلف.

وكل من ينادي بالإسلام منهجاً للحياة فهو رجعي وظلامي ومتخلف، وراخوا يشيطونهم؛ فالإخوان المسلمون -مثلاً- الذين كانوا شركاء في ثورات التحرر من الاستعمار والأنظمة الملكية أصبحت بين يوم وليلة إخوان الشياطين الذي يسعون في الأرض فساداً، فيفجرون ويقتلون ويفعلون كل منكر وسوء.

وأخذوا يبثون ذلك في الصحافة والكتب والدوريات والإذاعات والأفلام والمسلسلات، وأصبح الأصل التهكم من أهل الدين واللغة في الأعمال الفنية؛ وذلك لتشويههم، ولتحطيم رمزياتهم في العقول والقلوب.

وتم صناعة مجموعة من العلماء وترميزهم في أحسن أحوالهم لا يتكلمون في السياسة، ويسكتون عما يحدث لإخوانهم من العلماء والمثقفين والعامّة من بطش وتنكيل، أو يتحدثون عن ذلك في مجالسهم باستحياء شديد.

وفي أسوأ الأحوال كان من هؤلاء الرموز من كان سيفًا مصلتًا على رقاب إخوانهم العلماء، والذين لم يكونوا على وفاق مع سياسة الدولة، رضوا بسفك دمائهم، واستحلال أموالهم وأعراضهم.

وتم إغداق الأموال وفتح المناصب لهؤلاء الرموز، وإبعاد غيرهم والبطش بهم، وكانت الوسيلة المثلى في ذلك هو الإعلام بوسائله المختلفة.

وقد جنت الأمة من ثمار هذا الإعلام الموجه الحنظل؛ قال أبو الحسن الندوي -رحمه الله: «إن من أعظم أسباب النكبة التي نكبت بها مصر، وامتدت هذه النكبة إلى جميع البلاد العربية: الصحافة والإذاعة المصريتان؛ فقد لعبتا دورًا في إفساد الذوق، وشل النظام الفكري، وتخدير الأعصاب، وتعمية الأبصار عن إدراك الحقائق، ونشر المجون، والعبث بالقيم والموازن، وأصول الأخلاق والشرائع.

وإن كل شعب يعيش تحت وطأة هاتين السلطتين اللتين تستحق أن تسمى كل واحدة منهما صاحبة الجلالة، ويهبها قلبه وعقله وسمعه وبصره، لا بد أن يفقد الاتزان، ويخل الميزان، فلا يعرف معروفًا، ولا ينكر منكرًا، ولا يحب طيبًا، ولا يعاف خبيثًا، وإنه عرضة لكل خطر، وهدف لكل إهانة، وجدير بكل هزيمة»^(١).

وبعدما ذاقت الشعوب العربية النكسات بسبب هذا الإعلام الذي حرض الأمة على علمائها، وهدم قيمها ومثلها، وأظهرت بطولات زائفة

(١) المسلمون وقضية فلسطين، للندوي، ص ١٦٣-١٦٤.

الفصل الثاني: ممن يحصل اضطهاد العلماء؟

وانتصارات وهمية، استيقظت وأفادت إفاقة مكتبها من التخلص من الأنظمة الاشتراكية وإعادة بعض الكرامة بالانتصار على الصهاينة في معركة العاشر من رمضان، وتخليص العلماء من بلاء السجون والنفي والتشريد الذي مورس ضدهم من دولة ما بعد ثورة (انقلاب) يوليو ١٩٥٢ وروج له الإعلام.

لكن تحولت الدولة إلى النظام الرأسمالي، فتحول كثير ممن ناصر الاشتراكية إلى الرأسمالية، ولم يجدوا في ذلك غضاضة، لكنهم بقوا على عداثهم للإسلاميين وعلمائهم، وإن كانت بطريقة أقل حدة وعنفاً عن ذي قبل.

وظلت الأعمال الدرامية على نهجها وخطها العام في تشويه الإسلاميين، والطعن في علماء الصحوة الإسلامية.

ولو انتقلنا سريعاً إلى مرحلة ما بعد ثورة يناير لوجدنا أن الإعلام الإسلامي الوطني لم يكن قوياً قوة قنوات الفضول والقنوات الممولة من الخارج.

ينقصه الخبرة والاحترافية والتمويل، لكنه كان له أثر، لكنه الأثر الذي لم يوقف الانتكاسة وطوفان الغدر والخيانة.

ويمكن تلخيص معركة الإعلام بأن الإعلام الوطني الإسلامي هُزم إعلامياً قبل أن يُهزم سياسياً، ويقول السلاح الخائن الكلمة الفصل التي أعادت أسوأ ما كان في دولة يوليو القديمة.

اضطهاد العلماء.. أسبابه وآثاره وواجب الأمة تجاههم

وعاد الإعلام أكثر ضراوة في التحريض على العلماء وأتباعهم الذين لا يريدون عسكرة الدولة ولا صهيبتها ولا أمركتها.

وأغلقت دولة الانقلاب كل القنوات التي كانت على يقين أنها لن تقبل بها ولا بانقلابها.

فالمعركة في بعض صورها معركة إعلامية؛ إذ يحتاج كل طرف إلى نشر وجهة نظره واستقطاب فئات واسعة من الشعب إليه.

وأخيراً؛ فالعلماء يزداد تأثيرهم السلبي أو الإيجابي بتوفر حظوظهم من الظهور الإعلامي والإذاعي؛ فمنبر المسجد أو الدرس أو الندوة أو الكلمة المكتوبة بصحيفة أو مجلة محدودة التأثير مقارنة بالإعلام الذي لا تخلو دار من شاشة من شاشاته.

فمعركة السموات من خلال الفضائيات لا تنفصل بحال من الأحوال عن معركة الأرض من خلال الالتحام بالشعوب وتوصيل الأفكار بالاحتكاك المباشر، أو إبطال الأفكار التحريضية السلبية عن الإسلاميين والوطنيين.

ومن أمثلة اضطهاد الإعلام لبعض العلماء ما يقوم به الإعلام الهندي ضد الدكتور ذاكر عبد الكريم نايك خليفة الشيخ أحمد ديدات -رحمه الله؛ حيث تتهمه بأنه يشوّه سمعة الأديان الأخرى، وأنه يسب أديان غير المسلمين، وقد قامت السلطات الهندية بإبطال جواز سفره، وطلبت من الشرطة الدولية وضعه ضمن النشرة الحمراء.

الفصل الثاني: ممن يحصل اضطهاد العلماء؟

وهو خارج بلده منذ ٢٠١٦م وتنقل بين البلدان، وحط رحاله باليزيا، لكن المشاكل ما زالت تطارده، والتربص به وبتصريحاته واجتزاؤها ومهاجمته بها على أشده.

أما الإعلام السعودي فإنه يحاول تلميع السلطة والسير في ركابها، وهو كله على شاكلة واحدة، ولا تجد قناة واحدة معارضة أو حتى محايدة، فالمحايد أو المعارض يدفع حياته وعمره في سبيل هذه المعارضة أو حتى هذا الحياض. فهو إعلام يعادي من يعاديه النظام، ويوالي من يواليه النظام.

وهو منصة للتهجم على العلماء، وقد بلغ الأمر ذروته حينما يحاول ربط الإرهاب بأعلام اشتهروا بالتوسط والاعتدال؛ فقد أجرى الإعلامي عبد الله المديفر لقاء مع «قيادي سابق في تنظيم القاعدة بجزيرة العرب، والذي أشار إلى أن ذهابه إلى الشيشان وأفغانستان كان بسبب تحريض أشرطة رموز تيار الصحوة، والخطاب المتشدد في حينه، إضافة إلى (مذكرة النصيحة) التي قدمها رموز إسلاميون وحقوقيون للملك فهد، مطلع تسعينيات القرن الماضي.

ويبين أنه متأثر برموز تيار الصحوة: سفر الحوالي، وسلمان العودة، وعائض القرني، وسعد البريك.

وجميع من ذكرهم معتقلون باستثناء القرني، وقد بدا واضحاً أن المديفر وجهه إلى هذا القول»^(١).

(١) الخليج أونلاين، تقرير تم نشره يوم الخميس، ٢٣-٠٥-٢٠١٩ بعنوان: لنيل رضا السلطة.. التاريخ الإسلامي يهان في برنامج سعودي: <http://khaleejj.online/GaRYj9>

اضطهاد العلماء.. أسبابه وآثاره وواجب الأمة تجاههم

بل إن الشيخ القرني في لقاء مع الإعلامي المديفر صدم الجمهور بالاعتذار عن دوره في فترة الصحوة، والتي يعتبر من رموزها، والتي اعتبرها القرني متشددة ومخالفة للكتاب والسنة ولسماحة الإسلام^(١).

والإعلام الإماراتي يقوم بنفس الدور، فيقوم بتلميع بعض المشايخ الذين يهاجمون الحركات الإسلامية مثل: وسيم يوسف الذي يكتر من الهجوم «على الشيوخ والدعاة السعوديين مثل: العريفي وسلمان العودة وحمود العمري واصفًا إياهم بدعاة الفتنة وصابغى تنظيم داعش»^(٢).

* * *

(١) انظر: برنامج الليوان تحت عنوان: حكاية الصحوة، والمذاع على قناة روتانا خليجية.

(٢) نون بوست، تقرير تم نشره يوم ٠٩ يونيو ٢٠١٧م بعنوان: «وسيم يوسف سلاح الإمارات

الديني»: <https://tinyurl.com/y4rcep33>

المبحث السادس من القوى الخارجية

ما سبق الحديث عنه يمكن جمع مفرداته تحت عنوان: القوى الداخلية، فلم يبق إلا أن نتعرف على القوى الخارجية وعلاقتها بعلمائنا.

والدول الساعية لأن يكون لها وزن على الساحة الدولية تحاول أن تستقطب العلماء والباحثين والإعلاميين والصحفيين من خارج أراضيها، وأن تجعل ولاءهم لها، أو ترضى منهم أن يكونوا أبقاقاً لها، ومبررين لأفعالها وتوجهاتها، وأن ينشروا فكرها ورأيها ويبشروا به.

ولا يكون ذلك بالمجان، بل تُبذل الأموال الطائلة تحت مسميات عديدة، مثل: المراكز البحثية، أو إقامة الندوات والمؤتمرات، أو إقامة دور للنشر والطباعة، أو تمويل إنشاء الفضائيات والصحف والإذاعات، أو إقامة المدارس والجامعات الدولية.

وليست الدول وحدها من تقوم بهذا الاستقطاب ومحاولة الشراء، بل المنظمات والحركات تقوم بالأمر نفسه.

فمثلاً حركة «الخدمة» التركية التابعة لفتح الله غولن استقطبت العديد من العلماء الكبار، وفتحت لهم صفحات مجلتها «حراء»، ودور نشرها، وأقامت الندوات والمؤتمرات الدولية، ولها نشاطات واسعة في أنحاء مختلفة من العالم.

والدول العربية والإسلامية لا تهتم باستقطاب علماء العلوم ك: الفلك والذرة والطب... إلخ، بل ينصب اهتمامها على أهل الفكر والشرع.

وذلك على عكس الدول الغربية وأمريكا التي تفتح بلادها لكل عالم نابه يمكن له أن يفيدها في استمرارية تفوقها العلمي، وهيمنتها الحضارية والعسكرية.

فالجامعات الغربية ومراكز أبحاثها ومختبراتها ووكالاتها الفضائية تعج بالعلماء العرب والمسلمين، ولا تبخل عليهم بالجنسية، وكل ما يوفر لهم رغد العيش.

على العكس من الدول العربية التي مهما عشت فيها وعملت فلن تأخذ جنسيتها إن لم تكن من مواطنيها.

وطبعًا الغرب وأمريكا يقبل بهؤلاء العلماء ويفتح لهم الأبواب إذا كانوا خاضعين لثقافتهم، أو على الأقل غير معادين لها، ولا يعملون ضد مصلحتها، أو غير مناوئين لسياستها.

فمن ناوأ سياستها حرضت عليه حتى وإن لم يكن على أراضيها؛ فأبو القنبلة النووية الإسلامية عبد القدير خان عندما حمل على عاتقه أن يجعل المعرفة النووية وصناعة القنبلة النووية متاحة للمسلمين حرضت عليه رئيس باكستان الأسبق برويز مشرف الذي وضعه تحت الإقامة الجبرية.

أما المفكرون وعلماء الشرع الذين يعترضون على سياسة الغرب وأمريكا في بلدانهم العربية والمسلمة فإنهم يتعرضون للضغط والترهيب والمتابعة وذلك من خلال وضع الحركات والجماعات والأحزاب الإسلامية التي ينتمون إليها على قوائم الإرهاب.

الفصل الثاني: ممن يحصل اضطهاد العلماء؟

فجماعة الإخوان المسلمين بها مجموعة كبيرة من العلماء، وكانت روسيا قد أدرجتها على قائمة الإرهاب، وتسعى أمريكا في عهد ترمب على إدراجها على قوائم الإرهاب.

وكذا حركة المقاومة الإسلامية حماس، المدرجة على قوائم الإرهاب... إلخ.

وقد يتم منع العلماء من دخول أراضيها مثلما فعلت فرنسا مع العلامة الدكتور يوسف القرضاوي، ومفتي القدس الشيخ عكرمة صبري، والداعية السعودي الشيخ عائض القرني، والدكتور صفوت حجازي^(١).

وكذلك الدنمارك التي منعت خمسًا من رجال الدين الإسلامي من دخولها واصفة إياهم بأنهم «دعاة كراهية»، وأنهم يشكلون تهديدًا للنظام العام.

«وتشمل القائمة السوداء الداعية الإسلامي كمال المكّي من الولايات المتحدة، والكندي المولود في جامايكا بلال فيليبس الذي يعيش في قطر، ومحمد العريفي وسلمان العودة من السعودية، ومحمد راتب النابلسي من سوريا»^(٢).

(١) انظر: بوابة الشروق، خبر: فرنسا تمنع دخول أشهر الدعاة في العالم الإسلامي!، والمنشور يوم

<https://tinyurl.com/yymr23uw>: ٢٩ - ٠٣ - ٢٠١٢م

(٢) انظر: موقع RT، خبر: الدنمارك تمنع ٥ دعاة إسلاميين وقسا من دخولها، والمنشور يوم ٢ - ٠٥

<https://tinyurl.com/y2fzaotj>: ٢٠١٧م -

اضطهاد العلماء.. أسبابه وآثاره وواجب الأمة تجاههم

ويسكت الغرب على ما تقوم به الأنظمة العربية والمسلمة من سجن للعلماء والمفكرين، الذين تُنتهك حقوقهم، ويُظلمون ظلماً بيناً، بينما تدافع عن العلمانيين والشواذ ودعاة حقوق الإنسان على مراد الغرب.

ولا يقف الأمر على السكوت على السجن ومصادرة الأموال والفصل من الوظائف، بل تسكت على الإعدام وإزهاق الأرواح، ولا تتكلم إلا المنظمات الغربية المعنية بحقوق الإنسان.

فالسعودية تعتقل صفوة علمائها ومفكرها مثل: الدكتور سلمان فهد العودة والدكتور عوض القرني والدكتور سفر الحوالي وغيرهم الكثير، فلا تتحرك أوروبا وأمريكا.

ومن ذلك من قامت به الهند من التضييق على الداعية الإسلامي الدكتور ذاكر نايك واتهامه بالإرهاب ومطالبة الاستخبارات الهندية الشرطة الدولية وضع د. ذاكر نايك ضمن النشرة الحمراء أي ضمن المطلوبين. كما ذكر بيان صادر عن وزارة الخارجية الهندية أن جواز سفر الداعية نايك قد تم إبطاله بناءً على طلب من وكالة الأمن القومي (الاستخبارات). وأضاف البيان أن مكتب الجوازات المحلي في مدينة مومباي غربي الهند، ألغى جواز سفر الدكتور ذاكر عبد الكريم نايك؛ استناداً لأحكام قانون جوازات السفر الصادر عام ١٩٦٧^(١).

(١) انظر: موقع الخليج أونلاين، تقرير: الهند تسحب الجنسية من الداعية الإسلامي «ذاكر نايك»،

والمنشور يوم ١٩-٠٧-٢٠١٧م: <https://tinyurl.com/y2g72bno>

الفصل الثاني: ممن يحصل اضطهاد العلماء؟

وبنغلاديش تعدم العلماء والقادة الإسلاميين فلا يتحرك الغرب ولو بالشجب والإنكار، وقد قررت منع الدكتور ذاكر نايك من دخولها واتهمته بدعم الإرهاب عقب تفجيرات وقعت بها، وزعمت أن أحد المتهمين كان من مشاهدي قناته الفضائية!

وحظرت حكومة سريلانكا فضائية الدكتور ذاكر نايك بعد التفجيرات التي وقعت بها مؤخراً، والتي اعترف الرئيس السريلانكي فيما بعد أن تجار المخدرات هم الذين نفذوها.

وقد قررت بريطانيا منع الدكتور ذاكر من دخول أراضيها بعد ضغوط من طوائف كشف بطلان عقائدها في محاضراته^(١).

أما إسرائيل فلها نصيب الأسد في هذا الملف؛ فهي لا تقف عند التحريض، بل يتعدى الأمر إلى التصفية والاعتقال من خلال ذراعها المخبراتي «الموساد» كما أشارت له أصابع الاتهام في اغتيال الدكتور جمال حمدان^(٢)، أو بالقتل المباشر كما فعلت مع العلماء المجاهدين أمثال الشيخ نزار ريان.

أما الصين فلها جرائم منكرة ضد المسلمين وعلمائهم، وتمارس أبشع أنواع التمييز ضد مسلمي تركستان الشرقية التي تحتلها، ومن ممارساتها ضد علماء تركستان أنها تقوم بـ:

(١) انظر: موقع الجزيرة مباشر، مقالة: وضقت الأرض على الداعية ذاكر نايك، لعامر عبد المنعم،

والمنشورة يوم ٣١-٠٨-٢٠١٩م: <https://tinyurl.com/y4x4w5pf>

(٢) انظر: خبر اغتالات غامضة لعلماء مسلمين: <https://tinyurl.com/v6jh3fst>

اضطهاد العلماء .. أسبابه وآثاره وواجب الأمة تجاههم

- «إجبار العلماء المسلمين على حمل تصاريح رسمية تظهر مدى تعاونهم ومؤازرتهم لرجال السلطة والحزب الشيوعي الملحد.
- إجبار العلماء والأئمة على تعلم المبادئ الشيوعية وتعاليم السلطة الصينية في كيفية التعامل مع شؤون المسلمين الدينية والاجتماعية.
- إجبار العلماء والأئمة على توقيع تعهدات بالامتناع عن تعليم أبناء المسلمين أحكام الإسلام في المنازل أو المساجد.
- اعتقال العلماء الذين لا ينفذون تعاليم السلطات الصينية وتعذيبهم حتى الموت»^(١).

ومن نالهم الأذى الشيخ محمد صالح كاشغري الذي له العديد من المؤلفات والتراجم الإسلامية منها ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة الأويغورية، وقد توفي بعد توقيفه لمدة ٤٠ يوماً، كان يعيش في الإقامة الجبرية حوالي ١٣ عاماً^(٢).

«وفي السابع والعشرين من مايو الحالي [٢٠١٩] أعلنت السلطات الصينية خبر وفاة علامة أتراك الأويغور وعظيمهم الشيخ عبد الأحد بن براءة المخدم في السجون الصينية النازية عن عمر ناهز السبعة والثمانين عاماً،

(١) <https://tinyurl.com/y68o78q6>

(٢) انظر: موقع تركستان تايمز، خبر: الشيخ محمد صالح كاشغري.. رحيل عالم:

<http://turkistantimes.com/m/news-2660.html>

الفصل الثاني: ممن يحصل اضطهاد العلماء؟

ولقد اعتقلت السلطات الصينية الشيخ عبد الأحد أكثر من خمس مرات قضي في السجن ما يزيد على الثلاثين عامًا خلال فترات متقطعة كان آخرها اعتقاله قبل سبعة أشهر قضي منها شهرًا تحت التعذيب الوحشي، وسامته فيه سوء العذاب حتى لقي ربه راضيًا مرضيًّا^(١).

* * *

(١) موقع مدونات الجزيرة، مقالة لمحمد أمين الإيغوري بعنوان: الموت تحت السياط... واقع المسلمين

في السجون الصينية: <https://tinyurl.com/y4e376wj>



الفصل الثالث أسباب اضطهاد العلماء

ويشتمل على توطئة وستة مباحث:

المبحث الأول: ضعف العلماء وركونهم إلى الدنيا

المبحث الثاني: التأويل الفاسد والحيل المحرمة

المبحث الثالث: الجهل

المبحث الرابع: الغيرة والحسد

المبحث الخامس: مخالفة ذوي السلطان

المبحث السادس: اختلاف المذهب الفقهي والاعتقادي والسياسي



توطئة:

لا يأتي اضطهاد العلماء عفو الخاطر، أو بلا أسباب أو مبررات، يبررها لنفسه من يقوم بهذا الأمر.

والأسباب متعددة، وقد تأتي متفرقة في كثير من الأحيان، وقد يأتي أكثر من سبب في حالة واحدة.

فمثلاً: قد يتم اضطهاد بعض العلماء في مؤسسة ما؛ لأن رؤساءهم في العمل يحسدونهم على اجتهادهم؛ فيكون السبب الظاهر أو المضمّر واحداً فقط وهو الحسد، وقد يجتمع أكثر من سبب كالحسد واختلاف الرؤية السياسية أو المذهبية.. إلخ.

والكل يبحث عن التبرير؛ فالقوي الظالم يجد لنفسه المبررات، أو يحيط نفسه بمن يُوجد له المبررات، بل ويزينها له.

والضعيف كذلك لا يعدم المبررات عند صدور أعماله.

وهذا يعني أن الاضطهاد لا يصدر فقط من الأقوياء، بل قد يأتي من الضعفاء، لكن عن مكر وحيلة ودهاء.

فالقوي قد يجاهر بما يفعل استناداً على قوته ومنعته.

أما الضعيف فيفعل الفعل في الخفاء وقد يقف بجوار المضطهد حتى يبعد عن نفسه التهمة.

ومن طبيعة النفس أن تلقي بالمسؤولية على الآخرين وتزيجها عن كاهلها؛ فمن السهل أن تُلقي باللائمة على الآخرين وتبرئ نفسك من كل فعل فيه تعدُّ على الآخرين.

والناس أمام أفعالهم تجاه الآخرين على حالين:

● من يفعل ما فعل ثم يؤرقه ضميره؛ إذ كان فعله في لحظة ضعف، أو تهور، أو غفلة، أو بتأويل فاسد، فيفتق فيشعر بوخز الضمير، وحسب شدة هذا الوخز يكون تراجعهم؛ إذ قد لا يتمكن من التراجع مما فعل، وقد يتراجع طالباً الصفح والمغفرة ممن أساء إليهم، وبينهما درجات متفاوتة.

● من يموت ضميره؛ فلا يرى بأساً من ظلم الناس، والاعتداء عليهم، وإلحاق الضرر والأذى بهم، وهذا يكون فساداً عظيماً وشره مستطيراً، وكلما طال عمره كثر بلاء الناس به، وهذا ينطبق عليه قول النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: «تُعْرَضُ الْفِتْنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُوْدًا عُوْدًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أَشْرَبَهَا نُكَيْتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكَيْتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءٌ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضٍ مِثْلِ الصِّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخِرُ أَسْوَدٌ مُرْبَادًا كَالْكُوزِ مُجْحِيًّا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أَشْرَبَ مِنْ هَوَاهُ»^(١).

(١) أخرجه مسلم في «الإيمان»، باب: «بَيَانُ أَنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا وَأَنَّهُ يَأْرُزُ بَيْنَ الْمُسْجِدَيْنِ»، (١/١٢٨)، ح (١٤٤) من حديث حذيفة -رضي الله عنه-.

الفصل الثالث: أسباب اضطهاد العلماء

وفي هذا الفصل سوف نعالج الأسباب التي تجعل البعض يذهب إلى اضطهاد العلماء، وهي أسباب استنبطناها بعد تأمل، وقد يكون هناك أسباب لم نقف عليها.

وفي الصفحات التالية سنلقي الضوء على ما ظهر لنا وبان.

* * *



المبحث الأول

ضعف العلماء وركونهم إلى الدنيا

لا شك أن كل إنسان يبحث عن السعادة، ويتلمس طرقها، فمنهم من يصل إليها، أو يعرف السبيل إليها، ومنهم من يضل الطريق فلا يهتدي لها.

البعض يرى السعادة في مال يكتنزه ويحوزه، وآخرون يرونها في جاه يرفعه في أعين الناس، ومنهم من يراها في سلطة يقهر بها الناس ويجعلهم تحت أمره وتصرفه... إلخ.

ولا شك أن هذه سعادة قد يلتذ بها صاحبها فترة من الزمن، ثم يزهد فيها، إن لم تنقلب سعادته حزنًا وألمًا وكآبة.

وهؤلاء ظنوا أن السعادة موطنها الأرض، وهم واهمون؛ إذ إننا قررنا سابقًا أن الأرض محل النصب والكدح والكبد، وسعادتها جزئية منقوصة.

أما السعادة التامة الكاملة ففي الآخرة ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَنَحْنُ الْجَنَّةُ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوذٍ ﴾ [هود: ١٠٨]؛ فالجنة هي محل السعادة، هي موطنها الأصيل.

ومن انحرفت بوصولهم نظروا تحت أقدامهم، ونسوا يومًا يرجعون فيه إلى الله، فراحوا يفسدون في الأرض في سبيل الوصول إلى مبتغاهم.

قد لا نختلف أن من حق كل فرد أن يسعى لسعادته، لكن أن تكون سعادته في أن يدوس على الآخرين ويطأهم بقدمه، فهذا لن يوصله أبدًا إلى

اضطهاد العلماء .. أسبابه وآثاره وواجب الأمة تجاههم

السعادة التي ينشدها، وسيجعل نحره وصدرة عرضة لسهام الدعاء عليه من اعتدى عليهم وظلمهم، فهذا خسران مبین لا مرأى فيه.

وهذا العدوان وإن كان يبدو في ظاهره أنه قوة وتجبر، إلا أنه في باطنه ضعف نفس، فالنفوس الضعيفة هي التي تستطيل على الآخرين، وتسعى في أذيتهم، وهي التي انشغلت بالدنيا فأعمها المغنم القريب الزائف عن المغنم الحقيقي الذي تأخر إلى أجل معلوم.

وكان بعض العلماء حتى لا يركن إلى الدنيا يميل للانعزال، وينقبض عن الناس، وكان المؤرخون يلاحظون ذلك فيثبتونها في الترجمة، فمثلاً يذكر العليمي أن أبا الأسباط يعقوب بن يوسف الرومي الحنفي - وكان من أكابر العلماء الحنفيّة - «كان من أهل الخير والصلاح، وله وجاهة، وهو منجم عن الناس لا يخالط أبناء الدنيا»^(١).

وقد يقبل أن ينشغل أهل السياسة والسلطان بالدنيا، لكن أن ينشغل بعض أهل العلم بالدنيا، ويتركون وظيفتهم السامية في إرشاد الخلق وتعليمهم وتركيتهم؛ لأنهم ورثة الأنبياء، فهذا يعد من أم المصائب.

قال إبراهيم الخواص: «أربع خصال عزيزة: عالم مستعمل لعلمه، وعارف ينطق عن حقيقة فعله، ورجل قائم لله بلا سبب، ومريد ذاهب عن الطمع»^(٢).

(١) تهذيب الأنس الجليل، ص ٥٠٨.

(٢) حلية الأولياء، ١٠/٣٢٦.

الفصل الثالث: أسباب اضطهاد العلماء

وأن يكون الساسة هم الساعون لأهل العلم فهذا هو الطبيعي، لكن أن يكون بعض أهل العلم خدمًا لأهواء أهل السياسة والسلطان فهذه مذلة وعار وانقلاب في موازين الأمور.

«قال بكر بن منير: بعث الأمير خالد بن أحمد الذهلي والي بخارى إلى محمد بن إسماعيل^(١): أن احمل إلي كتاب (الجامع) و(التاريخ)^(٢) وغيرهما لأسمع منك.

فقال لرسوله: أنا لا أذل العلم، ولا أحمله إلى أبواب الناس. فإن كانت لك إلى شيء منه حاجة، فاحضر في مسجدي، أو في داري. وإن لم يعجبك هذا فإنك سلطان، فامنعي من المجلس؛ ليكون لي عذر عند الله يوم القيامة؛ لأنني لا أكتم العلم. فكان سبب الوحشة بينهما هذا»^(٣).

فالبخاري كان غنيًا بإيمانه وعلمه عن الدنيا وزينتها، والأمرء ووجاهتهم؛ فالاقتراب منهم لن يزيدهم وجاهة.

صحيح ابتلي البخاري بفعل هذا الأمير، لكن من بقيت سيرته، ومن انتفع الناس به؟!.

(١) هو محمد بن إسماعيل البخاري.

(٢) المقصود: صحيح البخاري والتاريخ الكبير.

(٣) سير أعلام النبلاء، (١٢/٤٦٤) باختصار.

البخاري هو علم الأعلام، يعرفه العالم والأمي، والمتقف والجاهل، لكن هذا الأمير لا يعرفه أحد لا من أهل التاريخ والسير ولا من غيرهم. وبعزوف البخاري وأمثاله وأضرابه عن الدنيا وزخرفها وزينتها نزلت الحكمة في قلوبهم.

قال إبراهيم الخواص: «الحكمة تنزل من السماء فلا تسكن قلباً فيه أربعة: الركون إلى الدنيا، وهمُّ غد، وحب الفضول، وحسد أخ»^(١).

وهذا الضعف النفسي قد يكون عارضاً، وقد يكون متمكناً من صاحبه.

والضعف قد يكون ضعفاً علمياً وليس نفسياً فقط، ولا يحاول صاحبه أن يجتهد ويرتقي بنفسه عن طريق الازدياد في التعلم والقراءة والتحصيل على يد كبار العلماء والمشايخ، لكنه يحاول تحطيم من هم خير منه، ويسعى في الإضرار بهم.

والعلم يرفع صاحبه في أعين الناس حتى يجالس الملوك والأغنياء، ويكون له صدارة المجالس، ويكون له الأتباع والمريدون الذين يتبعونه ويأخذونه عنه.

وهذه الأمور قد تفتن صاحبها إذا ضعفت نفسه؛ فإذا وجد ميلاً من الناس عنه إلى غيره من العلماء سعى في التخلص من منافسه هذا بأي طريقة، وبأي ثمن.

(١) حلية الأولياء، ١٠/٣٢٦.

الفصل الثالث: أسباب اضطهاد العلماء

وهذا معناه أن الدنيا قد غرتَه وفتنته، ولم يعد قصده الآخرة، بل قد انحرفت بوصلته، وضل نجمَ هدايته.

وكم من عالم كبير أفقه من غيره، وليس له الأتباع، وفاته الجاه والغنى، ولم يعرفه ذوو السياسة والسلطان، لكنه معتدُّ بنفسه، ولا يبحث عن الدنيا، لكنه ينتظر الثواب من الله تعالى.

لكن من يبحث من العلماء عن الجاه والمنصب والأتباع سيتعب نفسه، وسيعمل على إزاحة من في طريقه للوصول إلى مبتغاه الدنيوي.

قد يصل، ولكنه سيصل على أشلاء ضحاياهم الذين لم يكن لهم أي ذنب تجاهه، ويغيب عن هؤلاء أن الأيام دول، ودوام الحال من المحال، فمن مكَّنه للوصول إلى ما أراد قد يذهب ويأتي من يرد المظالم إلى أهلها، وينكل بهذا الظالم الذي اتخذ العلم مطية للوصول إلى مآربه الخبيثة، ولم يجعله لتنوير الناس وإفادتهم.

وقد أسمى تاج الدين السبكي بعض ضعاف النفوس المتربصين بالعلماء السوء: أعوان الشيطان^(١).

وفي ترجمة قاضي القضاة جمال الدين أبي العزم التي أوردها العليمي نرى كيف كان بعض العلماء يتنافسون على المناصب فيما بينهم، ويتنازعون عليها، ويسعى بعضهم على بعض، فقال: «قاضي القضاة جمال الدين أبو العزم

(١) طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي، ٢٤٣/٨.

عبدالله ابن شيخ الإسلام شمس الدين أبي عبد الله محمد ابن قاضي القضاة شيخ الإسلام شمس الدين أبي عبد الله محمد الديرى العبسى الحنفى .

مولده في سنة خمس وثمانائة، وكان من ذوي المروءات، وله حشمة وشهامة، ولي قضاء القدس الشريف والرملة في سنة سبع وستين وثمانائة، ثم أضيف إليه قضاء بلد الخليل عليه السلام، وهو أول من ولي الخليل من الحنفية .

ووقع التشاجر بينه وبين قاضي القضاة ناصر الدين هبة الله محمد ابن قاضي القضاة تاج الدين الديرى، وشرع كل منهما يسعى على الآخر، والوظيفة بينهما دولاً .

ثم استقر الأمر آخرًا للقاضي جمال الدين، واستمر في المنصب إلى أن عزل في سنة خمس وسبعين وثمانائة .

ثم استقر بعده في الوظيفة قاضي القضاة خير الدين بن عمران في صفر سنة ست وسبعين، واستمر نحو سنتين .

ثم توجه القاضي جمال الدين إلى القاهرة في ذي الحجة سنة سبع وسبعين، وولي القضاء في سابع ربيع الأول سنة ثمان وسبعين، وهي ولايته الرابعة، وألبس الشريف بقلعة الجبل المنصورة من حضرة الملك الأشرف قايتباي، وعاد إلى القدس الشريف .

فلما وصل إلى الرملة حصل له توعك، فلم يستطع ركوب الفرس، فحمل في محفة إلى القدس، ونزل في قصر ابن عمه الشيخ تاج الدين الديرى

الفصل الثالث: أسباب اضطهاد العلماء

عِنْدَ خَانَ الظَّاهِرِ، وَأَصْبَحَ دَخَلَ إِلَى الْقُدْسِ الشَّرِيفِ فِي يَوْمِ الْخَمِيسِ ثَامِنِ شَهْرِ رَبِيعِ الْآخِرِ.

وَرَكِبَ النَّاسُ لِلِقَائِهِ مِنَ الْقُضَاةِ وَالْأَعْيَانِ وَنَازَرَ الْحَرَمَيْنِ الْأَمِيرَ نَاصِرَ الدِّينِ النَّشَاشِيْبِي، وَنَائِبَ السُّلْطَنَةِ الْأَمِيرَ جَمَقَ، وَرَكِبَ لَهُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ الْكِمَالِي بَنَ أَبِي شَرِيفٍ، لَكِنَّهُ لَمْ يَدْخُلْ مَعَهُ فِي الْمَوْكَبِ، وَإِنَّمَا سَلِمَ عَلَيْهِ بِالْقَصْرِ وَانْصَرَفَ.

وَزُيِّنَتْ لَهُ الْأَسْوَاقُ وَأُوقِدَتْ، وَكَانَ يَوْمًا مَشْهُودًا، وَأُلْبَسَ التَّشْرِيفَ مِنَ الْقَصْرِ، وَرَكِبَ وَهُوَ مَنْزَعَجٌ مِنَ التَّوَعُّكِ الْحَاصِلِ لَهُ، وَبَقِيَ فِي الْمَوْكَبِ وَهُوَ لَا يَسْتَطِيعُ التَّثَبُّتَ عَلَى الْفَرَسِ؛ لِشِدَّةِ الضَّعْفِ.

وَقَدْ شَاهَدَتْهُ فِي تِلْكَ الْهَيْئَةِ فَخَطَرَ لِي أَنْ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ لَانْتِجَةَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا دَخَلَ مَنْزِلَهُ اشْتَدَّ بِهِ الْأَلَمُ، وَلَمْ يُقَدَّرْ أَنَّهُ حَكَمَ حَكْمًا، وَلَا جَلَسَ فِي مَجْلِسِ الْحُكْمِ، وَاسْتَمَرَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ يَوْمًا.

وَتُوُفِّيَ فِي صَبِيحَةِ يَوْمِ الْأَرْبَعَاءِ حَادِي عَشْرِي رَبِيعِ الْآخِرِ سَنَةِ ثَمَانِ وَسَبْعِينَ وَثَمَانِيَّاتِهِ، وَقَدْ بَلَغَ مِنَ الْعُمُرِ نَحْوَ أَرْبَعِ وَسَبْعِينَ سَنَةً، وَدُفِنَ إِلَى جَانِبِ وَالِدِهِ بِهَامِلَا عِنْدَ الشَّيْخِ شَهَابِ الدِّينِ بْنِ أَرْسَلَانَ - عَفَا اللَّهُ عَنْهُ ^(١).

فَقَاضِيَ الْقَضَاةَ هُنَا لَمْ تَتِمَّ لَهُ وَوَلَايَتَهُ الرَّابِعَةَ الَّتِي سَعَى إِلَيْهَا، وَمَاتَ رَغْمَ وَجُودِ اسْتِعْدَادَاتِ ضَخْمَةٍ لِاسْتِقْبَالِهِ.

(١) تهذيب الأنس الجليل، ص ٥١١-٥١٢.

اضطهاد العلماء.. أسبابه وآثاره وواجب الأمة تجاههم

والخلاصة أن حب الدنيا وتمكنها من قلوب بعض العلماء دفعهم للتخلص من العلماء الأثبات وإزاحتهم - بكل وسيلة وسبيل - للوصول إلى المناصب، حتى وإن لم يكونوا أهلاً لها.

فكان حب الدنيا هو سبب البلاء والاضطهاد للعلماء الأثبات، لكنه ليس حباً من طرفهم بل من طرف خصومهم.

* * *

المبحث الثاني التأويل الفاسد والحيل المحرمة

لقد جاءت الكلمة لهداية البشر من الضلال الذي وقعوا فيه، فأمن البعض وكفر الأكثرون.

ثم وقع بين أهل الإيذان مصائب عظيمة، ومنها الاختلاف والتفرق بعد الهداية والوحدة.

أن تتفرق الأمم قبل الهداية أمر معقول وطبيعي؛ لتحكم الأهواء، واختلاف الآراء.

لكن أن يحدث الاختلاف والتفرق بعد مجيء كلمة الحق، فهذا أمر عجيب.

أمر عجيب لكنه واقع مرير حكاه القرآن عن الأمم السابقة فقال: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وقال: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [الشورى: ١٤].

وقد وقعت فيه هذه الأمة؛ فاختلقت في كتاب الله وتفرقت، وجعل البعض هواهم مقدماً على النص الثابت المحكم.

فالتأويل الفاسد والتحريف المتعمد للنصوص أفسداً إفساداً عظيماً في حياة هذه الأمة، فقامت الحروب والفتن بسبب هذا الفهم المعوج لهذه النصوص المستقيمة الواضحة.

فالخوارج هم أول من انحرفوا في هذه الأمة، جعلوا معتمدتهم كتاب الله، لكنه بفهم سقيم، مع غلو وشطط وبعيد عن الاعتدال والإنصاف.

قال ابن الجوزي: «قد يدعي أهل كل مذهب الاجتهاد في طلب الصواب، وأكثرهم لا يقصد إلا الحق، فترى الراهب يتعبد، ويتجوع، واليهودي يذل، ويؤدي الجزية، وصاحب كل مذهب يباليغ فيه، ويحتمل الضيم والأذى طلباً للهدى، وتحصيل الأجر في اعتقاده، ومع هذا، فيقطع العقل بضلال الأكثرين.

وهذا قد يشكل؛ وإنما كشفه أنه ينبغي أن يطلب الهدى بأسبابه، ويستعمل الاجتهاد بالإبانة، فأما من فاتته الأسباب، أو فقد بعض الآلات، فلا يقال له: مجتهد.

ومن هذا الجنس تعبد الخوارج، مع اقتناعهم بعلمهم القاصر، وهو قولهم: لا حُكْمَ إلا لله، ولم يفهموا أن التحكيم من حُكْمِ الله، فجعلوا قتال علي - رضي الله عنه - وقتله مبنياً على ظنهم الفاسد»^(١).

وبطبيعة الحال إذا كان الجدل والاختلاف والتحريف والتأويل الفاسد وقع في كلام الله، فأن يقع في كلام البشر فهذا أمر لا مفر منه ولا مهرب.

(١) صيد الخاطر، لابن الجوزي، ص ٣٨٠.

الفصل الثالث: أسباب اضطهاد العلماء

وإذا تحكمت الأهواء بالعقول ضلت، ولم تر الحق الأبلج أمامها، وراحت تذهب بكلام قائله كل مذهب إلا ما يريده قائله، وحملت الأقوال والنصوص ما لا تحمل.

ولم تكتف بالتأويل الفاسد لكلام قائله، بل تقيم له المحاكم، وتحكم عليه بالطرد والنفي، أو السجن... إلخ.

والتاريخ الإسلامي طافح بأمثال هذه الحوادث التي أكثر ما تنال تنال من الكبار، المسموعة كلمتهم، المشهورة آراؤهم.

وقد لفت انتباهنا ابن الجوزي لنقطة مهمة، وهي أن الذين يتبعون أقوال هؤلاء العلماء الكبار ويعسونهم ويتجسسون عليهم ويعدون عليهم أنفاسهم هم العلماء العاملون في مؤسسات الدولة فقال: «من تأمل حال العلماء الذين يعملون لهم^(١) في الولايات يراهم منسلخين من نفع العلم قد صاروا كالشرطة»^(٢).

وقد ابتلي بهذا الأمر البخاري في مسألة خلق أفعال العباد، والعز بن عبد السلام في أمرٍ سنعرضه لاحقاً، وابن تيمية في قضية الطلاق ثلاثاً ومسائل الاعتقاد، وغيرهم كثير في القديم والحديث.

ولو بقيت اختلافات العلماء حبيسة مجالس العلم لكان أمراً عظيماً، ومفيداً للمسلمين، ولو رفع الأمر للحاكم فمعلوم أنه يرفع الخلاف ويختار

(١) أي: للدولة.

(٢) صيد الخاطر، لابن الجوزي، ص ٩٥.

من الأقوال ما يرى فيه المصلحة، ولا يلزم أن يكون الاختيار من الحاكم مباشرة، بل يمكن أن يختار لجنة ترفع له تقريراً برأيها وبأمثل الآراء من وجهة نظرها.

لكن لا يكون الرفع للحاكم بقصد الإضرار بصاحب الفتوى أو القول، والانتقام منه، وإبعاده عن الساحة العلمية، وتغييبه خلف الأسوار.

فابن تيمية اختار قولاً في مسألة الطلاق ثلاثاً في مجلس واحد، وأنه يقع طلاقاً واحداً^(١).

وهو قد خالف ما كان مستقراً في عصره والعصور السابقة عليه، حتى إن ابن حجر قال ردّاً عليه: «فَالرَّاجِحُ فِي الْمَوْضِعَيْنِ تَحْرِيمُ الْمُتَعَةِ وَإِيقَاعُ الثَّلَاثِ لِلْإِجْمَاعِ الَّذِي اِنْعَقَدَ فِي عَهْدِ عُمَرَ عَلَى ذَلِكَ، وَلَا يُحْفَظُ أَنَّ أَحَدًا فِي عَهْدِ عُمَرَ خَالَفَهُ فِي وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا، وَقَدْ دَلَّ إِجْمَاعُهُمْ عَلَى وُجُودِ نَاسِخٍ وَإِنْ كَانَ خَفِيَ عَنْ بَعْضِهِمْ قَبْلَ ذَلِكَ حَتَّى ظَهَرَ لِجَمِيعِهِمْ فِي عَهْدِ عُمَرَ، فَالْمُخَالَفُ بَعْدَ هَذَا الْإِجْمَاعِ مَنَابِذٌ لَهُ وَالْجُمْهُورُ عَلَى عَدَمِ إِعْتِبَارِ مَنْ أَحْدَثَ الْإِخْتِلَافَ بَعْدَ الْإِتِّفَاقِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ»^(٢).

فالفقهاء لم يرتضوا منه رأيه، ولم يكتفوا بالمناظرة والمجادلة، ولكنهم عادوه، وأغروا السلطان بحبسه، قال ابن حجر: «ثُمَّ قَامُوا عَلَيْهِ فِي شَهْرٍ

(١) انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ٦٧/٣٣.

(٢) فتح الباري، لابن حجر، ٣٦٥/٩.

الفصل الثالث: أسباب اضطهاد العلماء

رَمَضَانَ سنة ٧١٩ بِسَبَبِ مَسْأَلَةِ الطَّلَاقِ، وَأَكَّدَ عَلَيْهِ الْمُنْعَ مِنَ الْفِتْيَا، ثُمَّ عَقَدَ لَهُ مَجْلِسَ آخِرٍ فِي رَجَبِ سنة عشرين ثُمَّ حَبَسَ بِالْقَلْعَةِ، ثُمَّ أَخْرَجَ فِي عَاشُورَاءِ سنة ٧٢١»^(١).

وتكرر الأمر مع ابن تيمية كثيرًا؛ حيث التأويل الفاسد لآرائه الاعتقادية، وإقامة المجالس له، وإغراء السلطان به، حتى إنه مات حبسًا^(٢).

وإني أذهب كما ذهب ابن تيمية إلى أن مسائل الاعتقاد (الأصول) فيها اجتهاد كما أن هناك اجتهادًا في مسائل الفقه (الفروع)، فقد قال: «وليس كل من خالف في شيء من هذا الاعتقاد يجب أن يكون هالكًا؛ فإن المنازع قد يكون مجتهدًا مخطئًا يغفر الله خطأه، وقد لا يكون بلغه في ذلك من العلم ما تقوم به عليه الحجة، وقد يكون له من الحسنات ما يمحو الله به سيئاته»^(٣).

ولم يقف الأمر عند التأويل الفاسد لأقوال العلماء أو تحريفها، بل بلغ الأمر إلى الكذب عليهم وادعاء أقوال لم يقولوها، ونسبتها إليهم زورًا وبهتانًا، يقول ابن تيمية: «وَكَانَ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّهُ زُورَ عَلَيَّ كِتَابٌ إِلَى الْأَمِيرِ رُكْنِ الدِّينِ الْجَاشَنكِرِ أُسْتَاذِ دَارِ السُّلْطَانِ يَتَضَمَّنُ ذِكْرَ عَقِيدَةٍ مُحَرَّفَةٍ وَلَمْ أَعْلَمْ بِحَقِيقَتِهِ، لَكِنْ عَلِمْتُ أَنَّهُ مَكْذُوبٌ»^(٤).

(١) الدرر الكامنة، لابن حجر، ١/ ١٧٤.

(٢) انظر: السابق، ١/ ١٦٩-١٧٤.

(٣) مجموع الفتاوى، ٣/ ١٧٩.

(٤) السابق، ٣/ ١٦١.

وقد اتخذ البعض طريق التحايل للإيقاع بالعلماء في شرك نصبوه لهم، ثم معاقبتهم على رأيهم وفتواهم، فيدسون عليهم من يستفتيهم في أمر ما، ثم تكون الإجابة ذريعة للإضرار بالمفتي.

وقد وقع هذا مع الإمام مالك، وابتلي بلاء عظيمًا، «قال الطبري: اختلف فيمن ضرب مالكا وفي السبب في ضربه وفي خلافة من ضرب.

ف قيل: إن أبا جعفر نهاه عن الحديث (ليس على مستكره طلاق)، ثم دس إليه من يسأله عنه فحدثه به على رءوس الناس فضربه بالسوط.

وقاله مصعب، إلا أنه قال: إن الذي نهاه جعفر بن سليمان.

وقال الواقدي: لما سُودَّ مالك وُسِّمَ منه وقُبِلَ قوله حسده الناس وبغوا عليه، فلما ولي جعفر بن سليمان على المدينة سعوا به إليه وأكثروا عليه عنده، وقالوا: لا يرى أيان بيعتكم هذه شيئًا.

ويأخذ بحديث ثابت الأحنف في طلاق المكره أنه لا يجوز.

فغضب جعفر ودعا به فاحتج عليه بما رفع إليه.

ثم جره ومده فضربه بالسياط ومدت يده حتى انخلعت كتفه»^(١).



(١) ترتيب المدارك، للقاضي عياض، ٢/ ١٣٠.

المبحث الثالث الجهل

علم الإنسان هو علم جزئي محدود، وليس علمًا كليًا مطلقًا، ولا يمكن لأي إنسان أن يدعي علمه بكل شيء، ولو تجرأ أحد وزعم ذلك لعلم الناس أنه مصاب في عقله الذي هو أداة العلم.

فمهما علم الإنسان أمورًا فسيظل جاهلاً لأمر أكثر مما يعلمها.

وهذا العلم الذي يتفاخر به البشر اليوم من صعود للفضاء، وسبر لأغوار البحار والمحيطات، وتوفير العلاج لأمراض كانت فتاكة قديمًا، وتيسير سبل التواصل والمواصلات بين البشر حتى غدت الأرض كقرية صغيرة، هذا كله وغيره مندرج في (القليل) الذي أخبر عنه السميع العليم بقوله: ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥].

ولقد جاء عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ التي كان يركبها سيدنا الخضر مع سيدنا موسى -عليه السلام-، «فَنَقَرَ نَقْرَةً أَوْ نَقَرَتَيْنِ فِي الْبَحْرِ. فَقَالَ الْخَضِرُ: يَا مُوسَى، مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا كَنَقْرَةِ هَذَا الْعُصْفُورِ فِي الْبَحْرِ»^(١).

هذا هو علم البشرية قطرة من بحر علم الله.

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري في «العلم»، باب: «مَا يُسْتَحَبُّ لِلْعَالِمِ إِذَا سُئِلَ: أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَيَكِلُ الْعِلْمَ إِلَى اللَّهِ»، (٦/٨٨)، ح (١٢٢) من حديث أبي بن كعب -رضي الله عنه-.

وكم كان العلم منزلة لأقدام الكثيرين؛ فكم من عالم لم يغنه علمه شيئاً
والحد بالله تعالى، وآمن بالطبيعة أكثر من إيمانه بخالقها وباريها.

ومعنى ذلك أن القاسم المشترك بين البشر هو الجهل؛ جهل أنفسهم
والكون المحيط بهم... إلخ.

والجهل -فيما أرى- نوعان:

● **جهل كلي:** ومظنة وجوده في العامة، وإن كان العوام لا يخلو عقلمهم
الجمعي من علوم عرفوها أو استنبطوها أو توارثوها.

● **جهل جزئي:** ومظنة وجوده في العلماء؛ إذ إن العلماء لا يحيطون بكل
شيء علمياً، بل إنهم يجهلون غير فنونهم، وليس بالضرورة أن يحيط بكل شيء
في فنه، بل يمكن أن يتخصص في باب أو أكثر من فن واحد من فنون العلم.

وقد «سئل أبو يوسف القاضي عن مسألة فقال: لا أدري.
فقالوا له: ترتزق من بيت المال كل يوم كذا [و] كذا ثم تقول: لا أدري.
فقال: إنما أرتزق بقدر علمي، ولو أعطيت بقدر جهلي لم يسعني
مال الدنيا.

وحكي أن عالماً سئل عن مسألة وهو فوق المنبر فقال: لا أدري.
فقيل له: ليس المنبر موضع الجهال.
فقال: إنما علوت بقدر علمي، ولو علوت بقدر جهلي لبلغت السماء»^(١).

(١) روح البيان، لحقي، ١/١٠٢.

الفصل الثالث: أسباب اضطهاد العلماء

وقد ذهب المنفلوطي مذهباً مدح فيه العامة على العلماء لأموار رآها فيهم فقال: «ولا أخشى بأساً إن قلت: إنَّ علم العامة أفضل من علم الخاصة؛ لأنه علمٌ خالصٌ من شائبة التكلف والتعمُّل، حتى إنك لتجد في بعض الأحياء بين معلومات الخاصة ومذاهبهم وآرائهم ما يضحك الثكلى لغرابته وشذوذه، وما يترفع أضييق العامة ذهنًا وأضعفهم فهمًا أن يجعل له شأنًا، أو يقيم له وزنًا، ولأنه يعلق بالنفس ويتغلغل بين طياتها تغلغلاً تظهر آثاره على الجوارح.

وكثيراً ما تجد بين الجهلاء من تُعجبك استقامته، وبين العلماء من يدهشك اعوجاجه، وإن كان صحيحاً ما يقولون من أنَّ العلم ما ينتفع به صاحبه، فكثيرٌ من الجهلاء أعلم من كثير من العلماء.

فلا تبالغ في تقدير فلسفة الفلاسفة وعلم العلماء، ولا تنظر إليهم نظراً يملأ قلبك رهبة وهيبة، ولا تغلُّ في احتقار الجهلاء وازدراء العامة والضعفاء، ولا تكن ممن يقضون حياتهم أسرى العناوين وعبيد الألقاب»^(١).

وتفشي الجهل وظهوره علامة من علامات الساعة، قال -صلى الله عليه وآله وسلم-: «إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ: أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ، وَيَثْبُتَ الْجُهْلُ، وَيُشْرَبَ الْحَمْرُ، وَيَظْهَرَ الزُّنَا»^(٢).

(١) النظرات، للمنفلوطي، ٢٢٢/١.

(٢) أخرجه البخاري في «العلم»، باب: «رَفَعِ الْعِلْمِ وَظُهُورِ الْجُهْلِ...»، (٢٧/١)، ح (٨٠)، ومسلم في «العلم»، باب: «رَفَعِ الْعِلْمِ وَقَبْضِهِ وَظُهُورِ الْجُهْلِ وَالْفِتْنِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ»، (٢٠٥٦/٤)، ح (٢٦٧١) من حديث أنس -رضي الله عنه-.

والجاهل يرفع جهله بطلب العلم، لكن الجهل قد يكون سلاحًا ضد العلم، وسيفًا مصلتًا على العالم.

وقد يُدفع العامة دفعًا للقبول باضطهاد بعض العلماء، ويُستغل جهلهم وعاطفتهم وثنائهم لتبرير الفتك ببعض التيارات بما فيها من علماء أجلاء.

فقد دُفع بعض المصريين للخروج للشوارع أيام جمال عبد الناصر منادية بشعارات: «افرم افرم يا جمال لا رجعية ولا إخوان»، أو «دَبَّح دَبَّح يا جمال لا رجعية ولا إخوان».

ومثله ما حدث بعد انقلاب ٢٠١٣م؛ حيث نزل بعض المصريين لتفويض السيسي لقتل وإسالة دماء المصريين المخالفين له.

جهلوا عواقب الأمور، واستشارهم الإعلام، واتخذهم النظام العسكري الفاشي مطية لبلوغ مآربه.

والعوام منقادة، وتعلم أنها كذلك، ولم تدع العلم يومًا، لكن المصيبة فيمن يجهل أن فيه بعض الجهل، أو يغلب عليه الجهل، فهو لاء يعظم البلاء

٠٣٢

قال الخليل بن أحمد: «النَّاسُ أَرْبَعَةٌ رَجُلَةٌ: فَرَجُلٌ عَالِمٌ يَعْلَمُ أَنَّهُ عَالِمٌ فَتَعَلَّمُوا مِنْهُ، وَرَجُلٌ عَالِمٌ نَاسٍ فَذَكَرُوهُ، وَرَجُلٌ جَاهِلٌ يَعْلَمُ أَنَّهُ جَاهِلٌ فَعَلَّمُوهُ، وَرَجُلٌ جَاهِلٌ يَرَى أَنَّهُ عَالِمٌ فَاهْرَبُوا مِنْهُ»^(١).

(١) الطيوريات، لأبي طاهر السلفي، ٣/١٢٥٣.

الفصل الثالث: أسباب اضطهاد العلماء

وأن يتصدر بعض قليلي البضاعة في العلم أمر شائع من قديم، يقول ابن حجر: «وَاتَّفَقَ أَنْ قَاضِيَ الْحَنَابِلَةَ شَرَفَ الدِّينِ الْحَرَّانِي كَانَ قَلِيلَ البضاعة فِي الْعِلْمِ»^(١).

وحينما لا يعترف العالم أنه يجهل بعض المسائل، ثم يمتحن غيره من العلماء ويحرض عليهم السلطان، فتلك طامة من الطوام الكبرى.

يحكي ابن تيمية أنه في مناظرة من المناظرات التي كان يُمتحن فيها ظهر جهل أحد كبار الممتحنين له شديدي الخصومة معه، فقال: «فلما انتهيت إلى ذكر المعتزلة سألت الأمير عن معنى المعتزلة.

فقلت: كان الناس في قديم الزمان قد اختلفوا في الفاسق الملي، وهو أول اختلاف حدث في الملة، هل هو كافر أو مؤمن، فقالت الخوارج: إنه كافر، وقالت الجماعة: إنه مؤمن، وقالت طائفة: نقول: هو فاسق لا مؤمن ولا كافر ننزله منزلة بين المنزلتين وخلدوه في النار، واعتزلوا حلقة الحسن البصرى وأصحابه رحمه الله تعالى فسموا معتزلة.

وقال الشيخ الكبير بجبته وردائه: ليس كما قلت، ولكن أول مسألة اختلف فيها المسلمون مسألة الكلام، وسمي المتكلمون متكلمين لأجل تكلمهم في ذلك، وكان أول من قالها عمرو بن عبيد، ثم خلفه بعد موته عطاء بن واصل، هكذا قال وذكر نحوًا من هذا.

(١) الدرر الكامنة، ١/١٧٢.

اضطهاد العلماء.. أسبابه وآثاره وواجب الأمة تجاههم

فغضبت عليه وقلت: أخطأت، وهذا كذب مخالف للإجماع، وقلت له: لا أدب ولا فضيلة، لا تأدبت معي في الخطاب، ولا أصبت في الجواب.

ثم قلت: الناس اختلفوا في مسألة الكلام في خلافة المأمون وبعدها في أواخر المائة الثانية، وأما المعتزلة فقد كانوا قبل ذلك بكثير في زمن عمرو بن عبيد بعد موت الحسن البصرى في أوائل المائة الثانية، ولم يكن أولئك قد تكلموا في مسألة الكلام ولا تنازعوا فيها، وإنما أول بدعتهم تكلمهم في مسائل الأسماء والأحكام والوعيد»^(١).

وهذه المناظرات وأمثالها لم تكن لإظهار وجه الحق في بعض المسائل، ولكن لتصفية حسابات، وللانتقام من بعض الأشخاص الذين حازوا مكانة عالية في قلوب العامة والخاصة.

وليت من يقومون بهذا يحسنون المناظرة على وجهها، ولكن بعضهم نال درجته لا بعلمه، ولكن بقربه من ذوي السلطان، أو بتزلفه لهم، أو بهال دفعه... إلخ.

* * *

(١) مجموع الفتاوى، ٣/١٨٢-١٨٣.

المبحث الرابع الغيرة والحسد

من الأدواء القديمة في الخليقة (الجن والأنس) هذان الداءان (الغيرة والحسد)، وقد وقعا في السماء والأرض.

وقعا في السماء حينما حسد إبليس آدم على منزلته التي حباه الله بها، فتأبى على أمر الله بالسجود لآدم، بل ناصبه وذريته العداة إلى يوم القيامة.

ووقعا في الأرض حينما حسد قاييل أخاه هايبيل، فدفعه هذا الحسد إلى ارتكاب جريمة شنعاء تمثلت في قتل الأخ أخاه، وإزهاقه روحه دون جرم أو جريرة اقترفها.

فإبليس وقاييل رأيا أن خيرا فاتهما وأصاب غيرهما، فأكل الحسد والغيرة قلوبهما، ولم يرضيا لغيرهما أن ينال هذا الخير. فالحسد داء عام في الثقلين.

ومن قصة إبليس وقاييل رأينا أن الكفر والقتل أثران جليان لمرض قلبي باطني لم يظل دفيناً في نفس صاحبه، بل دفعه إلى الإجرام في حق النفس والآخرين.

فهما داءان فتاكان لم يدخلا في قلب أحد وتمكنا منه إلا كان ساعياً في الفساد والإفساد.

لا يرضى صاحب هذا القلب لأحد أن يعيش في خير أو يرى خيراً، لا يرضى لك بمكانة ولو كنت فقيراً، لا يرضى لك بهال ولو كنت أقل منه دخلاً، بل لا يرضى لك أن تكون على الصراط المستقيم، قال تعالى فاضحاً نفسية كثير من المخالفين للمسلمين: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وإبليس كان من أهل العلم، ووقع الحسد في قلبه فأورده ما أورده.

وأهل الكتاب كان فيهم النبوة والعلم، لكنهم اختاروا الإيمان بالجبوت والطاغوت على الإيمان الخالص لله، واختاروا معاداة المؤمنين؛ لأنهم فاتهم هذا الخير.

وقد ذكر الله تعالى ذلك في القرآن فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّلُغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ ءَاتَيْنَا ءَالَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُمْ مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ [النساء: ٥١-٥٤].

وهذا الحسد على النبوة والعلم لم يكن في أهل الكتاب وحدهم، بل وقع فيه مشركو قريش؛ فقد ذهب الأحنس بن شريق إلى بيت أبي جهل بعد سماعه للقرآن قائلاً له: «يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟

الفصل الثالث: أسباب اضطهاد العلماء

فَقَالَ: مَاذَا سَمِعْتُمْ؟! تَنَازَعْنَا نَحْنُ وَبَنُو عَبْدِ مَنَافٍ الشَّرَفَ: أَطْعَمُوا فَأَطْعَمْنَا، وَحَمَلُوا فَحَمَلْنَا، وَأَعْطَوْا فَأَعْطَيْنَا، حَتَّى إِذَا تَجَادَيْنَا عَلَى الرَّكْبِ وَكُنَّا كَفَرَسِيِّ رِهَانٍ قَالُوا: مِنَّا نَبِيٌّ يَأْتِيهِ الْوَحْيُ مِنَ السَّمَاءِ فَمَتَى نُدْرِكُ مِثْلَ هَذِهِ؟ وَاللَّهِ لَا نُؤْمِنُ بِهِ أَبَدًا وَلَا نُصَدِّقُهُ.

قَالَ: فَقَامَ عَنْهُ الْأَخْنَسُ وَتَرَكَهُ^(١).

فقد اختار الكفر وأعرض عن الإيمان حسدًا أن ينزل الوحي على النبي محمد -صلى الله عليه وآله وسلم-، وأرى أن هناك مسألة شخصية عند أبي جهل؛ إذ إنه كان من عمر النبي تقريبًا، فیدخل هذا -أيضًا- في حسد الأقران، وليس فقط تصارع البطون والعشائر والعائلات.

والحسد موجود في هذه الأمة كما هو عند غيرها من الأمم والشعوب وأهل الملل والنحل، قال -صلى الله عليه وآله وسلم-: «دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَّمِ قَبْلَكُمْ: الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ، هِيَ الْحَالِقَةُ، لَا أَقُولُ: تَخْلُقُ الشَّعْرَ، وَلَكِنْ تَخْلُقُ الدِّينَ...»^(٢).

وصاحب العلم محسود محبوب، يقع عليه الأمران؛ فيحط من شأنه شائئ حاسد، ويرفع درجته محب مغتبط.

(١) سيرة ابن هشام، ٣١٦/١.

(٢) جزء من حديث أخرجه الترمذي في «صفة القيامة والرفائق والورع عن رسول الله ﷺ»، (٤/٦٦٤)، ح (٢٥١٠)، من حديث الزبير بن العوام -رضي الله عنه-، وقد حسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي»، (٢/٦٠٧).

«قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ مَكْتُوبٌ فِي التَّوْرَةِ: إِنَّ أَحْسَدَ النَّاسِ لِلْعَالِمِ وَأَبْغَاهُمْ عَلَيْهِ قَرَابَتُهُ وَجِرَانُهُ.

[و] كَانَ يُقَالُ: الْحُسْدُ فِي الْجِيرَانِ وَالْعَدَاوَةُ فِي الْأَقَارِبِ»^(١).

وقد لا أختلف في أن العالم ينظر إليه من نشأ بينهم نظرة ازدراء، ولا ينزلونه منزلته اللاتقة به، لكنني لا أظن أنهم يسعون في الإضرار به.

وإنما يفعل ذلك قرناؤه الذين يغيظهم ما وصل إليه البعض.

ومن العلماء الكبار الذين نالهم حسد الحاسدين الإمام الأعظم أبا حنيفة النعمان؛ وكان يؤلمه ذلك أشد الإيلاء، ويأخذ حيزاً من فكره ووقته؛ يقول وكيع: «دخلت على أبي حنيفة فرأيتَه مطرَقاً مفكراً، فقال لي: من أين أقبلت؟ قلت: من عند شريك.

فرفع رأسه وأنشأ يقول:

إن يحسدوني فإنني غير لائمهم
فدام لي ولهم ما بي وما بهم
قبلي من الناس أهل الفضل قد حَسِدُوا
ومات أكثرنا غيظاً بما يجد»^(٢)

والجاهل بأقدار الناس لا ملامة عليه، لكن الحاسد لهم الطاعن فيهم الذام لهم فهو المذموم؛ لذا قال عبد الله بن داود: «الناس في أبي حنيفة: حاسد وجاهل، وأحسنهم عندي حالاً الجاهل»^(٣).

(١) الآداب الشرعية، (٢/ ١٥) باختصار.

(٢) تاريخ بغداد، للبغدادي، ١٣/ ٣٦٧.

(٣) السابق، نفس الصفحة.

الفصل الثالث: أسباب اضطهاد العلماء

وفعلهم هذا لم يزد أبا حنيفة إلا علوًا وسموًا؛ لذا قال العلامة ابن عابدين: «الإمام»^(١) -رضي الله عنه- لما شاعت فضائله، وعمت الخافقين فواضله، جرت عليه العادة القديمة، من إطلاق السنة الحاسدين فيه، حتى طعنوا في اجتهاده وعقيدته بما هو مبررٌ منه قطعًا»^(٢).

ورغم الهجوم عليه فقد شاع مذهبه في العالمين، وتبعه الملايين حول العالم، يقول علاء الدين البخاري متحدثًا عن بعض التهم المختلفة عليه، وكيف كان فضل الله عليه: «... مِثْلُ طَعْنِ مَنْ طَعَنَ فِي أَبِي حَنِيفَةَ -رَحِمَهُ اللهُ- مِنَ الْحُسَّادِ الْمُتَعَتِّينَ أَنَّهُ دَسَّ ابْنَهُ -أَيُّ: أَخْفَاهُ- لِيَأْخُذَ كُتُبَ أُسْتَاذِهِ حَمَّادٍ عِنْدَ وَفَاتِهِ فَكَانَ يَرَوِي مِنْهَا.

وَهَذَا لَيْسَ بِصَحِيحٍ؛ لِأَنَّهُ -رَحِمَهُ اللهُ- كَانَ أَعْلَى حَالًا وَأَجَلْ مَنْصِبًا مِنْ أَنْ يُنْسَبَ إِلَيْهِ ذَلِكَ، وَيَأْبَى كُلُّ الْإِبَاءِ دِقَّةَ نَظَرِهِ فِي دَقَائِقِ الْوَرَعِ وَالتَّقْوَى، وَعُلُوُّ دَرَجَتِهِ فِي الْعِلْمِ وَالفَتْوَى.

وَقَدْ طَعَنَ الْحُسَّادُ فِي حَقِّهِ هَذَا الْجِنْسِ كَثِيرًا حَتَّى صَنَّفُوا فِي طَعْنِهِ كُتُبًا وَرَسَائِلَ، وَلَكِنْ لَمْ يَزِدْهُ طَعْنُهُمْ إِلَّا شَرَفًا وَعُلُوًّا، وَرِفْعَةً بَيْنَ الْأَنْامِ وَسُمُوًّا، فَشَاعَ مَذْهَبُهُ فِي الدُّنْيَا وَاشْتَهَرَ، وَبَلَغَ أَقْطَارَ الْأَرْضِ نُورُ عِلْمِهِ وَانْتَشَرَ، وَقَدْ عَرَفَ مَنْ لَهُ أَدْنَى بَصِيرَةٍ وَإِنْصَافٍ، وَجَانِبَ التَّعَصُّبِ وَالِاعْتِسَافِ أَنَّ كُلَّ مَا قَالُوهُ افْتِرَاءً، وَمِثْلُهُ عَنْهُ بَرَاءً»^(٣).

(١) يقصد الإمام أبا حنيفة.

(٢) حاشية رد المحتار، لابن عابدين، ٥٧/١.

(٣) كشف الأسرار، لعلاء الدين البخاري، ٦٩/٣.

وقد وضع تاج الدين السبكي قاعدة في الجرح والتعديل؛ حتى يضبط الأمور، ولا تكون منفلته، فقال: «قاعدة في الجرح والتعديل ضرورية نافعة لا تراها في شيء من كتب الأصول، فإنك إذا سمعت أن الجرح مقدم على التعديل ورأيت الجرح والتعديل وكنت غرًا بالأمور أو قدمًا مقتصرًا على منقول الأصول حسبت أن العمل على جرحه، فيأيك ثم إياك، والحذر كل الحذر من هذا الحساب.

بل الصواب عندنا أن من ثبتت إمامته وعدالته وكثر مادحوه ومزكوه وندر جارحه وكانت هناك قرينة دالة على سبب جرحه من تعصب مذهبي أو غيره فإننا لا نلتفت إلى الجرح فيه، ونعمل فيه بالعدالة، وإلا فلو فتحنا هذا الباب أو أخذنا تقديم الجرح على إطلاقه لما سلم لنا أحد من الأئمة؛ إذ ما من إمام إلا وقد طعن فيه طاعنون، وهلك فيه هالكون»^(١).

والتاريخ يشهد أن الحساد للعلماء قد ارتدت سهامهم إلى نحورهم، ولم يكن سعيهم مشكورًا، ولا قولهم مقبولًا.

وإن كان حسد البعض دفعه للطعن في الكبار، وبعضهم دفعه للتخلص منهم بالنفي أو السجن، لكن التاريخ شاهد على أنهم سقطوا من أعين الخلق، ومن قبله سقطوا من عين الرب - سبحانه -.

* * *

(١) طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي، ٩/٢.

المبحث الخامس مخالفة ذوي السلطان

يمتلك ذوو السلطان القوة التي تجعل الجميع يخضع لهم رغباً أو رهباً، فهناك من يحسن استخدام هذه القوة، فلا يوجهها إلا لأعداء شعبه الذين يريدون أن يستيحووا بيضة هذا الشعب من الخارج، أو لأعداء داخلين يريدون كسر وحدة الأمة، ونشر الفوضى والخراب في البلاد.

وهناك من تغره هذه القوة فيبطش بالناس، وينكل بمعارضيه، ولا يطبق أن يسمع كلمة اعتراض، أو نصح، فلا يريد إلا المدح بالحق وبالباطل، ولا يريد مدحاً دون المستوى، بل يريد مدحاً مبالغاً فيه، حتى ترضى نفسه المريضة، والتي ترى في قرارة نفسها حقارتها، وتعلم علم اليقين كره الناس لها، لكنه يرغب في إذلالهم ورؤية ذلك في عيونهم وأقوالهم وأفعالهم.

وكلما زاد البطش والتكيل الداخلي زاد النفاق والتملق، وارتفع السفلة، وانقمع أهل الشرف والمكارم.

«زلزلت مصر حتى رجفت أرجاؤها، وضجت الأمة لا تعرف كيف جارها، فقال محمد بن قاسم بن عاصم شاعر الحاكم:

بالحاكم العدل أضحي الدين معتلياً نجل الهدى وسليل السادة الصلحا
ما زلزلت مصر من كيد يراد بها وإنما رقصت من عدله فرحا»^(١)

(١) حسن المحاضرة، للسيوطي، ٢/ ٢٨٤.

وعندما يزداد البطش الداخلي تكون الأمة قاب قوسين أو أدنى من الهزيمة الخارجية؛ فالعدو يتربص ويتابع، ولن تكون الفرصة مواتية أكثر من ذلك؛ حيث الأمة مهلهلة النسيج الاجتماعي، ومشغولة بمشكلاتها الداخلية.

والهزيمة الخارجية تتجلى في أمرين:

١- احتلال الأرض، وذلك مثلما حدث في سنة ١٩٦٧م حيث فعل عبد الناصر في الشعب بكل أطيافه الأفاعيل من بعد تحويل مصر إلى جمهورية، وبلغ الضعف ذروته وظهر للعيان عندما احتل الكيان الصهيوني سيناء والجولان والضفة الغربية، ولم يقدر جيش ناصر ولا نظامه على فعل شيء تجاه هذا العدوان.

٢- الاستعباد للخارج، حيث المذلة والانكسار والصغار، والعدو يأخذ ما يريد من الحاكم دون أن تتحرك جيوشه، أو يستنزف قطرة دم واحدة من دمائه جنوده.

وقد لا يحدث هذان الأمران في بعض الأحيان، وتبدو الدولة قوية خارجياً ومسيطرة داخلياً، لكن هذا لا يدوم كثيراً، ويكون عمر تلك الدولة قصيراً جداً.

فهذه الدولة الأموية اتخذت القمع والبطش سبيلاً فلم تدم طويلاً، فقد خطب عبد الملك بن مروان بالمدينة، بعد قتل ابن الزبير سنة خمس وسبعين فقال: «أما بعد: فلست بالخليفة المستضعف، ولا الخليفة المداهن، ولا الخليفة

الفصل الثالث: أسباب اضطهاد العلماء

المأفون، ألا وإن من كان قبلي من الخلفاء كانوا يأكلون ويطعمون من هذه الأموال، ألا وإنني لا أداوي أدواء هذه الأمة إلا بالسيف؛ حتى تستقيم لي، فكأنكم تكلفوننا أعمال المهاجرين الأولين، ولا تعملون مثل أعمالهم، فلن يزدادوا إلا اجترأ، ولا تزدادوا إلا عقوبة، حتى حكم السيف بيننا وبينكم... والله لا يأمرني أحد بتقوى الله إلا ضربت عنقه»^(١).

والذين يقفون أمام تلك النوعية من الحكام يدفعون الثمن غالبًا من أعمارهم وأبدانهم وأموالهم.

ودفع الثمن من العمر يكون بالحبس أو القتل.

ومن البدن بالجلد.

ومن المال بالمصادرة.

ولا يقدر على ذلك ويعلم عاقبته إلا كبار النفوس، ذوو الهمم العالية، الذين يقولون كلمة الحق ويواجهون بها الدنيا بأسرها، ولا يثنيهم ترغيب أو ترهيب.

وهذا الجو من الإرهاب من جانب السلطة تكثر تصفية الحسابات؛ فنجد ضعاف النفوس من العلماء يسعون للتخلص من العلماء الأثبات.

فإني أعرف أن وزير الأوقاف المصري الحالي (م م ج) قد سعى في فصل أحد أقاربه العاملين بإحدى الجامعات السعودية، وهو أستاذ كبير في التفسير

(١) الأوائل، للعسكري، ص (٢٥٠) باختصار.

اضطهاد العلماء .. أسبابه وآثاره وواجب الأمة تجاههم

وله اهتمام بسنن الله في الأنفس والآفاق؛ لأنه ينتمي للإخوان، وقد كان،
الفصل والمغادرة للمملكة في أيام قلائل.

ويكون أعظم الاضطهاد بمخالفة ذوي السلطان المتجبرين، ولا يقع
أي نوع من أنواع الاضطهاد إلا بعد موافقة ذوي السلطان في الغالب؛ لأنهم
الذين بأيديهم الأمر والنهي والإعمال والإبطال.

والحاسد وضعيف النفس وصاحب التأويل الفاسد لأقوال العلماء
لا يصلون لمآربهم إلا بعد استمالة السلطان وتحريشه ضد خصومهم، فإن
وافق وقع الاضطهاد، وكانت المعاقبة، وإن رفض كانت السلامة والحماية.

وأصحاب السلطان يعتمدون على فلسفة: (سيف المعز وذهبه)،
أو فلسفة: (العصا والجزرة)، فمن رضي وتابع وسكت وشجع فله الذهب
أو الجزرة، أو بحسبه أن لم يصله السيف أو العصا، ومن اعترض واستنكر
فله السيف أو العصا.

والإنسان لا يحتاج أن يفتش في بطون الكتب للعثور على ما يفعله بعض
السلاطين والحكام بالعلماء المخالفين لهم؛ فالواقع الذي نعيشه ممتلئ بالأمثلة،
وأقربها لنا ما فعله عبد الناصر بالمفكر الكبير الأستاذ سيد قطب؛ حيث تم
الافتراء عليه بالتهمة ثم معاقبته بالإعدام شنقاً.

وفي أيامنا هذه رأينا العلماء وهم يملؤون السجون بعد الانقلاب الغاشم
في ٢٠١٣م على يد السفاح عبد الفتاح السيسي، وكذا ما رأيناه في المملكة العربية
السعودية من تنكيل وسجن للعلماء أمثال العودة والعمرى وبادحدح... إلخ.

الفصل الثالث: أسباب اضطهاد العلماء

ولو أحببنا الاستئناس ببعض الأحداث التاريخية، فنورد هذه القصة التي وقعت لسلطان العلماء العز بن عبد السلام، فقد حكي أن الملك الصالح إسماعيل ولى سلطان العلماء العز بن عبد السلام خطابة دمشق، ثم حدثت بوادر حرب بين الملك الصالح نجم الدين أيوب والملك الصالح، فاصططح «مع الفرنج على أن ينجدوه على الملك الصالح نجم الدين أيوب ويسلم إليهم صيدا والشقيف وغير ذلك من حصون المسلمين، ودخل الفرنج دمشق لشراء السلاح ليقاتلوا به عباد الله المؤمنين، فشق ذلك على الشيخ مشقة عظيمة في مبايعة الفرنج السلاح، وعلى المتدينين من المتعishين من السلاح، فاستفتوا الشيخ في مبايعة الفرنج السلاح فقال: يحرم عليكم مبايعتهم؛ لأنكم تتحققون أنهم يشترونه ليقاتلوا به إخوانكم المسلمين.

وجدد دعاءه على المنبر، وكان يدعو به إذا فرغ من الخطبتين قبل نزوله من المنبر وهو: اللهم أبرم لهذه الأمة أمرا رشداً تعز فيه وليك وتذل فيه عدوك، ويعمل فيه بطاعتك، وينهى فيه عن معصيتك.

والناس يتهلون بالتأمين والدعاء للمسلمين والنصر على أعداء الله الملحدين.

فكاتب أعوان الشيطان السلطان بذلك، وحرّفوا القول وزخرفوه، فجاء كتابه باعتقال الشيخ، فبقي مدة معتقلاً.

ثم وصل الصالح إسماعيل وأخرج الشيخ بعد محاورات ومراجعات فأقام مدة بدمشق ثم انترح عنها إلى بيت المقدس فوافاه الملك الناصر داود

فِي الْفُورِ فَطَعَّ عَلَيْهِ الطَّرِيقَ وَأَخَذَهُ وَأَقَامَ عِنْدَهُ بِنَابِلِسَ مُدَّةً وَجَرَتْ لَهُ مَعَهُ خُطُوبٌ.

ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ وَأَقَامَ بِهِ مُدَّةً، ثُمَّ جَاءَ الصَّالِحُ إِسْمَاعِيلُ وَالْمَلِكُ الْمُتَّصِرُ صَاحِبُ حَمَصٍ وَمُلُوكُ الْفَرَنْجِ بَعْسَاكِرَهُمْ وَجِيُوشَهُمْ إِلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ يَقْصِدُونَ الدِّيَارَ الْمِصْرِيَّةَ فَسِيرَ الصَّالِحُ إِسْمَاعِيلُ بَعْضَ خَوَاصِهِ إِلَى الشَّيْخِ بِمَنْدِيلِهِ وَقَالَ لَهُ: تَدْفَعُ مَنْدِيلِي إِلَى الشَّيْخِ وَتَتَلَطَّفُ بِهِ غَايَةَ التَّلَطُّفِ وَتَسْتَنْزِلُهُ وَتَعْدُهُ بِالْعُودِ إِلَى مَنَاصِبِهِ عَلَى أَحْسَنِ حَالٍ، فَإِنْ وَافَّقَكَ فَتَدْخُلْ بِهِ عَلَيَّ، وَإِنْ خَالَفَكَ فَاعْتَقِلْهُ فِي خِيْمَةٍ إِلَى جَانِبِ خِيْمَتِي.

فَلَمَّا اجْتَمَعَ الرَّسُولُ بِالشَّيْخِ شَرَعَ فِي مَسَايِسَتِهِ وَمَلَايِنَتِهِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: بَيْنَكَ وَبَيْنَ أَنْ تَعُودَ إِلَى مَنَاصِبِكَ وَمَا كُنْتَ عَلَيْهِ وَزِيَادَةَ أَنْ تَنْكَسِرَ لِلسُّلْطَانِ وَتَقْبَلَ يَدَهُ لَا غَيْرَ.

فَقَالَ لَهُ: وَاللَّهِ يَا مَسْكِينٍ مَا أَرْضَاهُ أَنْ يَقْبَلَ يَدِي فَضلاً أَنْ أَقْبَلَ يَدَهُ.
يَا قَوْمِ أَنْتُمْ فِي وَادٍ وَأَنَا فِي وَادٍ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي مِمَّا ابْتَلَاكُمْ بِهِ.
فَقَالَ لَهُ: قَدْ رَسَمَ لِي إِنْ لَمْ تَوَافِقْ عَلَيَّ مَا يَطْلُبُ مِنْكَ وَإِلَّا اعْتَقَلْتُكَ.
فَقَالَ: افْعَلُوا مَا بَدَأَ لَكُمْ.

فَأَخَذَهُ وَاعْتَقَلَهُ فِي خِيْمَةٍ إِلَى جَانِبِ خِيْمَةِ السُّلْطَانِ.

وَكَانَ الشَّيْخُ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَالسُّلْطَانُ يَسْمَعُهُ فَقَالَ يَوْمًا لِمُلُوكِ الْفَرَنْجِ:
تَسْمَعُونَ هَذَا الشَّيْخَ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟

قَالُوا: نَعَمْ.

الفصل الثالث: أسباب اضطهاد العلماء

قَالَ: هَذَا أَكْبَرُ قَسُوسِ الْمُسْلِمِينَ، وَقَدْ حَبَسْتَهُ لِإِنْكَارِهِ عَلَيَّ تَسْلِيمِي لَكُمْ
حِصُونِ الْمُسْلِمِينَ، وَعَزَلْتَهُ عَنِ الْخُطَابَةِ بِدِمَشْقَ وَعَنْ مَنَاصِبِهِ، ثُمَّ أَخْرَجْتَهُ
فَجَاءَ إِلَى الْقُدْسِ، وَقَدْ جَدَدَتْ حَبْسَهُ وَاعْتَقَالَهُ لِأَجْلِكُمْ.

فَقَالَتْ لَهُ مُلُوكُ الْفَرَنْجِ: لَوْ كَانَ هَذَا قَسِيْسِنَا لَغَسَلْنَا رِجْلَيْهِ وَشَرَبْنَا
مِرْقَتَهَا.

ثُمَّ جَاءَتِ الْعَسَاكِرُ الْمِصْرِيَّةُ وَنَصَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْأُمَّةَ الْمَحْمُودِيَّةَ وَقَتَلُوا
عَسَاكِرَ الْفَرَنْجِ، وَنَجَّى اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الشَّيْخَ.

فَجَاءَ إِلَى الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ السُّلْطَانُ الْمَلِكُ الصَّالِحُ نَجْمُ الدِّينِ
أَيُّوبَ رَحِمَهُ اللَّهُ وَوَلَاهُ خُطَابَةَ مِصْرَ وَقَضَاءَهَا وَفُوضَ إِلَيْهِ عِمَارَةَ الْمَسَاجِدِ
الْمَهْجُورَةِ بِمِصْرَ وَالْقَاهِرَةِ.

وَاتَّفَقَ لَهُ فِي تِلْكَ الْوَلَايَاتِ عَجَائِبُ وَغَرَائِبُ، ثُمَّ عَزَلَ نَفْسَهُ عَنِ الْحُكْمِ
فَتَلَطَّفَ السُّلْطَانُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي رَدِّهِ إِلَيْهِ، فَبَاشَرَهُ مُدَّةً، ثُمَّ عَزَلَ نَفْسَهُ مِنْهُ مَرَّةً
ثَانِيَةً، وَتَلَطَّفَ مَعَ السُّلْطَانِ فِي إِمْضَاءِ عَزْلِهِ لِنَفْسِهِ فَأَمْضَاهُ وَأَبْقَى جَمِيعَ نَوَابِهِ
مِنَ الْحُكَّامِ، وَكَتَبَ لِكُلِّ حَاكِمٍ مِنْهُ تَقْلِيدًا، ثُمَّ وُلَاهُ تَدْرِيسَ الْمَدْرَسَةِ الصَّالِحِيَّةِ
بِالْقَاهِرَةِ الْمَعْرُوفَةِ بِالْمَعْرِيَّةِ^(١).

* * *

(١) طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي، ٢٤٣/٨-٢٤٤.



المبحث السادس

اختلاف المذهب الفقهي والاعتقادي والسياسي

١ - الاختلاف المذهبي الفقهي:

إن المدارس الفقهية الإسلامية من أعظم الأدلة على سعة أفق هذه الأمة، وأن العقل الإسلامي لم يكن عقلاً جامداً متحجراً.

ولم تكن الأمة لتستقيم على مذهب واحد مع اختلاف الجنسيات والبيئات والطبائع والعادات؛ لذا كان من رحمة الله بتلك الأمة أن عدّد فيها الأفهام، وضيّق مجال القطعيّات، ووسع مجال الظنيّات؛ لذا كان الاجتهاد مجاله واسعاً، وبابه مفتوحاً لا ينغلق.

وقد ضرب الأئمة المتبوعون أروع الأمثلة في سعة الصدر، وقبول الاختلاف والخلاف، وعدم الطعن في أقرانهم، وعدم التعدي على غيرهم من العلماء باستعداد الجماهير أو السلطة أو أمثالهم من العلماء.

فمثلاً قال يونس بن عبد الأعلى عن الشافعي: «ما رأيت أحداً أعقل من الشافعي لو جمعت أمة فجعلت في عقل الشافعي لوسعهم عقله».

وقال يونس: ناظرتُ الشافعي يوماً في مسألة، ثم افترقنا، ولقيني فأخذ بيدي، ثم قال لي: يا أبا موسى، ألا يستقيم أن نكون إخواناً وإن لم نتفق في مسألة^(١).

(١) تاريخ دمشق، لابن عساکر، (٣٠٢/٥١) باختصار.

وقال الذهبيُّ معلقًا على هذه الحادثة: «هذا يدلُّ على كمال عقل هذا الإمام، وفقه نفسه؛ فما زال النظراء يختلفون»^(١).

وقد عرف الشافعيُّ أقدار العلماء، وأنزلهم منازلهم، واعترف بفضلهم فقال: «من أراد أن يعرف الفقه فليلزم أبا حنيفة وأصحابه؛ فإن الناس كلهم عيال عليه في الفقه»^(٢).

فقد كان هؤلاء الأعلام من العقل الوافر الذي جعلهم يعرفون أن العلم بحر واسع، وأنه لا ينضب مهما نزحت منه الدلاء، وأن واحدًا لا يجوز العلم، وأن الكل متصل بسبب إلى العلم.

لكن من جاء من بعدهم من أتباعهم ظهر فيهم التعصب لمذاهبهم، والطعن على الخصوم، وقد بلغ من البعض أن لا يرى زواج الحنفي من الشافعية، ومن جاوز منهم ذلك أنزل الشافعية منزلة الكتابية، ف«في الخُلاصة والبرازية من كتاب النكاح عن الإمام أبي بكرٍ محمد بن الفضل من قال: أنا مؤمنٌ إن شاء الله فهو كافرٌ لا تجوز المناكحة معه».

قال الشيخ أبو حفص في فوائده: لا ينبغي للحنفي أن يزوج بنته من رجلٍ شفعوي المذهب.

وهكذا قال بعض مشايخنا، ولكن يتزوج بنتهم - زاد في البرازية - تنزيلاً

(١) سير أعلام النبلاء، للذهبي، ١٠/١٧.

(٢) تاريخ بغداد، للبغدادي، ١٣/٣٤٦.

الفصل الثالث: أسباب اضطهاد العلماء

هُم مَنزِلَةٌ أَهْلِ الْكِتَابِ»^(١)، فهذا اضطهاد لطائفة بأكملها، وتحريم لفروج أحلها الله تعالى.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل بلغ بهم الأمر بحث جواز صلاة بعضهم خلف بعض؛ فإن «صاحب الهداية جَوَزَ الإِقْتِدَاءَ بِالشَّافِعِيِّ بِشَرَطِ أَنْ لَا يَعْلَمَ الْمُقْتَدِي مِنْهُ مَا يَمْنَعُ صِحَّةَ صَلَاتِهِ فِي رَأْيِ الْمُقْتَدِي ك: الْفُصْدِ وَنَحْوِهِ.

وَعَدَدَ مَوَاضِعَ عَدَمِ صِحَّةِ الإِقْتِدَاءِ بِهِ فِي العِنَايَةِ وَغَايَةِ البَيَانِ بِقَوْلِهِ: كَمَا إِذَا لَمْ يَتَوَضَّأْ مِنَ الْفُصْدِ وَالْحَارِجِ مِنْ غَيْرِ السَّبِيلَيْنِ، وَكَمَا إِذَا كَانَ شَاكًّا فِي إِيمَانِهِ بِقَوْلِهِ: أَنَا مُؤْمِنٌ إِنْ شَاءَ اللهُ، أَوْ مُتَوَضَّأً مِنَ الْقُلْتَيْنِ، أَوْ يَرْفَعُ يَدَيْهِ عِنْدَ الرَّكُوعِ وَعِنْدَ رَفْعِ الرَّأْسِ مِنَ الرَّكُوعِ، أَوْ لَمْ يَغْسِلْ ثَوْبَهُ مِنَ المَنِيِّ وَلَمْ يَفْرُكْهُ، أَوْ انْحَرَفَ عَنِ الْقِبْلَةِ إِلَى الْيَسَارِ، أَوْ صَلَّى الْوَتْرَ بِتَسْلِيمَتَيْنِ، أَوْ اقْتَصَرَ عَلَى رَكْعَةٍ أَوْ لَمْ يُوتِرْ أَصْلًا، أَوْ فَهَّقَهُ فِي الصَّلَاةِ وَلَمْ يَتَوَضَّأْ، أَوْ صَلَّى فَرَضَ الْوَقْتِ مَرَّةً ثُمَّ أَمَّ الْقَوْمَ فِيهِ.

زَادَ فِي النِّهَايَةِ: وَأَنْ لَا يُرَاعِيَ التَّرْتِيبَ فِي الْفَوَائِتِ، وَأَنْ لَا يَمْسَحَ رُبْعَ رَأْسِهِ.

وَزَادَ قَاضِي خَانَ: وَأَنْ يَكُونَ مُتَعَصِّبًا»^(٢).

وقد عجبت من إضافة قاضي خان لشرط «التعصب» الذي يمنع الحنفي من الصلاة خلف الشافعي إذا كان متعصبًا!

(١) البحر الرائق، لابن نجيم، ٤٩/٢.

(٢) السابق، ٤٨/٢-٤٩.

فبماذا نسمي رأي قاضي خان هذا؟!.

إنه عين التعصب، هل الخلاف الفقهي أصبح مانعاً من موانع اقتداء
أحدهما بالآخر في الصلاة.

لقد أفنى أمثال هؤلاء أعمارهم فيما يفتت الأمة ويفسدها، لا ما يصلحها
ويرفع شأنها.

وقد كان التعصب مانعاً من موانع تلقي العلم عن كبار العلماء؛ فالإمام
ابن جرير الطبري قد تعصب عليه الحنابلة حتى إنهم منعوا من الدخول عليه،
«قال الحاكم: سمعت حسينك بن علي يقول: أول ما سألني ابن خزيمة فقال
لي: كتبت عن محمد بن جرير الطبري؟».

قلت: لا.

قال: ولم؟

قلت: لأنه كان لا يظهر، وكانت الحنابلة تمنع من الدخول عليه.

قال: بئس ما فعلت، ليتك لم تكتب عن كل من كتبت عنهم، وسمعت
من أبي جعفر.

قال الحاكم: وسمعت أبا بكر بن بالويه يقول: قال لي أبو بكر بن خزيمة:
بلغني أنك كتبت التفسير عن محمد بن جرير؟.

قلت: بلى، كتبت عنه أملاء.

قال: كله؟.

قلت: نعم.

قال: في أي سنة؟

قلت: من سنة ثلاث وثمانين إلى سنة تسعين ومائتين.

قال: فاستعاره مني أبو بكر، ثم رده بعد سنين، ثم قال: لقد نظرت فيه من أوله إلى آخره، وما أعلم على أديم الأرض أعلم من محمد بن جرير، ولقد ظلمته الحنابلة»^(١).

وفي أزمة ابن تيمية مع بعض الفقهاء والعلماء لم يقف الأذى عند ابن تيمية، بل طال الحنابلة، حتى قال ابن حجر: «إن الجاشنكير والقاضي المالكي قد قاما في الإنكار على الشيخ، وأن الأمر اشتد بمصر على الحنابلة حتى صفع بعضهم».

ونودي بدمشق من اعتقد عقيدة ابن تيمية حل دمه وماله خصوصاً الحنابلة، فنودي بذلك، وقرئ المرسوم، وقرأها ابن الشهاب محمود في الجامع، ثم جمعوا الحنابلة من الصالحة وغيرها وأشهدوا على أنفسهم أنهم على معتقد الإمام الشافعي.

وذكر ولد الشيخ جمال الدين بن الظاهري في كتاب كتبه لبعض معارفه بدمشق أن جميع من بمصر من القضاة والشيخ والفقراء والعلماء والعوام يحطون على ابن تيمية إلا الحنفي؛ فإنه يتعصب له، وإلا الشافعي فإنه ساكت عنه، وكان من أعظم القائمين عليه الشيخ نصر المنبجي؛ لأنه كان بلغ

(١) سير أعلام النبلاء، ١٤/٢٧٢-٢٧٣.

ابن تيمية أنه يتعصب لابن العربي فكتب إليه كتاباً يعاتبه على ذلك، فما أعجبه لكونه بالغ في الخط على ابن العربي وتكفيره، فصار هو يحط على ابن تيمية ويغري به ببيرس الجاشنكير، وكان ببيرس يفرط في محبة نصر ويعظمه.

وقام القاضي زين الدين بن مخلوف قاضي المالكية مع الشيخ نصر وبالغ في أذية الحنابلة^(١).

في هذا العصر الذي كان فيه المغول يجوسون خلال الديار كان الصراع والشقاق بين بعض العلماء، صراع عقدي ومذهبي، والانتصار على الخصوم بقوة السلطان، وكان الأولى أن يبحثوا عن المشترك، وأن ينظموا صفوفهم لتوحيد القوى ودحر المعتدين، والعمل على نشر الدعوة الإسلامية في بقاع العالم.

وكان الاضطهاد هنا أعمق وأشمل؛ فلم يكن خاصاً بالرهوس من العلماء والفقهاء، بل طال الأتباع، ووقع عليهم التضييق والأذى البدني والمعنوي.

٢ - الاختلاف الاعتقادي:

إن من قضاء الله المبرم على هذه الأمة أنها ستفترق فيما بينها، وسيأخذ هذا الافتراق بعض الأشكال والألوان؛ فهناك الافتراق السياسي، والافتراق الاعتقادي.

(١) الدرر الكامنة، لابن حجر، (١/ ١٧٠-١٧٢) باختصار.

الفصل الثالث: أسباب اضطهاد العلماء

وبسبب هذين الأمرين سالت الدماء، وانتهكت الأعراس، وصدورت الأموال.

عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَلِّغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيْتُ الْكَثْرَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ.

وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يَهْلِكَهَا بَسَنَةٌ عَامَّةٌ، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ.

وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يَرُدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتَكَ لِأُمَّتِكَ: أَنْ لَا أَهْلِكَهُمْ بَسَنَةٌ عَامَّةٌ، وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بَأَقْطَارِهَا - أَوْ قَالَ: مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا - حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يَهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا»^(١).

والافتراق الاعتقادي لم يتأخر كثيرًا في الأمة، فلم يكد العقد الرابع من عمر دولة الإسلام ينقضي إلا وقد تحارب المسلمون فيما بينهم تحت عنوان اعتقادي (معركة النهروان)، وقبلها بقليل تحت عنوان سياسي (معركة الجمل وصفين).

بل إن دولة الخلافة الراشدة انتهت تمامًا على يد الخوارج عندما اغتال عبد الرحمن بن ملجم الخارجي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب سنة ٤٠ هـ.

(١) أخرجه مسلم في «الفتن وأشراف الساعة»، باب: «هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض»، (٤/٢٢١٥)، ح(٢٨٨٩).

وقد تعددت المذاهب الاعتقادية في الأمة بدءًا من الخوارج مرورًا بالمعتزلة ثم الشيعة... إلخ.

وقد افتتن مؤرخو الفرق بتقسيم وتفريق الفرق للوصول إلى العدد الذي ذكره المصطفى -صلوات الله وسلامه عليه- في حديث الافتراق، ويعتبرون كل من جاء بمقولة ما أنه رأس فرقة من الفرق؛ فمثلاً جعلوا الجاحظ رأساً لفرقة معتزلية، وسموها: الجاحظية، وهذا كان من باب التعسف والمبالغة.

وحديث الافتراق جاء بصيغ وروايات متعددة، منه ما رواه أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ قال: «إن بني إسرائيل تفرقت إحدى وسبعين فرقة فهلكت سبعون فرقة وخلصت فرقة واحدة، وإن أمتي ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة فتهلك إحدى وسبعين وتخلص فرقة.

قالوا: يا رسول الله، من تلك الفرقة؟.

قال: الجماعة الجامعة»^(١).

وقد تعددت دوائر الصراع الاعتقادي في المسلمين؛ فهناك صراع سني سني، وصراع سني شيعي، وصراع سني خارجي، وصراع سني معتزلي... إلخ.

والصراع السني السني كالصراع بين أهل الحديث والأثر من ناحية

(١) أخرجه أحمد في «المسند»، (٤٦٢/١٩)، ح (١٢٤٧٩)، وقال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على «المسند»: «صحيح بشواهده، وهذا إسناد ضعيف».

الفصل الثالث: أسباب اضطهاد العلماء

والأشاعرة والماتريدية من ناحية أخرى، ومحاولة احتكار مصطلح أهل السنة والجماعة، وإزاحة الآخرين منه وسلبه عنهم.

ومن ذلك ما قاله السبكي في طبقاته: «وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يَتَفَقَدَ عِنْدَ الْجُرْحِ حَالَ الْعُقَائِدِ وَاخْتِلَافِهَا بِالنُّسْبَةِ إِلَى الْجُرْحِ وَالْمَجْرُوحِ؛ فَرُبَّمَا خَالَفَ الْجُرْحُ الْمُجْرُوحَ فِي الْعَقِيدَةِ فَجَرَحَهُ لَذَلِكَ، وَإِلَيْهِ أَشَارَ الرَّافِعِيُّ بِقَوْلِهِ: وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْمَزْكُونُ بُرَاءً مِنَ الشَّحْنَاءِ وَالْعَصْبِيَّةِ فِي الْمَذْهَبِ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَحْمِلَهُمْ ذَلِكَ عَلَى جَرْحِ عَدْلٍ أَوْ تَزْكِيَةِ فَاسِقٍ، وَقَدْ وَقَعَ هَذَا لكَثِيرٍ مِنَ الْأَئِمَّةِ جَرَحُوا بِنَاءً عَلَى مَعْتَقَدِهِمْ، وَهُمْ الْمَخْطُوتُونَ، وَالْمَجْرُوحُ مُصِيبٌ.

قلت: وَمِنْ أَمْثَلَةِ قَوْلِ بَعْضِهِمْ فِي الْبُخَارِيِّ: تَرَكَهُ أَبُو زُرْعَةَ وَأَبُو حَاتِمٍ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَةِ اللَّفْظِ.

فِي اللَّهِ وَالْمُسْلِمِينَ، أَيْجُوزُ لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ: الْبُخَارِيُّ مَتْرُوكٌ وَهُوَ حَامِلٌ لِيَوَاءِ الصَّنَاعَةِ وَمَقْدَمِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ!.

وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ بَعْضِ الْمَجْسَمَةِ فِي أَبِي حَاتِمِ بْنِ حَبَانَ: لَمْ يَكُنْ لَهُ كَبِيرٌ دِينَ؛ نَحْنُ أَخْرَجْنَاهُ مِنْ سَجِسْتَانَ؛ لِأَنَّهُ أَنْكَرَ الْحُدَّ لِلَّهِ.

فِيَا لَيْتَ شِعْرِي، مِنْ أَحَقِّ بِالْإِخْرَاجِ مَنْ يَجْعَلُ رَبَّهُ مَحْدُودًا، أَوْ مِنْ يَنْزُهُهُ عَنِ الْجَسْمِيَّةِ.

وَأَمْثَلَةُ هَذَا تَكْثُرُ، وَهَذَا شَيْخُنَا الدَّهَبِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ- مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ لَهُ عِلْمٌ وَدِيَانَةٌ، وَعِنْدَهُ عَلَى أَهْلِ السُّنَّةِ تَحْمَلٌ مَفْرُطٌ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَعْتَمِدَ عَلَيْهِ.

وَنَقَلْتُ مِنْ خَطِّ الْحَافِظِ صَالِحِ الدِّينِ خَلِيلِ بْنِ كَيْكَلْدِيِّ الْعِلَائِيِّ -رَحِمَهُ اللَّهُ- مَا نَصَّهُ: الشَّيْخُ الْحَافِظُ شَمْسُ الدِّينِ الدَّهَبِيُّ لَا أَشْكُ فِي دِينِهِ

اضطهاد العلماء .. أسبابه وآثاره وواجب الأمة تجاههم

وورعه وتحريه فيما يقوله الناس، ولكنه غلب عليه مذهب الإثبات، ومنافرة التأويل، والغفلة عن التنزيه، حتى أثر ذلك في طبعه انحرافاً شديداً عن أهل التنزيه، وميلاً قوياً إلى أهل الإثبات.

فإذا ترجم واحداً منهم يطنب في وصفه بجميع ما قيل فيه من المحاسن، ويبالغ في وصفه، ويتغافل عن غلطاته، ويتأول له ما أمكن.

وإذا ذكر أحداً من الطرف الآخر كإمام الحرمين والغزالي ونحوهما لا يبالغ في وصفه، ويكثر من قول من طعن فيه، ويعيد ذلك ويديه، ويعتقده ديناً وهو لا يشعر، ويعرض عن محاسنهم الطافحة فلا يستوعبها، وإذا ظفر لأحد منهم بغلطة ذكرها.

وكذلك فعله في أهل عصرنا إذا لم يقدر على أحد منهم بتصريح يقول في ترجمته: والله يصلحه، ونحو ذلك.

وسببه المخالفة في العقائد. انتهى.

والحال في حق شيخنا الذهبي أزيد ممّا وصف، وهو شيخنا ومعلمنا، غير أن الحق أحق أن يتبع، وقد وصل من التعصب المفرط إلى حد يسخر منه.

وأنا أخشى عليه يوم القيامة من غالب علماء المسلمين وأئمتهم الذين حملوا لنا الشريعة النبوية؛ فإن غالبهم أشاعرة، وهو إذا وقع بأشعري لا يبقى ولا يذر»^(١).

(١) طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي، (١٣/٢-١٢) باختصار.

الفصل الثالث: أسباب اضطهاد العلماء

وفي المقابل نجد تحاملاً من الأشاعرة على الحنابلة، وكلاهما من طرفي أهل السنة والجماعة، فقد «نُودِيَ بِدِمَشْقَ: من اعتقد عقيدة ابن تيمية حل دمه وماله، خصوصاً الحنابلة».

فنُودِيَ بذلك، وقرئ المرسوم، وقرأها ابن الشهاب محمُود في الجامع، ثم جمعوا الحنابلة من الصالحة وغيرها وأشهدوا على أنفسهم أنهم على معتقد الإمام الشافعي»^(١).

ومن الدوافع القوية في الاختلاف مع ابن تيمية وإجراء المناظرات معه تمهيداً لاضطهاده الاختلاف الاعتقادي، وهذا ما لاحظته الكثيرون وأثبتته ابن تيمية فقال: «وَقَدْ عَلِمَ النَّاسُ مَا كَانَ فِي نُفُوسِ طَائِفَةٍ مِنَ الْحَاضِرِينَ مِنَ الْخِلَافِ وَالْهَوَىٰ مَا قَدْ عَلِمَ النَّاسُ بَعْضُهُ، وَبَعْضُهُ بِسَبَبِ الْإِعْتِقَادِ، وَبَعْضُهُ بِغَيْرِ ذَلِكَ»^(٢).

والصراع السني المعتزلي مشهور معروف، وتمثلت أعظم تجلياته في تبني الدولة له في عهود المأمون والمعتصم والواثق، وابتلائهم للعلماء، وفرض رأيهم بالقوة، والتنكيل بالمخالفين، وقد أبطل المتوكل هذه الفتنة.

«قال الحافظ أبو بكر: لم يصبر في المحنة إلا أربعة كلهم من أهل مرو: أحمد بن حنبل أبو عبد الله، وأحمد بن نصر بن مالك الخزاعي، ومحمد بن نوح بن ميمون المضروب، ونعيم بن حماد وقد مات في السجن مقيداً، فأما

(١) الدرر الكامنة، لابن حجر، ١/ ١٧١.

(٢) مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ٣/ ١٦٤.

أحمد بن نصر فضربت عنقه، ومات محمد بن نوح في فتنة المأمون، والمعتصم ضرب أحمد بن حنبل، والوائق قتل أحمد بن نصر وكذلك نعيم بن حماد^(١).

والصراع السني الشيعي قديم متجدد، لا يكاد أواره ينطفئ حتى يعود مرة أخرى أكثر اشتعالاً، وفي العصر الحديث تجلّى بعد نجاح الثورة الخمينية في إيران، وتصديرها في العالم الإسلامي، وجعل إيران وقم هي القبلة والدولة الحامية لكل شيعي في العالم.

والصراع السني الخارجي مستمر دائم؛ إذ إن فكر تكفير المسلمين واستباحة دمائهم لا يتوقف من الغلاة في القديم والحديث.

٣- اختلاف الرؤية السياسية أو الموقف السياسي:

إن مشكلة هذه الأمة مشكلة سياسية لبست لباس الدين والعقيدة؛ فالخروج على عثمان -رضي الله عنه- كان يمكن حله، لكنه نحى منحى عنيفاً، واختار طريق الدماء على طريق الحوار، ولما فُتح باب الدماء في الأمة لم يُغلق أبداً.

ارتفع صوت السيف على صوت التشاور والحوار؛ فعدم وجود الشورى وارتفاعها من الأمة أدخلها نفقاً مظلماً، حيث الرأي الواحد الذي لا مرد لحكمه، ولا راد لكلمته، ولا معقب لقضائه.

وللأسف هذا الأمر ليس مرتبطاً فقط بالحكام، بل هو داء مستشر في

(١) تهذيب الكمال، للمزي، (١/٥١٠) باختصار.

الفصل الثالث: أسباب اضطهاد العلماء

أوصال مجتمعاتنا، فمن كان في منصبٍ ما لا يطبق الرأي المخالف له ويضيق به ذرعاً، نجد ذلك في الجمعيات والجامعات والأحزاب والجماعات... إلخ.

لذا تكثر عندنا الانشقاقات؛ لأنهم لا يستطيعون إدارة خلافاتهم، ولا يستطيعون أن يتعاملوا من خلال العوامل المشتركة فيما بينهم، بل يبحثون عن مواطن الخلاف ويتم تعميقها، فتتباعد الشقة بين الفرقاء، حتى يأتي وقت لا يمكن فيه التراجع حتى ولو ثبت خطأ أحد الفريقين.

وينتج عن هذا الجو من الرأي الواحد والصوت الواحد أن يكون هناك عزوف بنسب متفاوتة عن العمل الجماعي المشترك.

فنجد الكفاءات تعمل منفردة، فتخسر الأمة كثيراً؛ إذ إن العمل المشترك يوفر كثيراً من الجهد والوقت، ويكون المنتج منضبطاً أكثر؛ إذ يخضع لأكثر من عين ناقدة.

والأحزاب والجماعات تمارس الاضطهاد بالإقصاء والإبعاد للمختلفين مع القيادة في الرؤية السياسية الداخلية أو الخارجية، فتحرمهم من العمل في مؤسساتها، وتحرم نفسها من الاستفادة من الإنتاج الفكري لهؤلاء المختلفين معهم، ويجعلون مكانهم من قد لا يكون على نفس القدر من الكفاءة والقدرة العلمية والتحليلية والاستشرافية.

والعجيب أن الإقصاء الذي تمارسه بعض الأحزاب أو الجماعات لبعض منتسبيها يمارس ضدها إذا هي خالفت السياسة العامة للدولة أو الأنظمة الحاكمة.

تفعل ذلك الأحزاب والجماعات وهي لم تصل بعد للحكم، فكيف بها إذا وصلت إلى سدة الحكم، كيف ستعامل مع الشعب بكل فئاته وأطيافه؟!.

وإذا أقدمت بعض الأحزاب والجماعات على إنشاء مراكز بحثية فإنها تبحث عن ذوي الثقة من الباحثين أو من العلماء، وتترك عن عمد ذوي الكفاءة، وقد يكون ذوو الثقة أقل بكثير من أهل الكفاءة غير المرضي عنهم المستبعدين، فتكون الأوراق البحثية والنتائج المستفادة منها ليست مستوعبة لكل نواحي الأمور المكلفة بدراستها، أو إنها تعتمد إلى ما يريد القادة قراءته وسماعه، وعدم مس الأمور الشائكة التي لا تعجب القادة.

وهذه خيانة علمية يشارك فيها القادة والباحثون، وليت الأمر يتوقف عند الخيانة العلمية ولكنه يبني عليه قرارات قد تكون خاطئة، وتجعل الأتباع يدفعون الثمن غالباً من الأرواح والأموال.

وقد يستعين القادة بباحثين أو علماء من خارج تنظيماتهم، ولا يدخلون عليهم بهال، ويتركون باحثيهم الذين هم في نفس كفاءة المستعان بهم من الخارج، وإذا تمت الاستعانة بباحثيهم يتم التقدير عليهم في المال.

ومن البلى أن يتم الاستعانة بغير المختصين ويترك أهل العلم والاختصاص؛ فيتكلم -مثلاً- في السياسة من لم يدرس يوماً السياسة ونظرياتها ومدارسها، ويترك من أفنى عمره في الدرس والتحصيل في هذا المجال.

ومثلاً في الإعلام يترك الإعلاميين والصحفيين ليدبر المنصات الإعلامية والقنوات الفضائية من لم يدرس هذا المجال وليس له فيه خبرة.

الفصل الثالث: أسباب اضطهاد العلماء

والحبل على الجرار في هذا الفساد وإهدار الطاقات والأموال، والنتيجة عدم الحصول على النتيجة المرجوة.

ومجالس الشورى لبعض الجماعات والمكاتب السياسية لبعض الأحزاب خلّو من أهل العلم والاختصاص، وليس المقصود أهل الشريعة وحدهم، بل أهل الفكر والاقتصاد والإعلام والعلوم العسكرية والأمنية... إلخ.

وتقوم هذه المجالس والمكاتب بالبت في قضايا ومسائل لا يعلمون عنها شيئاً، وليس عندهم تصور واضح عنها، ثم نقول: هذه شورى، إن الشورى تكون بين أهل الاختصاص، فليس كل إنسان مؤهل للاستشارة.

وقد تمارس هذه الأحزاب والجماعات سياسة الإقصاء تجاه بعض منتسبيها بالألا يتم استدعاؤهم للمحاضرات والندوات والمؤتمرات الخاصة والعامّة؛ لأنهم غير واثقين من كونهم على النهج العام لخط القادة، وليس خط الحركة أو الحزب أو الجماعة.

إذ إن الخلاف هنا ليس مع الخط الفكري العام، بل هو الخلاف مع وجهات نظر بعض القادة الذين يسيرون الحركات أو الأحزاب في بعض المراحل.

هذا كله يمكن أن نطلق عليه: اضطهاد وإقصاء الأصدقاء والأحباب؛ فمعظم ما تناولناه سابقاً قد يعد إقصاء واضطهاداً للخصوم والأعداء، لكن هذا إقصاء وتحجيم وتضييق يتم بين أبناء الفكر الواحد والصف الواحد والمذهب الواحد، فتكون عاقبة ذلك وخيمة على الكل.

على الفرد الذي يرى أنه مقيد ومكبل بقيود التنظيم، وأن هذه القيود تعطله عن إتمام مشاريعه العلمية، وأن التنظيم لا يقدر مواهبه وقدراته فيعتزل العمل التنظيمي والجماعي والحزبي، أو لو ضعفت نفسه واشتد عليه الألم قد يلجأ للخصوم ويعمل معهم لينال المكانة التي كان يبحث عنها، والمال الذي كان محروماً منه أو مُضيقاً عليه فيه.

على الحزب الذي يفقد إطاراته الموجهة والمدبرة والمفكرة، ولا يمكن له المنافسة مع الأحزاب الأخرى التي تملك الكفاءات والمواهب التي تستفيد منها أفضل استفادة، وهذا الحزب وأمثاله محكوم عليه بالذبول لعدم قدرته على استقطاب عقول جديدة وأفراد يجددون الدماء بالحزب، فيضمحل مع الزمن، ويتفسخ ويترهل، ويأتي يوم يصبح فيه هذا الحزب تاريخاً وماضيًا.

على المجتمع الذي لا يستفيد من الكفاءات، ولا يجد من يحمل همهم ويصل به إلى قادة الدولة.

على الدولة التي تخسر كثيراً من الطاقات التي تسهم في بنائها ونهضتها.

إن اختلاف الرؤى السياسية تثري الحياة، وتزيد من حيويتها، وتعمل على إحكام الخطط التي تعالج المشاكل القائمة والمتوقعة.

لكن التضييق والإبعاد والإقصاء فكلها تعد من أقرب الطرق للفساد، وتضييع للأمانة.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ فِي مَجْلِسٍ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ جَاءَهُ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟

الفصل الثالث: أسباب اضطهاد العلماء

فَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحَدِّثُ، فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: سَمِعَ مَا قَالَ، فَكَّرَهُ
مَا قَالَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ لَمْ يَسْمَعْ.

حَتَّى إِذَا قَضَى حَدِيثَهُ قَالَ: «أَيْنَ - أُرَاهُ - السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ؟»

قَالَ: هَا أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ.

قَالَ: «فَإِذَا ضَيَّعَتِ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ».

قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا؟

قَالَ: «إِذَا وَسَّدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ»^(١).



(١) أخرجه البخاري في «العلم»، باب: «مَنْ سُئِلَ عِلْمًا وَهُوَ مُشْتَغَلٌ فِي حَدِيثِهِ، فَأَتَمَّ الْحَدِيثَ ثُمَّ أَجَابَ السَّائِلَ»، (١/٢١)، ح (٥٩).



الفصل الرابع

أنواع الاضطهاد

ويشتمل على توطئة وسبعة عشر مبحث:

المبحث الأول: التهديد

المبحث الثاني: العزل من المنصب

المبحث الثالث: المنع من تولي المناصب

المبحث الرابع: المنع من الإقراء والإفتاء والتدريس

المبحث الخامس: الإقامة الجبرية والمنع من السفر

المبحث السادس: الجلد

المبحث السابع: السجن

المبحث الثامن: النفي

المبحث التاسع: القتل

المبحث العاشر: مصادرة الأموال والأموال

المبحث الحادي عشر: تأليب العامة

المبحث الثاني عشر: التشهير

المبحث الثالث عشر: حرق الكتب ومنع نشرها

المبحث الرابع عشر: تأليب علماء السلطان

المبحث الخامس عشر: تليفق القضايا

المبحث السادس عشر: التكفير والاتهام بالزندقة

المبحث السابع عشر: تأليب القوى الخارجية



توطئة:

لقد تفنن أهل الحكم والنفوذ في إنزال العقوبات بمخالفهم من العلماء؛ لكسر نفوسهم، ولردهم عن آرائهم ومواقفهم التي يخالفون فيها الحكام، والتي قد تكون سبباً في تأليب الرأي العام عليهم، أو إيجاد بؤر معارضة هم في غنى عنها.

وهذه العقوبات تتفاوت في درجاتها؛ فمنها ما هو شديد قاس قد يصل إلى حد إتلاف الأجساد وإزهاق الأرواح، ومنها ما هو دون ذلك وإن كان داخلياً في حد التضييق أو الإقصاء أو التهميش.

ومقدار العقوبة يتوقف على تقديرهم لحجم المخالفة التي يرون العلماء خالفوهم فيها.

وقد أسميناها عقوبة - وإن كانت العقوبة إنما تكون على جرم قد اقترفه صاحبه؛ لأنها في نظر الحكام أو غيرهم جرم، قد يصل لحد الجرم الذي لا يغتفر، فيُنزل على إثره أشد العقوبة على صاحبه، أو يكتفي بما دون ذلك حسبما يتراءى له، أو بما يشير عليه مستشاروه.

وقد تكون عقوبة شديدة قاسية غير مناسبة مع موقف بعض العلماء، ولكن الحاكم ينزلها بهم ليكونوا عبرة لغيرهم، فلا يجروا أحد على حذو حذوهم.

وقد تكون عقوبة على غير جرم مقترف، بل يقع عليهم لافتراء مفترى،

اضطهاد العلماء .. أسبابه وآثاره وواجب الأمة تجاههم

أو لخوفه من رد فعل قد يقومون به على شيء ينوي أصحاب السلطان والشان القيام به.

فتكون العقوبة احترازاً من الوقوع في أمر يخشونه ويخافونه.

وفي الصفحات الآتية سوف نلقي الضوء على بعض تلك العقوبات المتخذة ضد أهل العلم والفكر والثقافة.

* * *

المبحث الأول

التهديد

قد يتخذ العلماء مواقف مخالفة لمواقف السلطان، فيحاول السلطان أن يثني صاحب هذا الموقف عن موقفه بالترغيب والترهيب.

وكل إنسان له طاقته واحتماله الذي يختلف عن غيره؛ فهناك من يثنيه التهديد عن موقفه، ومنهم من يغير موقفه إذا تجاوز الأمر التهديد والوعيد إلى الضرب أو الحبس أو غيرهما، ومنهم من لا يتزحزح عن موقفه أبداً.

والتهديد قد يُكتفى فيه بالكلام الشديد والتوبيخ، وقد يتعدى إلى فعل آخر مصاحب؛ فهذا الإمام أبو إسحاق الأنصاري يقول: «عُرِضت على السيف خمس مرات، لا يقال لي: ارجع عن مذهبك، لكن يقال لي: اسكت عمن خالفك، فأقول: لا أسكت»^(١).

وقد لا يقترف العالم أو القاضي جرماً، بل يتم تهديده لعدم إطاعة ذوي السلطان في أوامرهم، فمثلاً عرض الخليفة هشام بن عبد الرحمن بن معاوية القضاء على المصعب بن عمران، وقال له: «قد علمت أنه إنما منعك عن القبول من أبي رحمه الله! الأخلاق التي كانت فيه. وقد عرفت أخلاقي وبلوتها، فاحمل عني هم القضاء!».

فأباه واستعفاه؛ فغضب هشام عليه عزماً شديداً، وتهده، وأوعده.

(١) ذيل طبقات الحنابلة، لابن رجب، ١/١٢٣.

وذكر بعضهم أنه قال: لئن لم تعمل على القضاء، لأسطون بك سطوة
تزيل اسم الحلم عني!.

فلما رأى ذلك، وخاف على نفسه، تولى له العمل كرهاً^(١).

وقد يكون التهديد من باب الاختبار ليرى الحاكم إلى أي مدى تكون
صلابة هذا العالم وتمسكه برأيه وموقفه، وأنه صاحب مبدأ لا يجيد عنه، فهذا
حنين بن إسحاق الطيب النصراني «لم يزل أمره يقوى وعلمه يتزايد وعجائبه
تظهر في النقل والتفاسير حتى صار ينبوعاً للعلوم ومعدناً للفضائل.

فلما انتشر ذكره بين الأطباء اتصل خبره بالخليفة [المتوكل] فأمر
بإحضاره، وكان يسمع علمه ولا يأخذ بقوله [في] دواء يصفه حتى يشاور
غيره، وأحب امتحانه ليزيل ما في نفسه عليه؛ إذ ظن أن ملك الروم ربما
كان قد عمل شيئاً من الحيلة.

فاستدعاه ثم قال له: أريد أن تصف لي دواء يقتل عدواً نريد قتله،
وكيس يمكن إشهار هذا، ونريده سراً.

فقال حنين: ما تعلمت غير الأدوية النافعة، ولا علمت أن أمير المؤمنين
يطلب مني غيرها، فإن أحب أن أمضي وأتعلم فعلت.

فقال: هذا شيء يطول، ورغبه وهدده، وهو لا يزيد على ما قال، إلى
أن أمر بحبسه في بعض القلاع، ووكل به من يرفع خبره إليه وقتاً بوقت،
فحبس سنة، وكان ينقل ويفسر ويصنف وهو غير مكترث بما هو فيه.

(١) تاريخ قضاة الأندلس، للنهايي، ص ٤٥.

الفصل الرابع: أنواع الاضطهاد

ولما كَانَ بعد سنة أمر الخليفة بإحضاره، وإحضار أموال يرغبه فِيهَا، وإحضار سيف ونطع وسائر آلات العقوبات، ولما حضر قال: هَذَا شَيْءٌ قَدْ طَالَ، وَلَا بَدِي مِمَّا قَلْتَهُ لَكَ، فَإِنْ أَنْعَمْتَ^(١) فَزَتَ بِهَذَا الْمَالِ، وَإِنْ أَمْتَمْتِ عَاقِبَتَكَ وَقَتْلَتِكَ.

فقال حنين: قَدْ قَلْتِ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ: إِنِّي مَا أَحْسَنَ غَيْرِ الشَّيْءِ النَّافِعِ وَلَا تَعَلَّمْتِ غَيْرَهُ.

قال الخليفة: فَإِنِّي أَقْتَلُكَ.

فقال حنين: إِلَى رَبِّ يَأْخُذُ بِحَقِّي غَدًا فِي الْمَوْقِفِ الْأَعْظَمِ، فَإِنْ اخْتَارَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَظْلِمَ نَفْسَهُ، فَتَبَسَّمَ الْخَلِيفَةُ وَقَالَ لَهُ: يَا حَنِينُ طَبَّ نَفْسًا وَثِقَ بِنَا، فَهَذَا الْفِعْلُ مِمَّا كَانَ لَامْتِحَانِكَ؛ لِأَنَّنا حَذَرْنَا مِنْ كَيْدِ الْمَلُوكِ، فَأَرَدْنَا الطَّمَأِينَةَ إِلَيْكَ وَالثِّقَةَ بِكَ، فَقبل حنين الأرض وشكر له^(٢).

ومن طريف التهديد أن أبا العتاهية ترك قول الشعر، فلما امتنع من قوله أمر المهدي بحبسه في سجن الجرائم، ثم أوقفه بين يديه وهدده بالقتل، فخاف، وأذعن، فأطلق سراحه، وعاد لقول الشعر^(٣).

* * *

(١) كذا.

(٢) إخبار العلماء، للقفطي، ص (١٣٥) باختصار.

(٣) انظر: وفيات الأعيان، لابن خلكان، ١/ ٢٢٤-٢٢٥.



المبحث الثاني العزل من المنصب

المنصب سلطة وقوة، قد يُحسّن استخدامها، وقد يُساء استغلالها.

والمنصب فيه وجاهة وفيه إثراء، لذا يسعى إليه الساعون، ويطمح إليه الطامحون، قد يسعون إليه ببذل المال، أو بالتزلف إلى ذوي الجاه والسلطان، أو بالطعن فيمن يلي هذا المنصب.

والمناصب مغارم؛ إذ يتم المحاسبة عليها، وقد ينكب صاحبها بسببها إذا دالت الدولة التي خدم فيها، وجاءت دولة جديدة.

وإذا كانت الحاشية فاسدة سهّلت وصول الراغبين طالما دفعوا المقابل، حتى وإن لم يكونوا أكفاء لهذه المناصب، وأزاحت الأكفاء بوشايات أو سوسات في آذان الحكام.

قال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-: «ما استُخلف خليفة إلا له بطانتان: بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، والمعصوم من عصم الله»^(١).

وهناك من يكون أكبر من المناصب؛ فلا يزيده المنصب في أعين الناس شيئاً؛ إذ بلغ الجاه ونفوذ الكلمة وقوة التأثير بشخصه وعلمه لا بمنصبه، بل

(١) أخرجه البخاري في «القدر»، باب: «المعصوم من عصم الله...»، (٨/١٢٥)، ح (٦٦١١) من حديث أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه-.

يرى بعض هؤلاء الكبار أن المناصب أعباء يفرون منها، أو تكبلهم فيبحثون عن الفكاك منها دائماً.

وكثيراً ما يعزلون أنفسهم لأسباب متعددة، فلا يتشبثون بكرسي أو منصب.

وهناك من يرتفع به المنصب، فإذا ما ذهب المنصب ما عاد يعرفه الناس؛ لأن مؤهلاته ومواهبه ضعيفة لم تنزله المنزل الكبير بأعين الناس.

وهناك من تذهب نفسه حسرات بفوات الحصول على المناصب، وكذا إذا ذهب منه المنصب بعدما وصل إليه.

وعند العزل من المنصب قد يكتفى بالعزل، وقد يضاف إليها عقوبات أخرى ك: الحبس أو مصادرة المال... إلخ.

ومن عزل من منصبه لسوء البطانة والحاشية الإمام العلامة قاضي القضاة جمال الدين أبو المحاسن «يوسف بن إبراهيم بن جملة بن مسلم بن تمام بن حسين بن يوسف المحجبي الدمشقي».

ولد في سنة اثنتين وثمانين وستمائة، ولي القضاء مدة سنة ونصف، وشكرت سيرته ونهضته إلا أنه وقع بينه وبين بعض خواص النائب، فعزل وسجن مدة.

وكان فاضلاً في فنون اشتغل وحصل وتميز وأفتى وأعاد ودرس، وله فضائل جمّة ومباحث وفوائد وهمة عالية، وحرمة وافرة، وفيه تودد وإحسان وقضاء للحقوق، ولي قضاء دمشق نيابة واستقلالاً، ودرس بالمدارس الكبار.

الفصل الرابع: أنواع الاضطهاد

وقال الإسنوي: كان عالماً فقيهاً بارعاً ديناً قواماً في الحق، ولي القضاء وباشر ذلك أحسن مباشرة وحاول سلوك الحق المحض بغير سياسة فنموا عليه حتى عزل وحبس»^(١).

وقال في حقه الذهبي: «أوذى قاضي القضاة ابن جملة، وقاموا عليه، وهدد، وأهين، وعزل، وحبس بالقلعة بضعة عشر شهراً. وأخذ المنصب شهاب الدين بن المجد عبد الله»^(٢).



(١) طبقات الشافعية، لابن قاضي شهبة، (٢/ ٣٠١) باختصار.

(٢) العبر، للذهبي، ٩٩/٤.



المبحث الثالث

المنع من تولي المناصب

لقد قامت دول ما بعد الاستقلال على الإقصاء لمكونات مهمة من مكونات المجتمع، وقد حاولت هذه الأنظمة بشتى الطرق منع وصول هذه الفئات إلى مناصب مؤثرة في الدولة.

فالوطنيون والإسلاميون ممن يمارسون العمل السياسي رغم أنهم أشعلوا الثورات والانتفاضات والمقاومة ضد الاحتلال إلا إنهم لم يروا ثمرة جهدهم وجهادهم، وأزيجوا عن صدارة المشهد، وامتثلت بهم السجون والمعتقلات، وزُج بالعلماء والقضاة والمفكرين والمثقفين إلى أقبية السجون.

وأصبح التعامل معهم تعاملاً أمنياً صرفاً؛ إذ لا يمر أحد إلى منصب من المناصب قبل أن يمر على الأمن لدراسة ملفه دراسة وافية شاملة، فمن ثبت أنه ينتمي إلى فكر إسلامي ما فإنه يستبعد من الوصول إلى هذا المنصب.

فلا تجد من الإسلاميين عميد كلية أو رئيس جامعة أو وزير أوقاف وشؤون دينية أو وزير ثقافة أو وزير تربية وتعليم أو وزير تعليم عالٍ أو شيخاً للأزهر... إلخ.

ومن يفلت منهم ويصل إلى منصب ما من المناصب فإنه يدخله بعد أن يخفي توجهه الفكري والسياسي، فإذا انكشفت خبيثته أزيح عن منصبه مباشرة.

اضطهاد العلماء .. أسبابه وآثاره وواجب الأمة تجاههم

وهذا من الاضطهاد الواقع على هذه الطوائف، وقد حاولت هذه الطوائف أن تتحرر من قبضة الدولة ومؤسساتها فراحت تنشئ المجامع الفقهية والجمعيات الأهلية والاتحادات والنقابات والجمعيات، كجبهة علماء الأزهر، والاتحاد العالمي لعلماء المسلمين.

فتجد في هذه الاتحادات وأمثالها علماء كبار ملأوا الدنيا علمًا وفقهًا واجتهادًا، لكنهم لا وجود لهم في أي منصب رسمي حساس أو غير حساس، بل نجدهم محاربين إعلاميًا، ويتم تشويههم والافتراء عليهم، واختلاق الأكاذيب حولهم.

بل يصل الأمر إلى حد تصنيف اتحاد علمائي كالاتحاد العالمي لعلماء المسلمين منظمة إرهابية.

إنه إرهاب كلمة الحق التي لا تريد كثير من الأنظمة سماعها، أو مجابتهم بها.

إنهم يريدون السمع والطاعة في المعصية، وغض الطرف عن المنكرات، ووضع الجهاد ضد العدو الصهيوني، وقبول التطبيع والاستسلام، بل ومباركته... إلخ.

فهو صراع قائم لم ينته بعد، ولا زالت الغلبة فيه للأنظمة التي تسيطر على المؤسسات وتجعلها رهن إشارتها وطوع بنانها؛ فكل المؤسسات تعمل على اجتثاث الإسلاميين منها.

الفصل الرابع: أنواع الاضطهاد

فالأمن يقوم بدوره في الإبعاد، والأوقاف تقوم بدورها في تكفيرهم وتشويهم، والإعلام لا يألو جهداً في تصويرهم في أشنع الصور، وإصاق كل نقيصة بهم... إلخ.

والفصل قائم على قدم وساق لكل من يثبت انتهاؤه وانتسابه للفكر الإسلامي العامل على الساحة السياسية والاقتصادية والاجتماعية... إلخ.

حُرِّموا من منابر المساجد، ومن منصات الجامعات، ومن شاشات الفضائيات... إلخ.

ورغم هذا الحرمان والإبعاد والمنع إلا أن هؤلاء الإسلاميين لهم شعبيتهم الجارفة بين العامة أكثر مما يكون لذوي المناصب والمواقع الرسمية.

وثقة العامة فيهم مطلقة، وكلمتهم مسموعة؛ فهم رؤساء بلا كراسي، وأمراء بلا إمارة.

* * *



المبحث الرابع

المنع من الإقراء والإفتاء والتدريس

ما تعلم عالم العلم ليحبسه ويكتمه ولا ينفع به الناس؛ فزكاة العلم نشره بين الناس، ولا يكون العالم عالماً إلا بتعليم الناس، ولولا التعليم والإفتاء والإقراء ما تفاضل العلماء فيما بينهم، ولا عرف المجيد من صاحب البضاعة المزجاة.

بل إن الإسلام منع من كتم العلم، وغلظ العقوبة على فاعله، فقال -صلى الله عليه وآله وسلم-: «من سئل عن علم فكتمه ألجم بلجام من نار يوم القيامة»^(١).

وقال: «من كتم علماً ألجمه الله يوم القيامة بلجام من النار»^(٢).

لكن لقول الحق ضريبة غالية، ومنها المنع من نشر العلم الذي أفاض الله به على صاحبه، فيريد أهل القوة والسلطان إسكات هذا الصوت تماماً لا بتعليم للدين، ولا برأي في السياسة وحياة الناس ومعاشهم.

(١) أخرجه أحمد في مسند أبي هريرة -رضي الله عنه-، (١٣/١٧-١٨)، ح (٧٥٧١)، وقال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على «المسند»: «إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح غير أبي كامل -وهو مظفر بن مدرك الخراساني- فقد روى له أبو داود في (التفرد) والنسائي، وهو ثقة».

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرک»، (١/١٨٢)، ح (٣٤٦) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما-، وقال: «هذا إسناد صحيح من حديث المصريين على شرط الشيخين وليس له علة»، وقال الذهبي: «على شرطها ولا علة له».

يخافون من صوت العلماء فيعملون على إخراستهم بكافة السبل والوسائل، والمنع من الإقراء والإفتاء والتدريس عقوبة -لو تعلمون- عظيمة على نفوس العلماء، لكنهم أعذروا إلى الله -تعالى- فلم يكتموا وبيّنوا.

وفي فتنة خلق القرآن في أيام المأمون أصدر مرسومًا بامتحان العلماء واحدًا واحدًا، فمن أجاب إلى القول بخلق القرآن كان مكرّمًا عندهم، ومن امتنع وقع عليه البلاء العظيم، فكان الأكثرون يجيبون إلى القول بخلق القرآن مكرهين مصانعين؛ لأن ولاية الدولة -حسب المرسوم الوارد لهم- على قول ابن كثير: «كانوا يعزلون من لا يجيب عن وظائفه، وإن كان له رزق على بيت المال قُطع، وإن كان مفتيًا مُنِع من الإفتاء، وإن كان شيخ حديث رُدع عن الإسماع والأداء، ووقعت فتنة صماء ومحنة شنعاء وداهية دهياء فلا حول ولا قوة إلا بالله»^(١).

وهذا السلاح بيد الدولة كان مصلئًا دائمًا على من خالف وعارض وامتنع عن متابعتهم؛ فهذا العز بن عبد السلام لما خالف الملك الصالح إسماعيل ولم يداهنه لما تحالف مع الفرنجة الكفار ضد المسلمين أمر بعزل ابن عبد السلام عن الخطابة واعتقاله ثم أفرج عنه، «وألزم ابن عبد السلام بملازمة داره، وألا يفتي، ولا يجتمع بأحد ألبته، فاستأذنه في صلاة الجمعة، وأن يعبر إليه طيبب أو مزين إذا احتاج إليهما، وأن يعبر الحمام، فأذن له في ذلك»^(٢).

* * *

(١) البداية والنهاية، لابن كثير، ١٠/٢٧٣.

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك، للمقرئزي، ١/٤٠٧.

المبحث الخامس

الإقامة الجبرية والمنع من السفر

للإنسان حقوق فطرية ليست منحة أو منة من أحد عليه، مثل: حرية الحركة والانتقال، لكنه في بعض الأحيان يفقد هذه الحرية وتُستلب منه.

والإنسان الطبيعي لا يلزم بيته دائماً، وإن حصل ذلك فلا يكون إلا لمرض ألم به سواء أكان مرضاً بدنياً مقعداً، أو مرضاً نفسياً يجعله يكره لقاء الناس ومخالطتهم.

فالييت إن لم تخرج منه لقضاء حاجة، أو لرؤية الناس، أو لعمل تتقوت منه... إلخ، فهو سجن بلا سجان أو قضبان.

وقد تعجب النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لعدم تعجل سيدنا يوسف من الخروج من السجن عندما جاءه الداعي، فقال: «عجبت لصبر أخي يوسف وكرمه -والله يغفر له- حيث أرسل ليستفتى في الرؤيا، ولو كنت أنا لم أفعل حتى أخرج».

وعجبت لصبره وكرمه -والله يغفر له- أتى ليخرج فلم يخرج حتى أخبرهم بعذره، ولو كنت أنا لبادرت الباب^(١).

وحتى إن اختار الإنسان العزلة عن الناس فهذا أمر باختياره، وليس مفروضاً عليه، فعلة راضياً مختاراً، ورأى فيها المصلحة، وقد يقطعه وقتاً يريد.

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير»، (٢٤٩/١١)، ح (١١٦٦٦) من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما-، وذكره الألباني في «السلسلة الصحيحة»، (٥٨٩/٤)، ح (١٩٤٥).

لكن أن يتم الأمر بأمر من سلطة عليا، ويفعله الإنسان مقهورًا، فهذا سجن مثله مثل باقي السجون، إلا أنه سجن في البيت بين الزوجة والأولاد، وهذا قد يخفف من وطأة هذا السجن.

ويستخدم أهل السلطان الإقامة الجبرية للسلطة والعلماء الذين يخشون سطوتهم ونفوذهم، وقد تنزل تلك العقوبة بهم لوقت موقوت وأجل معلوم ثم يرفع، وقد يستمر حتى وفاة من وقعت عليه العقوبة، فيظل منعزلاً عن العالم الخارجي، لا يعلم عنه شيئاً، ولا يُعلم عنه شيء، وقد يخفف عنه فيسمح له ببعض الزيارات وبعض التواصل مع العالم الخارجي.

والإمام أبو حنيفة طالته تلك العقوبة مع عقوبات أخرى، فقد «حبسه المنصور على أن يتولى القضاء ويصير قاضي القضاة فأبى حتى ضرب مائة وعشرة أسواط، وأخرج من السجن على أن يلزم الباب، فأخذ منه الكفلاء وطلب منه أن يفتي فيما يرفع إليه من الأحكام، وكان يرسل إليه المسائل، وكان لا يفتي.

فأمر أن يعاد إلى السجن، ويغلظ عليه، فأعيد وغلظ عليه وضيق عليه تضييقاً شديداً، فكلم خواص المنصور فأخرج من السجن ومنع من الفتوى والجلوس للناس والخروج من المنزل، فكانت تلك حالته إلى أن توفي»^(١).

ومن أنواع الإقامة الجبرية ما كان يسمى التسمير، وهو غلق الباب بالمسامير على صاحب العقوبة، وقد وقعت من ضمن ما وقعت على الشيخ أبي علي الحسين بن صالح بن خيران أحد أركان المذهب الشافعي، كان إماماً

(١) مناقب الإمام الأعظم، للكردي، ١٩/٢.

الفصل الرابع: أنواع الاضطهاد

زاهدًا ورعًا تقيًا نقيًا متقشفًا من كبار الأئمة ببغداد، عرض عليه القضاء فلم يتقلده، واستتر فوكل وزير المقتدر بباب داره رجاله بضعة عشر يومًا حتى احتاج إلى الماء فلم يقدر عليه إلا من عند الجيران.

قال ابن زولاق: إنه دخل بغداد سنة عشر في شوال، وشاهد باب أبي علي بن خيران مسمورًا لامتناعه من القضاء^(١).

والعالم الجزائري الكبير البشير الإبراهيمي والذي جاهد الاستعمار الفرنسي حتى استقلت الجزائر لما رأى انحرافًا من حكومات ما بعد الاستقلال عن مبادئ الثورة أصدر في ١٦ أبريل/ نيسان ١٩٦٤ م بيانًا انتقد فيه تخلي الحكومة عن المبادئ الإسلامية في عهد الرئيس أحمد بن بلة، فصدر قرار بوضعه في الإقامة الجبرية، وبقي كذلك إلى أن وافته المنية^(٢).

والحدود السياسية الآن هي سجون كبيرة للشعوب، فلا يستطيع أحد -في الغالب- الخروج منها إلا بعلم الدولة، ومن خلال المنافذ التي تحدها الدولة، وقد تمنع الدولة البعض من مغادرة أراضيها من باب التضييق عليهم، وقد لا تسجنهم وتكتفي بالمنع من السفر، وقد يكون المنع من السفر تمهيدًا للاعتقال والتقديم للمحاكمة.

* * *

(١) انظر: طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي، ٣/ ٢٧١ - ٢٧٣.

(٢) انظر: موقع موسوعة الجزيرة، البشير الإبراهيمي: <https://tinyurl.com/y34sswxm>



المبحث السادس

الجلد

ليست كل النفوس على درجة واحدة من الاستقامة؛ فمنها ما هو معوج يحتاج إلى تقويم وتأديب.

وبعض البشر تكفيهم الإشارة ولمح عين الآخرين فيعرف مقصودهم ومرادهم، وكما قال الشعراء:

العبد يقرع بالعصا	والحر تكفيه الملامة
العبد يقرع بالعصا	والحر تكفيه الإشارة
العبد يُقرعُ بالعصا	والحرُّ يكفيه الوعيدُ
العبد يُقرع بالعصا	والحرُّ تكفيه المقالة ^(١)

وليس المقصود العبد الذي يباع ويشترى؛ فكم من العبيد من رجال سادات، وكم ومن الأحرار من كانوا من ذوي الدناءة والخسة.

إنما المقصود أخلاق العبيد ولو كانوا ملوكاً متوجين، وأخلاق الأحرار ولو كانوا بالقيد مكبلين.

ومن سلطة ولي الأمر التأديب، ومن التأديب الضرب، والذي يكون عقوبة على خطأ أو كبيرة تم اقترافها، كما قال الله تعالى في حق من يقذف المحصنات: ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ

(١) البيان والتبيين، للجاحظ، ص (٤٠٩) باختصار.

اضطهاد العلماء .. أسبابه وآثاره وواجب الأمة تجاههم

فَأَجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾
[النور: ٤].

وكما كان يفعل رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فيمن يشرب الخمر؛ فعن أنس، أن النبي ﷺ كان يضرب في الخمر بالنعال والجريد أربعين^(١).

لكن بعض أولياء الأمور أساءوا استخدام هذه السلطة الممنوحة لهم، ووضعوها في غير مواضعها، وأقدموا على ضرب الأئمة الكبار، ومن هؤلاء الإمام أبو حنيفة الذي نالته ضروب متعددة من الأذى على يد ذوي السلطان؛ ف«لقد ضربه ابن هبيرة على القضاء، فأبى أن يكون قاضياً»^(٢).

«وقد روي من غير وجه أن الامام أبا حنيفة ضرب غير مرة، على أن يلي القضاء فلم يجب»^(٣).

وقال عبد الله بن المبارك: «ما رأيت أحداً أروع من أبي حنيفة، وقد جُرب بالسياط والأموال فما التفت»^(٤).

وقال داود بن راشد الواسطي: «كنت شاهداً حين عذب الإمام ليلى القضاء، كان يخرج كل يوم فيضرب عشرة أسواط حتى ضرب مائة وعشرة

(١) أخرجه مسلم في «الحدود»، باب: «حَدُّ الْحَمْرِ»، (٣/١٣٣٠)، ح (١٧٠٦).

(٢) مغاني الأخيار، للعينى، ١٣٥/٣.

(٣) سير أعلام النبلاء، للذهبي، ٤٠١/٦.

(٤) مرآة الزمان، لسبط ابن الجوزي، ٢١٣/١٢.

الفصل الرابع: أنواع الاضطهاد

أسواط، وكان يقال له: اقبل القضاء، فيقول: لا أصلح، فلما تتابع عليه الضرب قال خفياً: اللهم ادفع عني شرهم بقدرتك»^(١).

هذا كله يدل على أن السلطة كانت حانقة على الإمام الأعظم لمواقفه من الدولة العباسية، فكانت تريد أن يدخل في خدمتها لتكسب شرعية بوجود هذا الإمام في مؤسساتها، لكنه بإبائه صبت عليه السلطة جام غضبها.

ومثله حدث مع الإمام أحمد بن حنبل لما وقف في وجه السلطة لما تبنت رأي المعتزلة في الاعتقاد، وأرادت فرضه على الجميع، وقد وصف الإمام أحمد ما حدث فقال: «جلس المعتصم على كرسي، ثم قال: العقابين والسياط، فجيء بالعقابين، ولما جيء بالسياط، نظر إليها المعتصم، فقال: اتوني بغيرها، ثم قال للجلادين: تقدموا، فجعل يتقدم إليّ الرجل منهم، فيضربني سوطين، فيقول له: شد، قطع الله يدك! ثم يتنحى ويتقدم آخر، فيضربني سوطين، وهو يقول في كل ذلك: شد، قطع الله يدك! فلما ضربت سبعة عشر سوطاً، قام إلي -يعني: المعتصم- فقال: يا أحمد، علام تقتل نفسك؟ إني والله عليك لشفيق، وجعل عجيف ينخسني بقائمة سيفه، وقال: أتريد أن تغلب هؤلاء كلهم؟ وجعل بعضهم يقول: ويلك! إمامك على رأسك قائم.

وقال للجلاذ: تقدم، وأوجع، قطع الله يدك، ثم قام الثانية، وجعل يقول: ويحك يا أحمد، أجبني إلى شيء فيه أدنى فرج حتى أطلق عنك بيدي،

(١) مناقب الإمام الأعظم، للكردري، ٢٠/٢.

اضطهاد العلماء .. أسبابه وآثاره وواجب الأمة تجاههم

ثم رجع، وقال للجلاد: تقدم، فجعل يضربني سوطين ويتنحى، وهو في خلال ذلك يقول: شد، قطع الله يدك، فذهب عقلي، ثم أفقت بعد، فإذا الأقياد قد أطلقت عني»^(١).

* * *

(١) سير أعلام النبلاء، للذهبي، (١١/ ٢٥٠ - ٢٥٢) باختصار.

المبحث السابع

السجن

هناك اعتزال اختياري عن المجتمع.

وهناك عزل إجباري بتقييد الحريات، وهذا العزل قد يكون لعناصر فاسدة وجودها حرة طليقة في المجتمع يعمل على إفساده، وهذا أمر صحي سليم إذا كان في حق المجرمين والفسدة.

لكن أن يتم العزل بالسجن وتقييد الحريات في حق مشاعل الهداية، فهذا خطيئة يرتكبها أولياء الأمور.

وهم يفعلون ذلك لأنهم يرون العلماء المخالفين لهم أشد إفساداً لنظامهم وحكمهم من عتاة المجرمين.

لذلك قد تجد حراس السجون يتعاملون مع عتاة المجرمين باللين والخوف منهم، لكنهم مع العلماء والمخالفين للدولة سياسياً والمعارضين لها قساة غلاظ يضيقون عليهم ما استطاعوا لذلك سبيلاً، حتى يكسروا نفوسهم، فيرجعوا عن آرائهم ومواقفهم المناوئة للدولة.

والسجن تفاوت درجاته، فأقساه الحبس الانفرادي، ودونه أن تكون مع مجرمين، وكلما وجدت صحبة طيبة تخف الوطأة، وإذا كانت زيارة الأهل متاحة هان الأمر بعض الشيء.

لكنه في النهاية يبقى سجن.

وعقوبة السجن قديمة جدًا في المجتمعات البشرية، وقد ذكرها الله تعالى في القرآن حينما ذكر الظلم الذي وقع على سيدنا يوسف -عليه السلام- وتهديده بالسجن من قبل امرأة العزيز حينما قالت: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَأْمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢].

وقد تمنى يوسف الصديق السجن فرارًا مما هو فيه فقال: ﴿رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣].

لكنه لم يطق الأمر لما ذاقه فطلب من الناجي طلبًا قائلاً له: ﴿أَذْكُرُنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢].

لكنه تعلم الدرس بطلبه التفریح من غير الله، فلم يسرع للخروج من السجن لما جاءه الداعي حتى تظهر براءته.

وعلى مر العصور الإسلامية من قديمها لحديثها ذاق كثير من العلماء مرارة السجن نتيجة لمواقفهم من السلطة، أو لحسد من أقرانهم؛ حتى إن بعضهم مات في السجن، قال الفقيه أبو عبد الله الصيمري عن الإمام الأعظم: «لم يقبل العهد بالقضاء، فضرب وحبس، ومات في السجن»^(١).

ومنهم ابن تيمية كذلك، قال ابن كثير: «والشيخ تقي الدين بن تيمية -رحمه الله- توفي ببلدة دمشق وأهلها لا يعشرون أهل بغداد حينئذ كثيرة،

(١) سير أعلام النبلاء، للذهبي، ٤٠٢/٦.

الفصل الرابع: أنواع الاضطهاد

ولكنهم اجتمعوا لجنازته اجتماعاً لو جمعهم سلطان قاهر وديوان حاصر لما بلغوا هذه الكثرة التي اجتمعوها في جنازته وانتهوا إليها.

هذا مع أن الرجل مات بالقلعة محبوساً من جهة السلطان، وكثير من الفقهاء والفقراء يذكرون عنه للناس أشياء كثيرة مما ينفر منها طباع أهل الأديان فضلاً عن أهل الإسلام، وهذه كانت جنازته^(١).

لكن السجن لم يجس الفكر يوماً، ولم يحجب مزية العلماء العاملين وأفضالهم، فخلد ذكرهم في العالمين، وخمل ذكر ساجنيهم، وباءوا بالخسران والبوار.

وبعض الأنظمة الخسيصة عندما لا تجد من تبحث عنه من العلماء، أو يكون بعيداً عنها تؤذيه في أهله فتأخذهم كرهائن أو أسرى أو كأوراق للضغط عليه، مثلما سجن النظام المصري الانقلابي بنت العلامة القرضاوي بلا جريرة اقترفتها إلا إنها ابنة الشيخ القرضاوي، وهي كبيرة في السن وجدة، ولم يشفع لها ذلك، بل تذوق العذاب انتقاماً من أبيها في شخصها.

* * *

(١) البداية والنهاية، ١٤ / ١٣٨.



المبحث الثامن

النفي

يجب الإنسان وطنه لما له فيه من ذكريات، ولأن فيه أهله وأصوله وفروعه، وبه أصدقاؤه وأحابه.

فالمرء لا يحب الديار لذاتها، بل يحبها لمن سكنها وحفروا في ذاكرته أحداثاً لا يمحوها الزمن.

قال مجنون ليلي:

وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

والإخراج من الديار عقوبة ثقيلة على النفوس؛ حيث يذهب الإنسان إلى ناس غير الناس، وطباع غير الطباع، وألسنة غير اللسان، البيئة الجديدة تسبب للمرء صدمة، ويأخذ ردحاً من الزمن حتى يتأقلم عليها، ويعرف كيف يتعامل معها.

ولو خرج الإنسان بأهله لهون ذلك بعض الشيء، ولكن أن يخرج وحده بلا أنيس أو جليس فهذه عقوبة مضاعفة.

وكان من مكر الكافرين بالنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - تفكيرهم في أن يخرجوه من بلده، لكنهم استقروا على قتله، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: ٣٠].

فأنجاه الله من القتل وأمره بالخروج، فخرج بأصحابه إلى أنصار فتحوا لهم ديارهم وأووهم ونصروهم، لذا كانت مرارة الغربة مخففة، ورغم ذلك كان أبو بكر الصديق يتألم حرقة على بعده عن مكة، عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أَمَّا قَالَتْ: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ وَعِكَ أَبُو بَكْرٍ وَبِلَالٌ. قَالَتْ: فَدَخَلْتُ عَلَيْهِمَا، فَقُلْتُ: يَا أَبَتِ كَيْفَ تَجِدُكَ؟ وَيَا بِلَالُ كَيْفَ تَجِدُكَ؟.

قَالَتْ: فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ إِذَا أَخَذَتْهُ الْحُمَّى يَقُولُ:
كُلُّ امْرِيٍّ مُصَبِّحٌ فِي أَهْلِهِ وَالْمَوْتُ أَدْنَى مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ
وَكَانَ بِلَالٌ إِذَا أَقْلَعَ عَنْهُ الْحُمَّى يَرْفَعُ عَقِيرَتَهُ وَيَقُولُ:
أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبَيْتَنَّا لَيْلَةً بِوَادٍ وَحَوْلِي إِذْ خَرُّ وَجَلِيلُ
وَهَلْ أَرَدْنَا يَوْمًا مِيَاهَ مَجَنَّةٍ وَهَلْ يَبْدُونَ لِي شَامَةً وَطَفِيلُ

قَالَتْ عَائِشَةُ: فَجِئْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ، وَصَحِّحْهَا وَبَارِكْ لَنَا فِي صَاعِهَا وَمُدِّهَا، وَانْقُلْ حَمَاهَا فَاجْعَلْهَا بِالْجُحْفَةِ»^(١).

وفي الإسلام كان التغريب عقوبة للزاني الذي لم يحصن، فيجلد ثم يغرب عاماً.

(١) أخرجه البخاري في «مناقب الأنصار»، باب: «مقدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة»، (٦٦/٥)، ح (٣٩٢٦).

الفصل الرابع: أنواع الاضطهاد

وقد جرت عقوبة النفي والإخراج على كثير من العلماء لمخالفتهم السلطة السياسية القائمة، أو لسعي الحساد -الذين لم يطبقوا وجود هؤلاء العلماء- عند الحكام حتى يخلو لهم البلد، وحتى لا يفقدوا سطوتهم على العامة وقربهم من الحكام.

ومن هؤلاء دعامة بن دعامة السدوسي عالم أهل البصرة؛ فقد ضرب ونُفي، حتى إن ما وقع له جعل الناس يخافون، قال عمر بن حبيب: «لما ضرب قتادة وسُيِّر قيل للحسن: إن قتادة قد ضرب وسُيِّر، يعني: نُفي، قال: فأمسك ولم يرد شيئاً، فلما أكثروا عليه قال: لا عليكم؛ لا يخلو مؤمن من منافق يؤذيه»^(١).

وكذا ابن تيمية الذي طالته صنوف شتى من العقوبات، لكنه حاول أن يتسامى على كل آلامه حتى لا يعطي أي فرصة للشامتين ليشمتوا فيه، فكان يقول: «ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري إن رحمت فهي معي لا تفارقني، إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة»^(٢).

ومنهم -أيضاً- الإمام المحدث المحقق، المؤرخ، حافظ عصره عبد الغني بن عبد الواحد بن علي الجماعيلي المقدسي، كان «يقرأ الحديث في رواق الحنابلة من مسجد دمشق الأموي، فاجتمع الناس عليه، وكان رقيق القلب سريع الدمعة، فحصل له قبول من الناس عظيم، ثم ضيق عليه

(١) المحزن، لأبي العرب التميمي، ص ٢٦٣.

(٢) الوابل الصيب، لابن قيم الجوزية، ص ٦٧.

البعض، فرحل إلى بعلبك، ومنها إلى مصر، فنزل عند الطحانين، وصار يقرأ الحديث، فنفق بها سوقه، وصار له حشد وأصحاب، فثار عليه الفقهاء بمصر -أيضاً، وكتبوا إلى الوزير صفى الدين بن شكر فأقرّ نفيه إلى المغرب، غير أن الحافظ عبد الغني مات قبل وصول كتاب النفي إليه^(١).

ومنهم محمد بن علي بن حسين العمراني الصنعاني، والذي كان عالماً بالحديث، ومؤرخاً لعلماء عصره، لما عظمت مكاتته، تمالأ «عليه الحساد، فاعتقل، وكاد يعرض على السيف، ثم نفي إلى زبيد سنة ١٢٥٠هـ، وهاجر إلى مكة فأقام ثلاث سنوات، واستدعاه الشريف حسين بن علي بن حيدر صاحب أبي عريش (باليمن) وبالغ في إكرامه، فمكث نحو سنتين، ورحل إلى زبيد، فلما دخلتها الباطنية هاجم بعضهم داره فقتلوه»^(٢).

وكان النفي من الأسلحة التي حارب بها المستعمرون أهل العلم والعمل والثورة الذين كانوا يقاومون الاحتلال البغيض باللسان والسنان، بالأقلام والبارود.

ومن هؤلاء الذين طاهم النفي العالم الجزائري الحر البشير الإبراهيمي الذي نفتته السلطات الفرنسية عام ١٩٤٠م إلى منطقة أفلو بالجنوب الغربي للجزائر، وكان في ذلك الوقت نائباً لجمعية علماء المسلمين الجزائريين التي أسست عام ١٩٣١م.

(١) شذرات الذهب، لابن العماد الحنبلي، ١/ ٥٠.

(٢) الأعلام، للزركلي، ٦/ ٢٩٨.

الفصل الرابع: أنواع الاضطهاد

وبعد أسبوع من نفيه مات العالم عبد الحميد بن باديس رئيس الجمعية، فتم انتخاب الإبراهيمي رئيسًا للجمعية، وتولى رئاستها عن بُعد وهو في منفاه لمدة ثلاث سنوات، إلى حين تم إطلاق سراحه عام ١٩٤٣ م^(١).

* * *

(١) انظر: موقع موسوعة الجزيرة، البشير الإبراهيمي: <https://tinyurl.com/y34sswxm>



المبحث التاسع

القتل

يسعى بعض الحكام لتثبيت حكمهم بالإيغال في الدماء، فيبني ملكه على جماجم خصومه وأعدائه، ويظن أن الملك قد صفا له كلما تخلص من عدو من أعدائه.

وقد يشترك بعض العلماء في الثورات ضد الحكام الظلمة، وقد تبوء هذه الثورات بالفشل، فيكون هؤلاء العلماء قد سلموا رقابهم لجلادهم.

وقد يعارض بعض العلماء سياسات بعض الحكام، وتكون هذه المعارضة بلا موارد أو تجمل، فيكون حنق الحكام شديداً على هؤلاء، فيصل الأمر إلى الإيعاز بالقتل سرّاً لإسكات هذا الصوت، أو تلفيق بعض الاتهامات الباطلة لهؤلاء العلماء وإقامة محاكمة هزلية تسفر عن حكم بإعدام هؤلاء العلماء.

إن كلمة الحق الصادرة من العلماء الأثبات تزلزل عروش الظلمة، إن الكلمة تخيف الظلمة؛ لأنها تنبه الغافل وتوقظ الوسنان.

وعماد ملك الظلمة يقوم على التخويف والتجهيل، فإذا كسر عالم من العلماء حاجز الخوف ونشر بين الناس العلم، فقد هدم عماد ملك الظلمة.

وهناك أثران يتحدثان عن زمن يكثر فيه قتل العلماء، فعن ابن عباس،

أن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قال: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَقْتُلُ فِيهِ الْعُلَمَاءُ كَمَا يَقْتُلُ الْكِلَابُ، فَيَاكُتِبُ الْعُلَمَاءُ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ تَحَامِقُوا»^(١).

وعن الوضين بن عطاء، عمن حدثه قال: قال رسول الله ﷺ: «لِيَأْتِينَ عَلَى الْعُلَمَاءِ زَمَانٌ يَقْتُلُونَ فِيهِ كَمَا يَقْتُلُ اللَّصُوصُ، فَيَا لَيْتَ الْعُلَمَاءَ يَوْمَئِذٍ تَحَامِقُوا»^(٢).

وطرق القتل تتعدد فمرة بالسم، وأخرى بالسيف، وبعضها بالإحراق، وأحياناً بالرصاص والبارود، وكذا بالإعدام شنقاً وخنقاً... إلخ. وقد يهلك العالم بسبب الضرب الذي ناله.

وقد يقع القتل على يد العامة كما حدث للإمام النسائي كما أسلفنا ذكره. وشهداء العلماء كثيرون، ومنهم الإمام الأعظم أبو حنيفة الذي قيل: إن السلطة قد قتلت، فقد قال داود بن راشد الواسطي: «كنت شاهداً حين عذب الإمام ليلى القضاء، كان يخرج كل يوم فيضرب عشرة أسواط حتى ضرب مائة وعشرة أسواط، وكان يقال له: اقبل القضاء، فيقول: لا أصلح، فلما تتابع عليه الضرب قال خفياً: اللهم ادفع عني شرهم بقدرتك، فلما أبى دسوا عليه السم فقتلوه»^(٣).

(١) أخرجه الديلمي في «مسند الفردوس» (٤٣٩/٥)، ح (١٦٧١).

(٢) أخرجه أبو عمرو الداني في «السنن الواردة في الفتن» (٦٦١/٣)، ح (٣٠٢).

(٣) مناقب الإمام الأعظم، للكردري، ٢/٢٠.

الفصل الرابع: أنواع الاضطهاد

وقيل: «كان الإمام عند المنصور فدس إليه رجلاً يسأله، فقال: إن أمير المؤمنين يأمرني أن أقتل رجلاً فأقتله، هل علي في ذلك تبعة؟».

قال: أمير المؤمنين يأمرك أن تقتله بغير حق!.

قال: لا.

قال: ما يمنعك من القتل بحق؟.

قال: فدفعت إليه قدحاً فيه سم ليشربه، فأبى وقال: لا أشرب؛ لأنني أعلم ما فيه، ولا أعين على قتل نفسي، فطرحة وصبّ في فمه.

فجاء إلى المنزل الذي كان ينزل فيه ببغداد فلم يلبث إلا قليلاً حتى مات^(١).

ومن العائلات العريقة في العلم التي ابتليت بالقتل عن طريق الإحراق والتدخين عليهم بنو الحكم بمصر، فقد «دُخِّن على عبد الله بن عبد الحكم بالكبريت حتى قتلوه في المحنة».

وأخذوا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم فأدخلوا الكبريت تحت ثيابه وأقعدوا على جانب ثيابه قوماً، فأخذت النار في ثياب محمد بن عبد الله فتنحوا عنه، فهرب محمد بن عبد الله فدخل دار امرأة، فقالت له: ادخل؛ فإني سمعت أبي يقول: المحنة أكثر من القراصة، يعني: المذهب.

(١) مناقب الإمام الأعظم، للكردري، ٢٠/٢.

اضطهاد العلماء .. أسبابه وآثاره وواجب الأمة تجاههم

قال أبو العرب: وحدثني محمد بن عمر أو غيره، أن القاسم بن عبد الله ابن الحكم عُلّق ودُخِن تحتَه حتى مات، وكان ذلك في أيام أحمد بن أبي دؤاد^(١).

وسُنة القتل في العلماء قائمة في كل عصر ومصر، ففي العصر الحديث تم قتل الأستاذ حسن البنا بالرصاص، وأقدمت حكومة انقلاب ٥٢ على شق الأستاذ سيد قطب، ولا زال الجبل على الجرار.

* * *

(١) المحن، لأبي العرب التميمي، ص ٢١٨.

المبحث العاشر

مصادرة الأموال والأموال

تزداد حاجة الإنسان إلى غيره كلما اعتمد عليهم في مال أو غيره.
ومن استقلالية العالم ألا يعتمد في رزقه على الدولة؛ حتى يتمكن من قول كلمته، ولا يخشى قطع العطاء أو الأرزاق.
وكثير من العلماء احترفوا المهنة؛ فهذا العطار، وذاك البزاز... إلخ.
والمال والثروة من أعمدة القوة، وبتجريد الإنسان منها يفقد الكثير من أوراق القوة التي كان يلعب بها.
ومصادرة الأموال واستصفاؤها من قبل الأنظمة في الساسة أكثر منها في العلماء؛ إذ إن الساسة ينازعون أهل الملك ملكهم، ولكن العلماء لا ينازعون على الملك، إنما يريدون تقويمه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.
هذا في القديم حسبما رأيت ووقفت عليه.
لكن الآن انخرط كثير من العلماء في جماعات إسلامية تمارس العمل السياسي، فأصبحت المصادرة تطال الكل: السياسي والعالم على السواء.
ومن الأمثلة على مصادرة الأموال في القديم النكبة التي حلت ببني الحكم على يد قاض ظالم، تابع ففي ترجمة أبي عثمان عبد الحكم بن عبد الله بن عبد الحكم بن أعين الفقيه قال الذهبي: «كان فقيهاً صالحاً عالماً، ولد سنة ثمانين ومائة، وسجن وعذب عذاباً شديداً».

قال أبو سعيد بن يونس: عذب في السجن ودخن عليه، فمات في جمادى الآخرة سنة سبع وثلاثين لكونه اتهم بoudائع لعلي بن الجروي.

وقيل: إن بني عبد الحكم ألزموا في نوبة ابن جروي بأكثر من ألف ألف دينار. واستُصفيت أموالهم وأموال أصحابهم، ونُهبت منازلهم.

ثم بعد مدة ورد كتاب المتوكل بإخراج من بقي منهم في السجن، ورد إليهم أموالهم أو بعضها، وسجن القاضي الأصم الذي تعصب عليهم، وحلقت لحيته، وضرب بالسياط، وطيف به على حمار. وكان من كبار الجهمية.

وقال يحيى بن عثمان بن صالح: أحضر بنو عبد الحكم شهوداً بأن ابن جروي أبرأهم، فأحضر وكيل ابن الجروي شهوداً بخلاف ذلك، حتى كاد أن تكون فتنة. وبعث المتوكل مستخرجاً للمال، ومعه عبد الله ولد ابن الجروي، فحكّم على بني عبد الحكم بألف ألف دينار وأربعمائة ألف وأربعة آلاف دينار^(١).

وبعد الانقلاب بمصر في ٢٠١٣م جرت النكبات والمحن على العلماء بمصادرة الأموال والأملاك والوضع على قوائم الإرهاب، واستحلال الشرطة لأموال الذين يذهبون للقبض عليهم فيأخذون كل غال ونفيس من المجوهرات والذهب والفضة والأموال.

* * *

(١) تاريخ الإسلام، للذهبي، (٥/ ٨٦١) باختصار.

المبحث الحادي عشر

تأليب العامة

إن انحياز الحكام الظلمة دائماً ما يكون لأصحاب القوة الذين يخشاهم على حكمه، والذين أتوا به إلى سدة الحكم، أما العامة فلا يخشاهم، بل يستخدمهم في صراعاته ويرجح بهم كفته على غيره من منافسيه، وإذا ثاروا نكّل بهم وأذاقهم العذاب ألواناً، وتكون دائماً بينه وبينهم قطيعة وجفوة، يخافونه ولا يحبونه، يملك أجسادهم ولا يملك قلوبهم.

أما العلماء فهم في الغالب يخرجون من بين العامة، ومنهم المريدون والأتباع، من أحبوه من العلماء رفعوه فوق رؤوسهم، ومن أبغضوه لم يتركوا نقيصة إلا واتهموه بها.

والعلماء يملكون قلوب العامة، يستطيعون تثويرهم أو تنويمهم.

والعامة سيف ودرع العلماء الخشبي؛ فهم قوة لكن سلاح الأنظمة وجنودهم أقوى منهم.

وعندما يغضب الحكام على بعض العلماء فإنهم يجتهدون في تفريق العامة عن هؤلاء العلماء، فتنتلق الألسنة التابعة لهم ناشرة الطعون والأكاذيب في حق هؤلاء العلماء حتى ينفذ العامة من حولهم فيتمكن الحكام من إنزال العقوبات التي يريدونها بحق هؤلاء العلماء.

انظر لهذا الكلام من الحافظ ابن حجر عن ابن حزم: «وكان لا يخلو في فنونه من غلط لجرأته في السؤال على كل فن.

ومال أولاً إلى قول الشافعي وناضل عنه حتى نسب إلى الشذوذ، واستهدف لكثير من فقهاء عصره.

ثم عدل إلى الظاهر فجادل عنه.

ولم يكن يلفظ في صدعه بما عنده بتعريض ولا تدريح، بل يصك به معارضه صك الجنادل، وينسفه في أنفه إنساف الخردل، فتملاً عليه فقهاء عصره، وأجمعوا على تضليله، وشنَّعوا عليه، وحذروا أكابرهم من قبيله، ونهوا عوامهم عن الاقتراب منه، فطفقوا يعصونه، وهو مصرٌّ على طريقته»^(١).

وفي نفس السياق تكلم ابن خلكان فقال: «وكان كثير الوقوع في العلماء المتقدمين، لا يكاد يسلم أحد من لسانه، فنفرت عنه القلوب، واستهدف لفقهاء وقته، فتملاًوا على بغضه، وردوا قوله، وأجمعوا على تضليله، وشنَّعوا عليه، وحذروا سلاطينهم من فتنته، ونهوا عوامهم عن الدنو إليه والأخذ منه، فأقصته الملوك وشردته عن بلاده»^(٢).

وفي هذه الأيام لعب الإعلام دوراً هاماً في نشر علم العلماء، والتعريف بهم، لكنه على الطرف الآخر كان لعبة في أيدي الأنظمة الراجبة في تشويه

(١) لسان الميزان، لابن حجر، (٤/٢٠٠).

(٢) وفيات الأعيان، لابن خلكان، (٣/٣٢٧-٣٢٨).

الفصل الرابع: أنواع الاضطهاد

بعض العلماء، وتأليب العامة عليهم، والإعلام يسحر عقول العامة وألبابهم فتصدق كل ما يبثه الإعلام أو معظمه، وينطلقون يرددون هذه الأكاذيب والطعون، وتنطبق هذه الصورة أكثر ما تنطبق على الدكتور العلامة يوسف القرضاوي الذي يشوه صورته الإعلام المصري وبعض وسائل الإعلام الخليجية، كل ذلك لأنه ناصر الثورات العربية، ووقف ضد ظلم الحكام.

* * *



المبحث الثاني عشر

التشهير

العلماء ملوك القلوب، وهيتهم في النفوس راسخة، ألقاها الله عليهم لما بذلوه من تنوير وتبصير وتعليم للخلق، وللخشية التي امتلأت بها قلوبهم من الله تعالى.

لكن الحكام لا يريدون أن يشاركهم أحد عند العامة؛ لأنه إن شاركهم أحد عند العامة كانت سلطتهم منقوصة؛ فهم يريدون أن يكون الأمر أمرهم والرأي رأيهم، لكن أن يرى غيرهم رأياً غير رأيهم ويحرض العامة عليهم، أو على الأقل يرى العامة اعتراضه فيستنون بسنته، فهذا مدعاة لخوفهم على ملكهم وسلطانهم.

ويستخدم الحكام عقوبة التشهير لكسر هيبة العالم في القلوب، وليكون عبرة لغيره، فإذا كان الحكام قد فعلوا ذلك بالسيادة الكبار فماذا سيكون مصير سائر العوام إن سلكوا نفس الدرب، وانتهجوا نفس النهج.

وقد استخدمت هذه العقوبة باكرًا في الدولة الإسلامية؛ إذ استخدمها عمال بني أمية ضد المخالفين لهم.

وممن استخدمت ضده تلك العقوبة سعيد بن المسيب، هذا التابعي الكبير، والسبب كما قال الواقدي: «إن عبد العزيز بن مروان توفي بمصر سنة أربع وثمانين، فعقد عبد الملك لابنيه: الوليد وسليمان بالعهد، وكتب

اضطهاد العلماء .. أسبابه وآثاره وواجب الأمة تجاههم

بالبيعة لهما إلى البلدان، وعامله يومئذ على المدينة هشام بن إسماعيل المخزومي، فدعا الناس إلى البيعة، فبايعوا، وأبى سعيد بن المسيب أن يبايع لهما وقال: حتى أنظر، فضربه هشام ستين سوطاً، وطاف به في تبان من شعر، حتى بلغ به رأس الشية، فلما كروا به قال: أين تكرون بي؟ قالوا: إلى السجن.

فقال: والله لولا أني ظننته الصلب، ما لبست هذا التبان أبداً.

فردوه إلى السجن، فحبسه وكتب إلى عبد الملك يخبره بخلافه.

فكتب إليه عبد الملك يلومه فيما صنع به ويقول: سعيد، كان والله أحوج إلى أن تصل رحمه من أن تضربه، وإنا لنعلم ما عنده خلاف.

ودخل قبيصة بن ذؤيب على عبد الملك بكتاب هشام بن إسماعيل يذكر أنه ضرب سعيداً وطاف به.

قال قبيصة: يا أمير المؤمنين، يفتات عليك هشام بمثل هذا، والله لا يكون سعيد أبداً أمحل ولا ألج منه حين يضرب، لو لم يبايع سعيد ما كان يكون منه، وما هو ممن يخاف فتقه، يا أمير المؤمنين اكتب إليه.

فقال عبد الملك: اكتب أنت إليه عني تخبره برأبي فيه، وما خالفني من ضرب هشام إياه.

فكتب قبيصة بذلك إلى سعيد.

فقال سعيد حين قرأ الكتاب: الله بيني وبين من ظلمني.

الفصل الرابع: أنواع الاضطهاد

وقال عبد الله بن يزيد الهذلي: دخلت على سعيد بن المسيب السجين فإذا هو قد ذبحت له شاة، فجعل الإهاب على ظهره، ثم جعلوا له بعد ذلك قضباً رطباً، وكان كلما نظر إلى عضديه قال: اللهم انصرني من هشام.

وقال عمران بن عبد الله الخزاعي: دعي سعيد بن المسيب للوليد وسليمان بعد أبيهما فقال: لا أبايع اثنين ما اختلف الليل والنهار.

فقييل: ادخل واخرج من الباب الآخر.

قال: والله لا يقتدي بي أحد من الناس.

قال: فجلده مائة وألبسه المسوح.

وقال عبد الرحمن بن عبد القاري لسعيد بن المسيب حين قامت البيعة للوليد وسليمان بالمدينة: إني مشير عليك بخصال. قال: ما هن؟ قال: تعتزل مقامك؛ فإنك تقوم حيث يراك هشام بن إسماعيل. قال: ما كنت لأغير مقاماً قمته منذ أربعين سنة.

قال: تخرج معتمراً.

قال: ما كنت لأنفق مالي وأجهد بدني في شيء ليس لي فيه نية، قال: فما الثالثة؟ قال: تبايع. قال: رأيت إن كان الله أعمى قلبك كما أعمى بصرك فما علي؟.

فدعاه هشام بن إسماعيل إلى البيعة، فأبى، فكتب فيه إلى عبد الملك.

فكتب إليه عبد الملك: ما لك ولسعيد، ما كان علينا منه شيء نكرهه،
فأما إذ فعلت فاضربه ثلاثين سوطاً وألبسه تبان شعر، وأوقفه للناس لئلا
يقتدي به الناس»^(١).

فهذا العامل لبني أمية كان أشد على الناس من أصحاب الأمر، وكما
نقول الآن: كان ملكياً أكثر من الملك.

وما حدث مع سعيد بن المسيب في عصر بني أمية حصل مع أبي حنيفة
في عصر بني العباس، قال المتوكل بن شداد: «لما أبى الإمام القضاء كان يخرج
كل يوم فينادى عليه، ويجتمع الناس حتى ضرب مائة وعشرين سوطاً في
اثني عشر يوماً، وطيف به في السوق»^(٢).

وابن قيم الجوزية بسبب نصرته لشيخه ابن تيمية ناله هذا الأذى، قال
ابن حجر: «كان له حظ عند الأمراء المصريين، واعتقل مع ابن تيمية بالقلعة
بعد أن أهين وطيف به على جمل مضر وباً بالدرّة، فلما مات أفرج عنه»^(٣).



(١) سير أعلام النبلاء، للذهبي، (٤/ ٢٣٠ - ٢٣١) باختصار وتصرف.

(٢) مناقب الإمام الأعظم، للكردي، ٢/ ٢٠.

(٣) الدرر الكامنة، لابن حجر، ٥/ ١٣٨.

المبحث الثالث عشر

حرق الكتب ومنع نشرها

إن الكلمة المكتوبة يبقى أثرها أمادًا طويلة، على العكس من الكلمة الشفوية التي يبقى تأثيرها ما تناقلها الناس، فإذا ما نسيها الناس راح أثرها. وكثير من العلماء لم يهتموا بالتأليف فاندثر اسمهم وانمحي مع وفاتهم أو بعد وفاتهم بفترة.

وقد قيل:

العلم صيد والكتابة قيده قيّد صيودك بالحبال الوثيقة

وقيل:

وما من كاتب إلا سيبل ويبقى الدهر ما كتبت يده
فلا تكتب بكفك غير شيء يسرك في القيامة أن تراه

ونستطيع أن نحكم على العالم بما تركه من آثار ولو بعد مئات السنين.

وهذه الآثار إن كانت خالصة لله -تعالى- فإنها تدخل تحت قول رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية وعلم ينتفع به وولد صالح يدعوله»^(١).

(١) أخرجه الترمذي في «الأحكام»، باب: «في الوُفِّ» (٣/٦٥١)، ح (١٣٧٦)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وقال الألباني في «صحيح سنن الترمذي»، (٢/٩٣): «صحيح».

ووفرة التأليف ورواج النشر وكثرة القراء كلها دلائل على العظمة الحضارية، وتتكس الحضارة إذا حورب الكاتب والكتاب.

ومن يُقدم على أمر إحراق الكتب قد يكون دافعه عقائدياً أو سياسياً أو تعصباً وغيره وحسدًا.

ومن جرت له هذه المصيبة «محمد بن عبد الله بن عتاب أبو عبد الله، يعرف بابن المقرئ، من أهل الإسكندرية، كان فقيهاً مالكيًا من خيار المسلمين، ثقة مأمونًا، وكان بنو عبيد ضربوه وردوه على السنة وأحرقوا كتبه»^(١).

وكذا ابن حزم على جلاله قدره وعلو شأنه؛ فقد «تعصب عليه فقهاء المالكية بأمراء تلك الديار فمقتوه وأذوه وطردهوه وحرقوا كتبه علانية، وله في ذلك شعر:

فإن يحرقوا القرطاس لا يحرقوا الذي ... تضمنه القرطاس بل هو في صدري»^(٢)

وقد أُحرق كتاب «إحياء علوم الدين» للغزالي بالأندلس، يقول ابن القطان: «في أول عام ثلاثة وخمسة عزم علي بن يوسف - عن إجماع قاضي قرطبة أبي عبد الله محمد بن علي بن حمدين وفقهائها- على إحراق كتاب

(١) ترتيب المدارك، (٧/ ٩٠) باختصار.

(٢) لسان الميزان، لابن حجر، ٤/ ٢٠٠.

الفصل الرابع: أنواع الاضطهاد

أبي حامد الغزالي - رحمه الله تعالى - المسمى بـ(الإحياء)، فأحرق في رحبة مسجدها على الباب الغربي على هيئته بجلوده بعد إشباعه زيتاً، وحضر لذلك جماعة من أعيان الناس، ونفذت كتبه إلى جميع بلاده آمراً بإحراقه حيثما وجد، وأخذت منه نسخ من أيدي أصحابها كان معول الغزالية عليها، منها كتاب ميمون بن ياسين توعدده علي بن يوسف على إحضاره، فأحضره له، وفقد الكتاب المذكور، ومنها كتاب ابن العربي حمله مع نفسه إلى الجزيرة الخضراء، ثم أمر بحله في الماء، فحل معظمه وفقد سائره، وتوالى الإحراق على ما اشتري منه ببلاد المغرب بقية ذلك العام^(١).

وفي العصر الحديث كثرت مسألة مصادرة الكتب ومنع نشرها، لكن هذا لم يمنع تلك الكتب من الذيوع والانتشار، والتسرب رغماً عن أنف السلطات المانعة أو المصادرة، ومن هؤلاء الأستاذ سيد قطب، وبعد انقلاب ٢٠١٣م تم منع كتب العلامة القرضاوي من التداول بمصر.

* * *

(١) نظم الجمان، لابن القطان، ص ٧٠-٧١.



المبحث الرابع عشر تأليب علماء السلطان

علماء السلطان لا يصدرن في أعمالهم إلا بما يرضي السلطان ويوافق هواه، يدورون مع رأيه وهواه حيثما دار؛ فإن رفع أحدًا بالغوا في رفعه وإن كانوا له كارهين، وإن غضب على أحد كانوا سيفه الذي يقطع به. يحسدون أهل الحق لمكانتهم عند الناس ويتملؤون عليهم؛ لأنهم وصلوا لمكانتهم بالتزلف والنفاق وشراء المناصب والذمم. لا يتورعون عن ظلم أحد، أو قبول الافتئات عليه. وهؤلاء يبررون للحاكم أفعاله الجائرة، ويلبسون عليها رداء الشريعة والشرعية.

وإن كان الحاكم يتحرى العدل، أظهروا العدل إذا علموا بمتابعة الحاكم لهم، ويديرون ظهورهم للعدل إن غفل عنهم الحاكم ولو للحظة واحدة. يحكي ابن حجر أن الشهاب بن خضر الدمشقي الحنفي سعى «في» تدريس الركنية عند الهمام بن القوام قاضي الحنفية يومئذ عوضًا عن القاضي صدر الدين بن منصور، وحكم بفسقه تهورًا، فقام عليه حنفية دمشق ورفعوا الأمر للنائب وأثنوا على القاضي صدر الدين، فرسم بعقد مجلس فعقد وانفصل الأمر على إبطال حكم الهمام، وأعيد صدر الدين إلى وظيفته، وكانت هذه الفعلة من عجائب تهور الهمام»^(١).

(١) إنباء الغمر، لابن حجر، ٢١٦/١.

اضطهاد العلماء.. أسبابه وآثاره وواجب الأمة تجاههم

وهذا جمال الدين يوسف بن إبراهيم بن جملة «ولي القضاء بعد العلم الأحنائي في شهر ربيع الأول سنة ٧٣٣ فباشره بصلف ونزاهة وعزة وصيانة، وكان شديد المعارضة في البحث فصيحاً بليغاً، ولم يزل على ذلك إلى أن غضب عليه تنكز فعقد له مجلس في رمضان سنة ٧٣٤ فتعصبوا عليه وحكم المالكى بفسقه فسجنه بالقلعة.

قال الأسنوي: كان فقيهاً بارعاً ديناً قوياً قواماً بالحق، ولما ولي القضاء حاول سلوك الحق المحض بغير سياسة فتعصبوا عليه حتى عزل وحبس»^(١).

* * *

(١) الدرر الكامنة، لابن حجر، (٦/ ٢١٤-٢١٥) باختصار.

المبحث الخامس عشر

تلفيق القضايا

أن يفترى على الناس بالباطل أهل الدعارة والزعارة فهذا أمر مستساغ؛ إذ كل إناء بما فيه ينضح.

لكن أن يأتي تلفيق القضايا والافتراء من أهل العلم والسياسة، فهذا أمر مستشنع مستهجن، فماذا تركوا لأهل الدعارة والزعارة؟

وإنه في غمار الصراعات السياسية ومحاولة الوصول للمناصب والنفوذ يستحل الكثيرون الحرام الصراح الذي لا شبهة فيه ولا تأويل.

هم يبررون ويتأولون للتخفيف من سوء أفعالهم، لكن من يرى الحق ولا يماري فيه يعلم علم اليقين أنهم انحرفوا عن الصراط المستقيم، ووقعوا في حُفْرٍ من النيران، ولا ينجيهم منها إلا أن يردوا المظالم، ويطلبوا العفو والصفح والغفران ممن ظلموهم.

فهذا القاضي شهاب الدين أحمد بن ناصر بن خليفة المقدسي الناصري الباعوني «انضبطت الأوقاف في أيامه، وحصل الفقهاء مالا كانوا لا يصلون إليه قبله، وقعت له أمور تغير خاطر برقوق عليه منها، فعزل في جمادى الآخرة سنة ست وتسعين بعدما باشر سنتين وشهراً، وعقدت له بعد عزله مجالس ولفقوا عليه قضايا فلم تسمع عليه - مع كثرة من تعصب عليه - أنه ارتشى في حكم، ولا أخذ من قضاة البر شيئاً.

اضطهاد العلماء.. أسبابه وآثاره وواجب الأمة تجاههم

وكان خطيباً بليغاً، له اليد الطولى في النظم والنثر والقيام التام في الحق»^(١).

ومسألة التلفيق للقضايا لا يخلو عنها زمان، قد تقل أو تكثر، لكنها مستمرة، وهي ظاهرة ومنتشرة في العصر الحديث، ولاسيما في أوقات الصراعات السياسية المحترمة، وخصوصاً بعد الانقلابات، أو وصول الخصوم للحكم.

وهذا يطعن في مؤسسات القضاء، وأنها ليست سلطة مستقلة استقلالاً يمكنها من مباشرة أعمالها بنزاهة.

* * *

(١) إنباء الغمر، لابن حجر، (٢٢/٣) باختصار.

المبحث السادس عشر

التكفير والاتهام بالزندقة

العلماء الربانيون هم الذين يأخذون بأيدي البشر إلى الله تعالى، فيوضحون ما أشكل، ويفسرون ما استعصى، يقتبسون من أنوار الكتاب والسنة ليضيئوا للناس طريقهم.

لكنه في بعض الأحيان يتكلم بعض العلماء بكلام يكون فيه لبس، أو لا يفهمه كل واحد، فيبادر البعض إلى الطعن في عقيدتهم، واتهامهم بالكفر والزندقة، وهم أبعد الناس عن ذلك.

فدو النون المصري، هذا العالم الزاهد الفصيح الحكيم «تكلم ببلدته في ترتيب الأحوال، ومقامات الأولياء، فأنكر عليه عبد الله بن عبد الحكم، وهجره علماء مصر.

وشاع أنه أحدث علماً لم يتكلم فيه السلف، وهجروه حتى رموه بالزندقة. فقال أخوه: إنهم يقولون: إنك زنديق. فقال:

وما لي سوى الإطراق والصمت حيلة ووضعي كفي تحت خدي وتذكاري ثم دعاه أمير مصر، وسأله عن اعتقاده، فتكلم، فرضي أمره.

وطلبه المتوكل، فلما سمع كلامه، ولع به وأحبه»^(١).

(١) سير أعلام النبلاء، للذهبي، (١١/٥٣٤) باختصار.

أما أبو حاتم بن حبان فقد أنكروا عليه قوله: «النبوة: العلم والعمل، فحكموا عليه بالزندقة، وهُجِر، وكتب فيه إلى الخليفة، فكتب بقتله»^(١).

وقد دافع عنه الذهبي بقوله: «هذه حكاية غريبة، وابن حبان من كبار الأئمة، ولسنا ندعي فيه العصمة من الخطأ، لكن هذه الكلمة التي أطلقها، قد يطلقها المسلم، ويطلقها الزنديق الفيلسوف، فإطلاق المسلم لها لا ينبغي، لكن يعتذر عنه، فنقول: لم يرد حصر المبتدأ في الخبر.

وذكر مهم النبوة؛ إذ من أكمل صفات النبي كمال العلم والعمل، فلا يكون أحد نبياً إلا بوجودهما، وليس كل من برز فيهما نبياً؛ لأن النبوة موهبة من الحق تعالى، لا حيلة للعبد في اكتسابها، بل بها يتولد العلم اللدني والعمل الصالح»^(٢).

وما كان يحدث بالشرق الإسلامي كان يحدث بالمغرب الإسلامي فهذا أبو الوليد الباجي الأندلسي القرطبي «برع في الحديث، وبرز على أقرانه، وتقدم في علم الكلام والنظم.

ولما تكلم في حديث البخاري ما تكلم من حديث المقاضاة يوم الحديبية وقال بظاهر لفظه أنكروا عليه الفقيه أبو بكر بن الصائغ وكفره بإجازته الكتابة على رسول الله ﷺ الأمي، وأنه تكذيب للقرآن، فتكلم في ذلك من لم يفهم

(١) سير أعلام النبلاء، للذهبي، (٩٦/١٦).

(٢) السابق، نفس الصفحة.

الفصل الرابع: أنواع الاضطهاد

الكلام حتى أطلقوا عليه الفتنة، وقبحوا عند العامة فعله وتكلم به خطبائهم في الجمع، فصنف أبو الوليد رسالة فيها أن ذلك لا يقدر في المعجزة فرجع عنه بها جماعة»^(١).

وقد يصل الأمر في بعض الأحيان بالتفريق بين بعض العلماء وزوجاتهم بناء على هذا الاتهام الباطل.

* * *

(١) الوافي بالوفيات، للصفدي، (١٥ / ٢٣٠) باختصار.



المبحث السابع عشر تأليب القوى الخارجية

بعدهما اشتدت وطأة قريش على النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وأصحابه أذن لبعضهم في الهجرة إلى الحبشة، لكن هذا الأمر لم يعجب قريش فأرسلوا خلفهم من يعمل على ردهم، فذهبوا بالهدايا والإفك، لكنهم رجعوا بالخسران والبوار، ولم ينالوا ما سعوا إليه.

«عن أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة زوج رسول الله ﷺ قالت: لما نزلنا أرض الحبشة، جاورنا بها خير جار النجاشي، أمنا على ديننا، وعبدنا الله -تعالى- لا نؤذى ولا نسمع شيئاً نكرهه.

فلما بلغ ذلك قريشاً، ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين منهم جلدتين، وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم، فجمعوا له أدمًا كثيرًا، ولم يتركوا من بطارقه بطريقًا إلا أهدوا له هدية.

ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص، وأمروهما بأمرهم، وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلمنا النجاشي فيهم، ثم قدما إلى النجاشي هداياه، ثم سلاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم.

قالت: فخرجا حتى قدما على النجاشي، ونحن عنده بخير دار، عند خير جار، فلم يبق من بطارقه بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلمنا النجاشي، وقالوا لكل بطريق منهم: إنه قد ضوى إلى بلد الملك منا غلمان

سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مبتدع، لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم، فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم، فإن قومهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم، فقالوا لهما: نعم.

ثم إنهما قدما هداياهما إلى النجاشي فقبلها منهما، ثم كلماه فقالا له: أيها الملك، إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه، لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائهم لتردهم إليهم، فهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبواهم فيه.

قالت: ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامهم النجاشي.

قالت: فقالت بطارقتة حوله: صدقا -أيها الملك- قومهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم، فأسلمهم إليهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم.

قالت: فغضب النجاشي، ثم قال: لاها الله، إذن لا أسلمهم إليهما، ولا يُكاد قوم جاوروني، ونزلوا بلادي، واختاروني على من سواي، حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما، ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما، وأحسنت جوارهم ما جاوروني»^(١).

(١) سيرة ابن هشام، ١/ ٣٣٤-٣٣٥.

الفصل الرابع: أنواع الاضطهاد

وهذا الأمر باق إلى الآن، لكن المختلف أن من يقوم به هم أبناء جلدتنا وذوو أرحامنا ومن هم على نفس ديننا.

فبعض الأنظمة المسلمة تسعى عند الغرب (الكافر) لتسليم من يلجأ إليها ممن فر من اضطهاد تلك الأنظمة، وتحاول جاهدة أن يصموا هؤلاء بالإرهاب والعنف، وتحرض الأنظمة الغربية على متابعة نشاطاتهم ومساجدهم.

وتعاطي الأنظمة الغربية في هذه المسألة على غير المأمول من الأنظمة المسلمة، لكنها لا تياس.

لكن الأنظمة العربية والمسلمة تتعاون أغلبها فيما بينها، فتسلم من لجأ إليها ونزل في جوارها، أو على أقل تقدير تمنع المطلوبين من العلماء عن الإقامة على أراضيها.

والغرب في بعض دوله قد يمنع بعض العلماء من دخول أراضيها ومنع كتبه كالذي قامت به فرنسا ضد العلامة القرضاوي وكتبه.

وقد يسجن بعض العلماء دون جريمة اقترفوها مثلما حدث مع الشيخ وجدي غنيم والدكتور عمر عبد الرحمن عندما تم سجنهم في أمريكا، لكن الأول تم ترحيله، والثاني ترك في السجن رغم أنه كفيف البصر حتى وافته المنية.





الفصل الخامس

آثار اضطهاد العلماء

ويشتمل على توطئة وسبعة مباحث:

- المبحث الأول: فشو الجهل بين الناس
- المبحث الثاني: اتخاذ رؤوس جهال
- المبحث الثالث: الخوف من قول كلمة الحق
- المبحث الرابع: كره الدين والعلم الشرعي
- المبحث الخامس: ظهور الفساد والتحلل الأخلاقي
- المبحث السادس: إضعاف الأمة وتمزيقها
- المبحث السابع: استمرار القمع والاستبداد والظلم



توطئة:

الحياة تقوم على السنن؛ فهي منضبطة بقواعد.
والبشر في تدافعهم وصراعهم ترى من خلال أفعالهم مؤثرات وآثارًا،
فلا يمكن أن ترى فعلاً دون أن ترى له آثارًا.
هذه الآثار قد تخفى على البعض، لكنها واضحة جلية لذوي الألباب
والبصائر.
وقد يتخلف الأثر عن الفعل فيظن البعض أن الأثر منعدم.
فكم من ظالم تجاوز واعتدى سنين طويلة، ثم لم يحدث أي رد فعل
ظاهر.
هذا يترأى لمن نظر تحت قدميه، ولم يرفع نظره ليرى من بعيد؛ فالتاريخ
زاخر بتبدل الأحوال؛ فالظالم ينتكس، والمظلوم ينتصر... الظالم يموت فتتبعه
اللعنات، والمظلوم يموت فتتبعه الرحمات، ويبقى ذكره عاطراً.
والآثار تتفاعل مع الأشخاص والبيئات؛ فمع البعض الفعل العنيف
يُقابل برد فعلٍ عنيف، ومع آخرين يكون الرد ضعيفاً لضعفٍ فيهم أو في
إمكاناتهم، وقد ينعدم رد الفعل ظاهرياً لانعدام الإمكانيات.
وعليه فاضطهاد العلماء له آثار لا شك في ذلك، قد تكون ضعيفة خافتة،
وقد تكون قوية ظاهرة للعيان يراها الجميع.

اضطهاد العلماء .. أسبابه وآثاره وواجب الأمة تجاههم

وقد تكون الآثار جزئية محدودة، وقد تكون كلية شاملة.

فعندما يكون اضطهاد العلماء فتنة تطال الكل كما في محنة خلق القرآن فلا شك أن الآثار ستكون كارثية وتعم الجميع أو الغالبية.

وعندما يكون الاضطهاد لفرد أو مجموعة فإن الأثر سيكون جزئياً محدوداً، وفيما يلي سنجتهد في الحديث عن بعض الآثار التي ظهرت لنا في هذه القضية.

* * *

المبحث الأول فشو الجهل بين الناس

العلماء هم أوعية العلوم والحكم، وكيف يصل الناس إلى العلم والحكمة إذا افتقدوا أوعيتها.

والفقدان قد يكون بالقتل أو الحبس أو النفي.

وربَّ فقد رجل واحد يعادل أو يزيد على فقد ألف رجل من غيره؛ إذ لا تجد من يقوم مقامه أو يسد مسده.

فقد يكون بحر العلم، العامل به، القائم عليه، يسد الشجرة، ويدحض الشبهة، ويرفع السنة، يقول كلمة الحق ولا يخشى في الله لومة لائم.

فانظر إلى خسارة نيسابور بإخراجها البخاري من عندها، وأي علم قد افتقدته، يقول أبو مصعب الزهري: محمد بن إسماعيل أفقه عندنا وأبصر بالحديث من أحمد بن حنبل.

ف قيل له: جاوزت الحد.

فقال: لو أدركت مالكا، ونظرت إلى وجهه ووجه محمد بن إسماعيل لقلت: كلاهما واحد في الفقه والحديث.

وقال أبو عمار الحسين بن حريث مثنياً على أبي عبد الله البخاري: لا أعلم أني رأيت مثله، كأنه لم يخلق إلا للحديث^(١).

(١) انظر: سير أعلام النبلاء، ١٢/٤٢٠-٤٢٢.

هذا جهل جزئي لبعض مسائل العلم التي كان يحملها البخاري في صدره ويجهلها غيره من العلماء، لقد خسر العلماء فضلاً عن عامة الناس.

لكن بالنظر إلى الأزمان التي تكون الفتنة فيها عامة مثل فتنة خلق القرآن التي امتدت من بغداد إلى خراسان شرقاً وإلى مصر غرباً، ناشرة أجنحتها السوداء في كل مكان، فإن الجهل كان مطبقاً عاماً فاشياً.

لقد ابتلي العلماء ببلاء عظيمًا، ونالهم الأذى البدني والمعنوي، فانتشرت البدعة المتمثلة في القول بخلق القرآن وظلت سنيناً متتابعة حتى جاء المتوكل وأبطلها، وأعاد السنة.

«كان قاضي البصرة إبراهيم بن محمد التيمي يقول: الخلفاء ثلاثة: أبو بكر يوم الردة، وعمر بن عبد العزيز في رد المظالم من بني أمية، والمتوكل في محو البدع وإظهار السنة»^(١).

وفي العصر الحديث لما تعدى عبد الناصر على الإخوان المسلمين بقتل وسجن ونفي علمائهم وعامتهم، وحارب الإسلام ونشر الاشتراكية، انتشر التساهل بحدود الشرع والجهل والتجهيل؛ فالحجاب أصبح نادرًا بين النساء، والمساجد غير عامرة، وانتشر التصوف البدعي الذي يجعل الدعاء لغير الله، وتفشي ظاهرة الدجل والشعوذة حتى إن كبار المسؤولين يلجؤون إلى المشعوذين معتقدين فيهم طالين معونتهم.

(١) سير أعلام النبلاء، ٣٢/١٢.

الفصل الخامس: آثار اضطهاد العلماء

ظل هذا الوضع من الخمسينيات حتى السبعينيات، لكن مع عودة العلماء العاملين بدأت المظاهر الإسلامية تعود من جديد، حتى إن ظاهرة الصحوة الإسلامية ارتبطت بعودة العلماء وانتشارهم في المجتمع. وبعد انقلاب ٢٠١٣م وقتل العلماء وسجنهم وخروجهم انتشر الإلحاد بين صفوف الشباب المصري.

وبنظرة على الدول الإسلامية نجد أن الدول المسلمة التي وقعت تحت الاحتلال قد ابتعدت عن دينها -مثلما فعل الاحتلال الروسي مثلاً- بمطاردة العلماء وقتلهم، وكذا ما حدث في بلاد البلقان، حتى قيل: إنهم لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه، ولا من القرآن إلا رسمه.

وفرنسا -حسب تصريح الكاتب والصحافي البلجيكي ميشيل كولون- قتلت الآلاف من مدرسي اللغة العربية في مالي حتى تقطع العلاقة بين الماليين والعرب والمسلمين، ونشرت لغتها هي حتى تكون هي القبلة وليست مكة أو غيرها من العواصم العربية المسلمة.

وما فعله أتاتورك بتركيا وتغريبها وقتل العلماء وتغيير أحرف التركية من العربية إلى اللاتينية انتقل بها من دولة الخلافة الحامية للمسلمين في أنحاء العالم إلى دولة تهتم بنفسها فقط، وقطعت صلتها بالعالم الإسلامي، بل وحاربت الإسلام وغرست العلمانية، والعلمانية هي تجهيل للشعوب المسلمة بدينهم وتاريخهم.

اضطهاد العلماء .. أسبابه وآثاره وواجب الأمة تجاههم

وآثارها ما زالت متجذرة في نفوس الكثير من الأتراك حتى قيل عن حكم حزب العدالة والتنمية تحت قيادة الرئيس رجب طيب أردوغان: حزب إسلامي يحكم دولة علمانية.

وإن كان الحزب ينفي عنه نفسه أنه حزب إسلامي.

وفي النهاية فإن الجهل قد لحق بالمجتمعات والدول نتيجة ما لحق بالعلماء العاملين.

وإن كنا لا ننفي أن المجتمعات والدول لم تخل من علماء عاملين كانوا مصاييح الدجى حاولوا أن يحفظوا على الناس دينهم، لكن جهدهم - وإن كان مشكوراً - إلا أنه كان ضعيفاً ومشتتاً ومنعزلاً.



المبحث الثاني اتخاذ رؤوس جهال

إن من أعظم ما تبلى به الأمم هو شيوع الجهل فيها، والشعوب المتخلفة تكتمل فيها أضلاع الثالوث المدنّس: الجهل - المرض - الفقر.

والأنظمة القمعية تعمل على إبقاء شعوبها جاهلة؛ إذ ترى فيها أن معدلات الأمية تكون عالية.

فالديكتاتور لا يطبق الحوار، ويضيق ذرعاً بالناصحين، وقد لخص فرعون تلك الرؤية وهذه الفلسفة قائلاً: ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ [غافر: ٢٩].

لذا نجد الديكتاتور لا يقرب العلماء العاملين منه، بل ويعمل بشتى الطرق على إبعادهم عن الشعب؛ حتى ينعدم تأثيرهم، ولو وجد أي تأثير لهم على الشعوب فإنه يخاف على عرشه وملكه لذا يجتهد في التخلص منهم بأي وسيلة.

والشعوب الجاهلة بأقدار علمائها هي التي تسمح للحاكم الظالم بالتخلص من العلماء العاملين.

أما الشعوب المغلوبة على أمرها فيسيئها أن ترى علماءها في محنة، فقلوبها منكورة، وأيديها عاجزة مغلولة.

وفي كلتا الحالتين يبحث هؤلاء الحكام عن بديل لهؤلاء العلماء،

اضطهاد العلماء.. أسبابه وآثاره وواجب الأمة تجاههم

فيكون البديل علماء ساكتين مدارين، أو أنصاف علماء، أو جاهلين تزىوا بزى العلماء، أو علماء لم ينفعهم الله بعلمهم.

قال محمد بن الحسين في هذا الصنف الأخير: «من طلبه للفخر والرياء، والجدل والمراء، وتأكل به الأغنياء، وجالس به الملوك وأبناء الملوك، لينال به الدنيا، فهو ينسب نفسه إلى أنه من العلماء، وأخلاقه أخلاق أهل الجهل والجفاء، فتنة لكل مفتون، لسانه لسان العلماء، وعمله عمل السفهاء»^(١).

وأنصاف العلماء يفسدون في الأرض، يقول ابن تيمية: «قال بعض الناس: أكثر ما يفسد الدنيا: نصف متكلم، ونصف متفقه، ونصف متطبب، ونصف نحوي، هذا يفسد الأديان، وهذا يفسد البلدان، وهذا يفسد الأبدان، وهذا يفسد اللسان»^(٢).

أما الجاهلون المتزيفون بزى العلماء فهؤلاء مصيبة كبرى؛ إذ إن جهلهم يتعدى إلى غيرهم ممن يقصدونهم من العامة، وهم طلبوا الدنيا بالدعاوى الكاذبة؛ فهم ليسوا علماء ليأكلوا بعلمهم، بل أكلوا بجهلهم.

وقد حذر النبي من ذهاب العلم؛ عن أبي أمامة، أن رسول الله ﷺ قال: «خذوا العلم قبل أن ينفد» ثلاثاً.

قالوا: يا رسول الله، وكيف ينفد وفينا كتاب الله؟!.

(١) أخلاق العلماء، للأجري، ص ٨٣.

(٢) مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ٥/١١٨-١١٩.

الفصل الخامس: آثار اضطهاد العلماء

فغضب لا يُغضبه الله، ثم قال: «ثكلتكم أمهاتكم ألم تكن التوراة والإنجيل في بني إسرائيل ثم لم يغن عنهم شيئاً؛ إن ذهاب العلم ذهاب حملته» ثلاثاً^(١).

وهنا أكد -صلوات ربي وتسلياته عليه- أننا نحتاج للكتاب وللعلم، فلا إفادة تامة من كتاب دون وجود عالم يفسر ويشرح ويبين ما في الكتاب، والعالم تطبيق عملي لما يحمله من علم ويدعو إليه.

و«المجتمع الإنساني تتفاوت فيه مستويات الفهم؛ فهناك من يسير على الجادة، وهناك من ينحرف به الطريق، والمجتمع الإسلامي ليس بدعاً في هذا الأمر، ولكن ما العاصم إذا ما حدث انحراف في الفهم؟».

هنا لم يتركنا الإسلام للأهواء تتقاذفنا حيث تشاء، ولكنه وضع لنا المنهج؛ حيث قال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ أَخَذْتُمْ بِهِ لَنْ تَضَلُّوا: كِتَابَ اللَّهِ، وَعَرَّتِي أَهْلَ بَيْتِي»^(٢).

فنرى هنا أن الفهم الصحيح يعتمد على شقين: شق نظري، وشق تطبيقي.

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٣٢/٨)، ح(٧٩٠٦)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد»، (٤٧٠/١)، ح(٩٧٦): «رواه أحمد والطبراني في الكبير وعند ابن ماجه طرف منه، وإسناد الطبراني أصح».

(٢) أخرجه الترمذي في «المنقب»، باب: «مناقب أهل بيت النبي ﷺ»، (٦٦٣/٥)، ح(٣٧٨٦)، وقال: «وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ»، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

أما النظري فهو كتاب الله، وأما العملي فهم القائمون على تطبيق ما جاء في كتاب الله، وعلى رأس هؤلاء عترة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-.

ولو أن الأمر ترك هكذا كل يفعل ما يراه صواباً دون مرجعية من العلماء العاملين الذين يقفون بالمرصاد لكل من أخطأ الطريق، لوجدنا أن الإسلام ينشعب بعدد الآراء والأهواء^(١).

والناس لا غنى لهم ممن يفتيهم ويرشدهم، فإن لم يجدوا العلماء الثقات المأمونين لجؤوا إلى من صدروا أنفسهم مكانهم فسألوهم واستفتوهم.

والعلاقة عكسية بين العلماء والجهال؛ فالرءوس العلماء إذا قلوا ظهرت الرءوس الجاهلة، والعكس بالعكس؛ فأنوار العلماء تبدد ظلمات الجهال.

وقد رأينا ذلك بعد انقلاب ٢٠١٣م حيث صدر الإعلام لنا الجهال وألبسهم لباس العلماء، تدليساً على الناس، وتغريراً بهم.

وأزاح العلماء عن المشهد تغييباً بالقتل أو في أقبية السجون والمنافي، أو منعاً من التصدر للعامة.

فأصبحت فوضى الإفتاءات، ومهاجمة ثوابت الشرع، وتحليل الحرام، وتحريم الحلال، كما أباح الخمر قبل الإسكار خالد الجندي، وأن الراقصة شهيدة إذا ماتت وهي في طريقها لعملها كما يقول سعد الدين الهلالي،

(١) الإيجابية حياة الأفراد والمجتمعات، لمحمد فتحي النادي، ص ٢٥.

الفصل الخامس: آثار اضطهاد العلماء

ومهاجمة النقاب والتسامح مع التبرج كما تفعل سعاد صالح، أو من يطعن في البخاري والتراث الإسلامي كإسلام البحيري، أو يهاجم الصحابة كإبراهيم عيسى، والحبل على الجرار.

وسوف يأتي يوم لا تسمع فيه كلمة لعالم حقيقي، بل سيكون للجهل والجهال الكلمة العليا، والسيطرة التامة على الناس، كبيرهم وصغيرهم، سائسهم ومسوسهم، قال عبد الله بن عمرو بن العاص: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ أَنْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا، اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَالًا فَسُئِلُوا، فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»^(١).



(١) أخرجه البخاري في «العلم»، باب: «كَيْفَ يُقْبِضُ الْعِلْمُ...»، (١/٣١)، ح (١٠٠).



المبحث الثالث الخوف من قول كلمة الحق

الخوف جندي عظيم من جنود أهل الباطل، يزرعونه ويتعهدونه بالرعاية، يخوّفون شعوبهم من مصائر من وقف في وجوههم؛ إذ كان البطش والتنكيل بهم حاضرًا لم يتخلف بلا تهاون أو شفقة أو رأفة.

وإننا «نرى الآن أن الطغاة والمستبدين يصنعون جمهوريات الخوف؛ إذ يرون أنه من الأفضل أن يهابك الناس خير لك من أن يجهوك»^(١).

وليت المهابة تكون من الأعداء، ولكنها قاعدة للدخل وليس الخارج.
فهم يبحثون عن كل الوسائل لتركيع الشعوب الناهضة.
يعدّون الأنفاس...

يراقبون الحركات...

يقمعون الحريات...

يبنون السجون...

يقتلون خارج القانون...

يشترون الأسلحة لمحاربة شعوبهم وقمعها، وليس لقتال عدوهم
وصده...

(١) «تقول العرب: خشية خير من ملء واد حبًا، وكما تقول: رَهْبُوتِي خَيْرٌ مِنْ رَحْمُوتِي، أي: أن تُرهب خير من أن تُحب وتُرحم» [فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، لأبي عبيد البكري، ص (٥٥-٥٦)].

اضطهاد العلماء.. أسبابه وآثاره وواجب الأمة تجاههم

زرعوا في المجتمعات الخوف:

الخوف من العدو الموهوم المخترع...

الخوف من إبداء الرأي...

الخوف من التبرم من مشاكل الحياة...

الخوف من طلب أبسط الحقوق الإنسانية...

يطلبون الأمن بالقبضة الأمنية...

أمن كراسيهم وليس أمن شعوبهم...

وهل حمت القبضة الحديدية عروش الطغاة؟!

بل إن الطغاة ليخافون رغم كل الجيوش والأسوار والحراسات التي

تحميهم...

فمن يطلب الأمان لا يجده إلا في ظلال العدل...

فالأمن قرين العدل، والخوف قرين الظلم...

وجمهورية الخوف لا تدوم كثيرًا؛ لأنها ضد سنة الله في كونه، وسرعان

ما تستبدل؛ إذ إن الحياة لا تستقيم مع شيوع الظلم والفساد^(١).

فيخرج جيل لا ترهبه القوة الغاشمة، وليس عنده ترسبات الماضي

المخيف؛ لأنه جيل متشوف لمستقبل واعد، فيحاول أن يتحرر من الخوف

الذي تم زرعه في آبائه وأجداده على مدار سنوات متعاقبة.

(١) صناعة دولة الخوف والعدالة المفقودة، مقالة لمحمد فتحي النادي، موقع إسلام أون لاين.

الفصل الخامس: آثار اضطهاد العلماء

إن العلماء الصامدين الواقفين في وجه الطغيان قد غرسوا غرسًا، والطغاة بصلفهم وقمعهم وظلمهم قد غرسوا غرسًا.

العلماء غرسوا شجرة الحرية التي سقوها بدمائهم وأعمارهم ومداد كلماتهم وأصوات حناجرهم.

والطغاة غرسوا شجرة القهر والظلم التي سقوها بالبطش والتخويف والتخوين والقتل والسجن والتعذيب.

أما شجرة الحرية فلا تظهر ثمرتها سريعًا، بل تحتاج إلى تعهد واستمرار رعاية، وتتأخر الثمرة بتأخر المقاومة وخفوتها وتباطؤها، لكنها لا تيبس ولا تموت.

وأما شجرة القهر فتثمر شجرتها جهلاً وتخلفًا وفسادًا، لكنها تذبل سريعًا، وأيضًا هي سريعة التجدد.

فهما شجرتان دائمتان متناوبتان؛ فعن معقل بن يسار قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يلبث الجور بعدي إلا قليلاً حتى يطلع، فكلما طلع من الجور شيء ذهب من العدل مثله، حتى يولد في الجور من لا يعرف غيره.

ثم يأتي الله -تبارك وتعالى- بالعدل، فكلما جاء من العدل شيء ذهب من الجور مثله، حتى يولد في العدل من لا يعرف غيره»^(١).

(١) أخرجه أحمد في «المسند»، (٤٢٢/٣٣-٤٢٣)، ح (٢٠٣٠٨)، وقد ضعف إسناده شعيب الأرنؤوط في تعليقه على «المسند»، وقال الهيثمي في «المجمع»، (٣٥٦/٥): «رواه أحمد، وفيه خالد بن طهبان وثقه أبو حاتم الرازي وابن حبان وقال: يخطئ ويهم، وبقيه رجاله ثقات».

اضطهاد العلماء.. أسبابه وآثاره وواجب الأمة تجاههم

وقد كان سعد بن أبي وقاص يعلم بنيه هؤلاء الكلمات كما يعلم المعلم الغلمان الكتابة، ويقول: إن رسول الله ﷺ كان يتعوذ منهن دُبر الصلاة: «اللهم إني أعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك أن أُرذِلَ إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا، وأعوذ بك من عذاب القبر»^(١).

وقال الماوردي: «فليس لخائف راحة، ولا لحاذر طمأنينة.

وقد قال بعض الحكماء: الأمن أهنا عيش، والعدل أقوى جيش؛ لأن الخوف يقبض الناس عن مصالحهم، ويحجزهم عن تصرفهم، ويكفهم عن أسباب المواد التي بها قوام أودهم وانتظام جملتهم؛ لأن الأمن من نتائج العدل، والجور من نتائج ما ليس بعدل»^(٢).

وإن ضريبة الخوف والسكوت أعظم من ضريبة الصدع بالحق على المدى البعيد؛ فمن ينظر تحت قدميه يرى أن السكوت أسلم، لكن إفساده أعظم، والصدع بالحق قد يجبر على صاحبه الويلات لكنه يحمي مجتمعه وأُمَّته والأجيال القادمة.

* * *

(١) أخرجه البخاري في «الجهاد»، باب: «مَا يُتَعَوَّذُ مِنَ الْجَبْنِ»، (٤/٢٣)، ح (٢٨٢٢).

(٢) أدب الدنيا والدين، للماوردي، ص ١٤٢.

المبحث الرابع كره الدين والعلم الشرعي

«تحدث الصدمات النفسية العنيفة عند الأزمات الشديدة التي تتمحصر أمامها النفوس، فمنها من تقوّيه الأزمات وتزيده صلابة، ومنهم من يضعف ويفقد الثقة في نفسه وفيمن حوله، ويسيطر عليه اليأس والقنوط.

هذه الصدمات قد تدفع البعض - وخصوصاً الشباب - للكفر بالمثل والقيّم التي كان يؤمن بها.

وهذه الصدمات قد تكون إثر الهزائم الحربية المنكرة، أو الانقلابات العسكرية التي تقمع الشعوب.

مثلما حدث بعد نكسة يونيو ١٩٦٧م التي هُزم فيها العرب والمصريون شرّ هزيمة أمام الكيان الصهيوني، ومثلما حدث بعد انقلاب يوليو ٢٠١٣م.

وأكثر من يتأثر بشدة هم فئة الشباب الذين تفتح وعيهم على الولايات والأزمات، فتفقدتهم الصدمة وعيهم بعض الوقت، ويبدءون في التشكك في الثوابت التي كانوا يرون أن الجبال تزول وهي لا تزول.

فمنهم من يعود لرشده سريعاً ويجدد طريقه ويعصمه إيمانه القوي، وتربيته السليمة.

ومنهم من تزلّ قدمه فيتوه ويضلّ.

فمثلاً بعد انقلاب ٢٠١٣م تزلزلت ثوابت كثيرة في عقول الشباب، فهذا الشباب النقي الذي كان يحلم بوطن يحميه، ويرعى مصالحه، ويوفر له حياة كريمة، ويحفظ له كرامته، إذا به يجد أن هذا الوطن يُمعن في قتله، وإن لم يقتله فإنه يطارده، ويقهره، ويكبت سياسياً، ويعدُّ عليه أنفاسه، ومن يفتح فاه فالويل والثبور، والسجن أبوابه مشرعة، وأدوات التعذيب متاحة ومتوفرة.

ولا محاسبة لقاتل، أو من يقوم بالتعذيب.

ساعتها كفر بعض هؤلاء الشباب بوطنهم الذي كانت كل جريمتهم تجاهه أنهم أرادوا له أن ينهض، وأن يكون له شأن بين دول العالم، وأن يكون في مصاف الدول المتقدمة.

كفروا بزعمائهم السياسيين الذين سيرون أن أيديهم تلطخت بالدماء البريئة إما بسبب قراراتهم، أو بموافقتهم على قتل الشباب، وسجنهم ومطاردتهم، أو بسكوتهم عما يحدث من إجرام ضد الشباب.

كفروا بجيشهم الذي كانوا يرونه حامي الحمى، والذائد عن الحياض، والرادع للأعداء، والحافظ للبيضة، وسيرون أنه قد فقد شرفه العسكري يوم أن وجه رصاصاته ضد الشعب، وحرّك جنوده ودباباته ومدركاته وطائراته ليس لمحاربة العدو، بل لقتل جزء من شعبه اختلف معه سياسياً وفكرياً.

كفروا بشرطتهم التي كانت العصا الغليظة التي يستخدمها النظام لكبت الشعب وقهره، والتي تتفنن في إهانة الشعب، وسلبه كرامته، وتجنّد

الفصل الخامس: آثار اضطهاد العلماء

كل أجهزتها لتتبع المعارضين السياسيين وقمعهم، في حين أنها تترك المجال مفتوحًا لأرباب الإجرام والدعارة والمخدرات، إن لم يكن ثمة تعامل وتفاهم بينهما.

وقد قيل: لو اهتمت الشرطة بالجنايين عُشر اهتمامهم بالمعارضين السياسيين لعم الأمن والأمان أرجاء الوطن.

كفروا بالقضاء الذي اختل ميزان العدالة بين يديه؛ فحاكمَ المظلومين، وتركَ الظالمين، والذي أصدر الأحكام الظالمة القاسية للبراءة، وبرأ القتلة والسفاحين والفسدة.

كفروا بالإعلام الذي فقد حياده، وأهدر دماءهم، وجيَّش الشعب ضدهم، وأوجد المبرر والعذر لمن يقتلهم ويسجنهم ويطاردهم ويكبتهم، بل مجَّدهم وجعلهم زعماء ملهمين، ووصم كل المخالفين والمعارضين بوصم الخيانة والعمالة والإرهاب.

كفروا بعلماء السلطان الذين لم يقولوا كلمة حقَّ في وجه سلطان جائر، ولم يسعهم السكوت، ولكنهم أفتوا بحل القتل والفتك والسجن والقهر واستحلال الفروج والأموال.

أولئك العلماء الذين رفعوا الزعماء في مصاف الأنبياء، ولم يغضبوا لانتهاك الحرمات والمحارم، ولم يغضبوا لدين الله الذي يعتدي عليه أدياء العلم ودعاة التنوير والتحرر.

كفروا بالشعب الذي منه من رقص على جثث الشباب، وأظهر شماتة غربية في مصائب الشباب.

هذا الشعب الذي عاون الظلمة في تتبع الشباب والإبلاغ عنهم، وتمكين الشرطة من إلقاء القبض عليهم، وإيداعهم السجون بعد تلفيق التهم لهم.

يقضي هؤلاء الشباب زهرة حياتهم في ظلمات السجون لا لشيء إلا لحب أوطانهم، والسعي لتحرير شعوبهم من أغلال العبودية، فكان جزاؤهم السحل والقتل وهتك الأعراض، بدلاً من الافتخار بأعمالهم ومساعدتهم.

فهم لم يريدوا للشعب أن يهان، أو يُستعبد، أو يُظلم، أو تُغتصب حقوقه.

فرضي الشعب حاله، ونقم على من أراد له أن يخرج مما هو فيه.

كفروا بقيادة أحزابهم وحركاتهم الذين أدخلوهم في معارك لم يحسبوا لها حسابها، ولم يستطيعوا إخراجهم منها، وقاموا بتكبير الشباب من أن يتخذوا من الخطوات ما يروونه مناسباً للخروج من هذه الأزمات المتلاحقة، ثم انغمسوا في خاصة أنفسهم، وتنازعوا على لُعاة من لُعاة الدنيا.

وأشد أنواع الضعف أن يتشكك بعض الشباب في معية الله ونصره لأهل الحق والإيمان.

الفصل الخامس: آثار اضطهاد العلماء

فقد عايشت بعض الشباب الذين تركوا الصلاة، وانعزلوا عن الناس،
وأصابتهم الوسواس، ووصل بهم الأمر أن يصرخوا قائلين: أين الله؟.

أين الله من هذه الدماء المسفوكة بغير حق؟.

أين الله من هذا الظلم والقهر؟.

إنهم يبحثون عن الله، ولكنهم ضلوا الطريق.

لقد اختل عندهم الركن السادس من أركان الإيمان، وهو ركن الإيمان
بالقضاء والقدر خيره وشره، حلوه ومره^(١).

إنهم لم ينكروا وجود الله، ولكنهم لم يلمسوا بعض أفعاله تجاه بعض
ما يعانونه.

إنهم يطلبون الموت، ويسعون في الانتحار.

لقد اسودت الدنيا في أعينهم.

ظنوا أنهم افتقدوا النصير والمعين.

هذا الصنف هو مظلوم أكثر منه ظالماً.

هم مرضى يحتاجون للعلاج، وليس للإقصاء والنبذ والتشهير.

يحتاجون لإعادة الثقة في إيمانهم^(٢).

(١) أركان الإيمان وردت في الحديث الذي أخرجه مسلم في «الإيمان»، باب: «مَعْرِفَةُ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ وَالْقَدَرِ وَعَلَامَةِ السَّاعَةِ...»، (١/٣٦)، ح (٨) عن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، وفيه: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ».

(٢) الإلحاد والقهر الأمني، مقالة لمحمد فتحي النادي، مجلة مقاربات.

اضطهاد العلماء .. أسبابه وآثاره وواجب الأمة تجاههم

وهذا الإيـان يعود عن طريق العلماء الأثبات، لا علماء السلطان، العلماء الذين يخافون على الناس أكثر من خوفهم على أنفسهم، لا أولئك الذين لا يعرفون إلا أنفسهم ومصالحهم وليذهب الآخرون إلى الجحيم.

وللأسف يأتي إعلام هؤلاء فيقده في العلماء العاملين، ويشوه فيهم، ويصدر أولئك الملحدون الذين يلقون الشبه على الشباب، فيفتن البعض بهم، ويتشكك آخرون، فيظهرون الكره للدين وما يرتبط به من علم شرعي أو حركة دينية أو سياسية.



المبحث الخامس ظهور الفساد والتحلل الأخلاقي

إن من يجروء على الدماء وعلى ظلم الناس، فإن دينه مطعون فيه، ولن يعمل على نشر الأخلاق والفضيلة، حتى وإن تظاهر بمظاهر التدين والأخلاق. فالحكام الذين من صميم مهامهم «حراسة الدين وسياسة الدنيا»^(١)، أو «سياسة الأمة وحراسة الملة»^(٢) إذا قهروا الناس وعلى رأسهم العلماء، وظلموا من نصحهم، وقتلوا من عارضهم، فأى دين يجرسون، وبأي سياسة يسوسون.

إنها سياسة الظلم والدماء.

ولا يقدم كثير من الحكام على هذا البطش والقهر والظلم وسفك الدماء إلا بفتاوى من علماء باعوا دينهم بدنياهم، كالذي أباح قتل المصريين في الميادين بقوله: «اضرب في المليون دول ناس نتنة»، وما ذلك إلا لأنهم أبوا الظلم والخروج على الحاكم الشرعي المنتخب الدكتور محمد مرسي - رحمه الله تعالى.

فالحاكم العادل يحيط نفسه بالعلماء الأثبات أو يبحث عنهم ويستفيد منهم، والحاكم الظالم يبحث عن عالم يحلل له أفعاله القبيحة الشائنة.

لذا لا يستغني الحكام عن العلماء إجمالاً، لذا قال الغزالي: «بالعلماء

(١) الأحكام السلطانية، للماوردي، ص ١٥.

(٢) الأحكام السلطانية، لأبي يعلى الفراء، ص ٢٨.

اضطهاد العلماء.. أسبابه وآثاره وواجب الأمة تجاههم

حراسة الدين، وبالأجناد حراسة الدنيا، والدين والملك توأمان فلا يستغني أحدهما عن الآخر»^(١).

فإن لم يقيم العلماء بمهمتهم ودورهم في حراسة الدين، والحكام في حراسة الدنيا، فسد الدين والدنيا.

هنا يُفسد العلماءُ الحكام، ويُفسد الحكامُ العلماء، وبفسادهما تفسد الرعية، ولن ينالوا ديناً ولا دنياً.

وبعد أن سرد الغزالي طرفاً من قصص العلماء الأثبات الذين صدعوا بالحق، ولم يخشوا في الله لومة لائم من سلطان أو رعية قال: «فهذه كانت سيرة العلماء وعاداتهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقلة مبالاتهم بسطوة السلاطين؛ لكونهم اتكلوا على فضل الله -تعالى- أن يجرسهم، ورضوا بحكم الله -تعالى- أن يرزقهم الشهادة، فلما أخلصوا الله النية أثر كلامهم في القلوب القاسية فليتها وأزال قساوتها.

وأما الآن فقد قيدت الأطماع ألسن العلماء فسكتوا، وإن تكلموا لم تساعد أقوالهم أحوالهم فلم ينجحوا، ولو صدقوا وقصدوا حق العلم لأفلحوا.

فساد الرعايا بفساد الملوك، وفساد الملوك بفساد العلماء، وفساد العلماء باستيلاء حب المال والجاه، ومن استولى عليه حب الدنيا لم يقدر على الحسبة على الأراذل فكيف على الملوك والأكابر»^(٢).

(١) إحياء علوم الدين، للغزالي، ٢/ ١٤٠.

(٢) السابق، ٢/ ٣٥٧.

الفصل الخامس: آثار اضطهاد العلماء

والفساد مظاهره متنوعة؛ فهو فساد في الدين لفساد العلماء، أو لتغييب العلماء الأثبات بالقتل أو السجن أو النفي، وتصدر العلماء الذين باعوا دينهم بعرض من الدنيا قليل.

وفساد في الدنيا؛ لأن الدين عاصم وحارس، فإذا انخرم التدين وانعدم الضمير فسدت الأخلاق والمعاملات.

فيظهر «الكذب والغش والسرقة والمقامرة والفجور والمجاهرة بالفسوق واطراح الحشمة»^(١).

ويتم إذاعة ذلك عن طريق الصحف والمجلات والإذاعات والفضائيات وشاشات السينما.

ويصبح أهل المجون هم الرموز المجتمعية، والقذوة للشباب، وقد وصل الاستهتار بالمثل والأخلاق أن يتم تكريم الراقصة فيفي عبده وإعطاؤها لقب: الأم المثالية لعام ٢٠١٤م.

وتقام المهرجانات السينمائية التي تظهر فيها الممثلات بملابس فاضحة غير محتشمة تخالف وتتحدى دين وعادات وتقاليد الشعوب العربية المسلمة.

ويتم طرح قضايا تطعن في الثوابت كالحديث عن الأم العزباء، وهي المرأة التي تلد من سفاح، وأن على المجتمع قبول هذه الحالات.

وتنتشر الأغاني الماجنة، والأفلام الهابطة، وينفق عليها الملايين والمليارات، وفي المقابل يتم إهمال التعليم والصحة والمرافق... إلخ.

(١) بدائع السلك في طبائع الملك، لابن الأزرق، (٢/٧١١) باختصار.

اضطهاد العلماء .. أسبابه وآثاره وواجب الأمة تجاههم

وتصبح المحسوبية والرشاوى والنفاق هي الطرق الموصلة للنجاح والوصول للمناصب العليا.

فالكفاءات مهمشة ويعيشون بالكاد.

وما سبق وأمثاله ليس نتيجة اضطهاد واستبعاد رجال الدين المخلصين فحسب، بل كل العلماء المخلصين الناصحين.

فعلماء الاقتصاد والسياسة والعلوم النووية والجيولوجيين ... إلخ، كلهم مهمشون إذا لم يكونوا في ركاب الحاكم، وطوع بنانه.

ويكون الولاء له وعدم الاعتراض عليه والمدح المبالغ لكل أفعاله وقراراته هو سبيلهم للبقاء في المناصب، ويكون سبيلهم للمنصب ابتداء هو رضا السلطات الأمنية عنهم.

فإذا كان هذا هو الحال، فلا شك أن الفساد سيعم المجتمع، وسيختل النظام العام، وسيقلب حال الجميع إلى شر حال.

لذا فإن سنة التدافع، وعدم الرضا بهذا الفساد والإفساد، والعمل على إزالته يحتاج إلى مجهود كبير، وإلى بذل وتضحية من المخلصين من العلماء، في كل المجالات والفنون والعلوم، وليس علماء الشريعة وحدهم.



المبحث السادس إضعاف الأمة وتمزيقها

إذا كانت الجبهة الداخلية لأي أمة موحدة ومتماسكة فإن هذا يعني أن تلك الأمة قوية، وتلك القوة تمكنها من بسط نفوذها على البلدان المحيطة بها، ويعمل لها الخارج ألف حساب، ولو فكرت أمة من الأمم في الاعتداء عليها صدت هذا الاعتداء، ولقنت المعتدي أقسى الدروس، التي تجعله لا يفكر في معاودة تلك المجازفة مرة ثانية.

ولو كانت الجبهة الداخلية مفككة ومهلهلة فهذا يعني أن الأمة ضعيفة حتى وإن كانت لها إمبراطورية ضخمة ودولة شاسعة.

فدولة الخلافة العباسية في عهود المأمون والمعتصم والواثق كانت مشغولة بحروب داخلية وبامتحان العلماء في فتنة خلق القرآن، حتى تجرأت الإمبراطوريات المجاورة؛ فقد «كتب طاغية الروم إلى المعتصم يتهدده، فأمر بجوابه، فلما عرض عليه رماه، وقال للكاتب: اكتب: أما بعد، فقد قرأت كتابك، وسمعت خطابك، والجواب ما ترى لا ما تسمع، (وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار).

قلت^(١): وامتحان الناس بخلق القرآن، وكتب بذلك إلى الأمصار، وأخذ بذلك المؤذنين وفقهاء المكاتب، ودام ذلك حتى أزاله المتوكل بعد

(١) أي: الذهبي.

أربعة عشر عامًا»^(١).

لم تقف الفتنة عند كبار العلماء ورءوس الفقهاء، بل امتدت إلى صغار الموظفين بالدولة، امتدت إلى المؤذنين ومحفظي القرآن الكريم للصغار، فهذا صدع وشق عميق في المجتمع، فصاحب فكرة الامتحان قدّم خدمة جليلة للأعداء المتربصين بالأمة، وظهر ذلك جلياً في طول الصراعات وعدم قدرة دولة الخلافة على حسمها؛ فهذا بابك الخرمي «أخاف الإسلام وأهله، وهزم الجيوش عشرين سنة، وغلب على أذربيجان وغيرها، وأراد أن يقيم الملة المجوسية، وظهر في أيامه المازيار -أيضاً- بالمجوسية بطبرستان، وعظم البلاء.

وكان المعتصم والمأمون قد أنفقوا على حرب بابك قناطير مقنطرة من الذهب والفضة»^(٢).

في خضم هذه الأحداث الجليلة والإسلام ينقص من أطرافه، يأتي هؤلاء الخلفاء ويفرضون على الناس عقيدة، ويمتحنون الجميع في كل الأمصار، ويسارع عمال الدولة في المسارعة في هوى الخلفاء بدلاً من تقديم النصيح.

وهذه الصورة تتكرر، لكن في كل دورة تاريخية تكون الصورة أسوأ والخسارة أفدح؛ ففي أيام احتلال الصليبيين لبعض البلدان بالشام، وبعد

(١) سير أعلام النبلاء، للذهبي، ١٠/ ٢٩١.

(٢) السابق، ١٠/ ٢٩٣-٢٩٤.

الفصل الخامس: آثار اضطهاد العلماء

اجتياح المغول لبلاد المسلمين وإسقاط عاصمة الخلافة كان الحكام والفقهاء مشغولين بالامتحان في العقائد، مثلما حدث مع ابن تيمية، وانقسام الناس ما بين مؤيد ومعارض؛ فالعدو يجوس خلال الديار، والحكام ينساقون خلف صراعات شخصية ألبيت لباساً عقدياً.

ففي الصورة الأولى كان المجتمع مهتداً من الأعداء الخارجيين، أما في الصورة الثانية فالبلدان تسقط تباعاً، والقتل بلا عدد، وأصبح العدو ظاهراً على المسلمين، ورغم ذلك كانت الأمة منقسمة فيما بينها، نتيجة لعدم توحد الحكام والفقهاء فيما بينهم على مصالح الأمة، فأغرى بعض الفقهاء الحكام على إخوانهم نتيجة للاختلاف في بعض الأمور الاعتقادية.

وفي العصر الحديث تتكرر المأساة بصورة أشع؛ إذ كانت الصورتان السابقتان في إطار إسلامي يحافظ على الحدود والثوابت، وكانت صورة الدولة إسلامية.

لكن في عصرنا هذا تعدى الحكام على العلماء بالقتل والحبس والنفى... إلخ، لكنهم أداروا ظهورهم للإسلام، وفرضوا أفكاراً مستوردة من الشرق والغرب؛ فأتاتورك يحوّل دولة الخلافة إلى دولة علمانية، ويحارب كل ما هو إسلامي وعربي، ويقتل العلماء على مخالفتهم للباس القبعة الغربية واستمرارهم في لبس الطربوش والعمامة.

وفي مصر ينكل عبد الناصر ومجلس قيادة الثورة بالإخوان شركائهم في خلع الملك فاروق، ويذيقهم العذاب ألواناً في السجن الحربي وغيره،

اضطهاد العلماء .. أسبابه وآثاره وواجب الأمة تجاههم

وقتل منهم العلماء، كل ذلك في وقت كانت إسرائيل تتأهب للهجوم على مصر، والتهم جزء غال منها، فانهزم الجيش المصري أمام اليهود في سنة ١٩٦٧م في نكسة مذلة للعرب والمصريين، وافتقدوا أرضاً غالية هي سيناء، وقبلها افتقدوا كرامتهم نكالا لهم على هدرهم كرامة الإخوان المسلمين والمصريين الذين لم يقفوا مع قيادة الثورة في أفعالها.

هذا إلى جانب تبنيهم للاشتركية ومحاربتهم للإسلام ومظاهره، ورغبتهم في أن يكون الإسلام مجرد طقوس وشعائر لا تتجاوز المساجد، ولا دخل له بالحياة والسياسة إلا فيما يخدم رؤيتهم وتوجههم.

ظهر العدو على البلاد والعباد، وقبله انقسمت الأمة طوائف وشيخاً، في وقت كانت أحوج إلى الوحدة والتآلف وإدراك أن المعركة مع العدو معركة عقديّة بامتياز.



المبحث السابع استمرار القمع والاستبداد والظلم

إن الحاكم الذي لا يطيق سماع كلمة نصيحة، أو رؤية أحد معترضًا على أسلوب حكمه أو إدارته أو سياسته يحاول إرهاب ناصحيه أو معارضيه ومن على شاكلتهم حتى لا يسمع كلمة اعتراض أو رؤية أي امتعاض، بل لا يرى أي مانع من التخلص منهم بأي طريقة.

وهو لا يفعل ذلك من باب التأديب، بل من باب الترهيب.

ومن يذق لحم شعبه لا يتوقف أبدًا عن نهشهم، وغرز أنيابه فيهم.

ويزين له بعض علماء السلطان وبطانة السوء هذه الأفعال، وأنها من باب فرض الهيبة، وإغلاق باب التعدي على الحاكم.

وكلما رأى الثمرة السريعة لقمعه يغيره ذلك بالتمادي وعدم التوقف؛ فهو يرى أن للكلمة خطورة على عرشه واستقرار ملكه.

ويتملكه الغرور وغطرسة القوة؛ فإنه يرى أنه تمكن من الأكابر وغيرهم.

لقد سجن العلماء مسموعي الكلمة ذوي الجاه والهيبة، أو فرض عليهم الإقامة الجبرية، أو نفاهم... إلخ، إذا فعل هذا هؤلاء ولم يجد ممانعة، فهو يرى أنه على غيرهم أقدر.

إنه لا ينظر إلى هؤلاء باعتبارهم من رعيته فيحاول أن يكون رحيماً معهم، بل يراهم خطرًا داهمًا عليه شخصيًا، وعلى ملكه، لذا يشدد عليهم ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، ويعدُّ عليهم أنفاسهم، ويراقب تحركاتهم.

إن ما فعله المعتصم بأحمد بن حنبل كانت شبهة ألقيت عليه، وتعصبًا لمذهب أخيه المأمون الذي عهد إليه بالخلافة، ولم يكن المعتصم على درجة من العلم تمكنه من معرفة صحيح القول من سقيمه، فلم يكن انتقامًا شخصيًا أو استبدادًا، بل يرى أنه على الجادة، ويريد من غيره أن يكونوا على الجادة، حتى إن المعتصم كان شفوقًا على أحمد بن حنبل، وكان يقول له: «يا أحمد، علام تقتل نفسك؟ إني والله عليك لشفيق.

وجعل بعضهم يقول: ويلك! إمامك على رأسك قائم.

وقال بعضهم: يا أمير المؤمنين، دمه في عنقي، اقتله، وجعلوا يقولون: يا أمير المؤمنين، أنت صائم، وأنت في الشمس قائم!

فقال: ويحك يا أحمد، ما تقول؟

فأقول: أعطوني شيئًا من كتاب الله أو سنة رسول الله أقول به.

والمعتصم يقول: أجبني إلى شيء لك فيه أدنى فرج حتى أطلق عنك يدي.

ورأيته -يعني: المعتصم- قاعدًا في الشمس بغير مظلة، فسمعتة، وقد

أفقت، يقول لابن أبي دؤاد: لقد ارتكبت إثماً في أمر هذا الرجل.

فقال: يا أمير المؤمنين، إنه -والله- كافر مشرك، قد أشرك من غير وجه.

فلا يزال به حتى يصرفه عما يريد.

وقد كان أراد تخليتي بلا ضرب، فلم يدعه.

قال ابن أبي حاتم: حدثني أحمد بن سنان، قال: بلغني أن أحمد ابن حنبل

الفصل الخامس: آثار اضطهاد العلماء

جعل المعتصم في حل يوم فتح عاصمة بابل وظفر به، أو في فتح عمورية، فقال: هو في حل من ضربي»^(١).

فالمعتصم تأثم مما فعل بابن حنبل، لكن قاضي قضاته صرفه عما حاك في صدره، وكذا ابن حنبل عفا عن إمامه، واحتسب ما أصابه عند الله.

لكن بعض الطغاة لا يتتهون ولا يعودون عن ظلمهم؛ فهذا حافظ الأسد قدمات في أول الألفية الثالثة وكبار علماء الشام في المنافي حتى اليوم؛ فالأستاذ عصام العطار بأوروبا، وكان الشيخ علي طنطاوي والشيخ عبد الفتاح أبو غدة قد استقرا بالمملكة العربية وماتا بها، والشيخ محمد عوامة بها إلى الآن.

وقد أكمل ابنه من بعده نفس مسيرة أبيه في الظلم والقهر والاستبداد وأربى عليها وزاد.

وقدمت عبد الناصر ولم يتراجع عن ظلمه للإسلاميين، بل إن الذي أخرجهم من غياهب السجون هو خلفه أنور السادات.

وكانت فترة ناصر كلها قهر وظلم وتسلط وخوف، ولم يتنفس الناس الصعداء إلا بموته.

وفترة السيسي منذ انقلابه من ٢٠١٣م وحتى الآن هي من أحلك الأيام والأعوام على المصريين عامة والإسلاميين خاصة.

* * *

(١) سير أعلام النبلاء، للذهبي، (١١/٢٥١-٢٥٨) باختصار.



الفصل السادس

واجب الأمة تجاه علمائها

ويشتمل على توطئة وأربعة مباحث:

المبحث الأول: الالتفاف حول العلماء الراسخين

المبحث الثاني: توفير الكفاية المادية لهم

المبحث الثالث: الدفاع عنهم والذب عن أعراضهم ونصرتهم

المبحث الرابع: الضغط على ذوي السلطان لمنع إيذائهم



توطئة:

حاجة الأمة للعلماء العاملين كحاجتها للهواء والماء؛ فهم حملة أمانة التبليغ والإرشاد بعد النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، فهم ورثته وخلفاؤه.

وإذا قاموا بدورهم وأدوا ما عليهم كان لهم حق على الأمة، وقد أكد النبي -صلوات ربي وتسليماته عليه- هذا الحق بقوله: «ليس من أمتي من لم يجل كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقه»^(١).

«ومعرفة حق العالم هو حق العلم بأن يعرف قدره بما رفع الله من قدره؛ فإنه قال: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ﴾ [المجادلة: ١١]، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ فيعرف له درجته التي رفع الله له بها آتاه من العلم»^(٢)، «فاحترام العلماء ورعاية حقوقهم توفيق وهداية، وإهمال ذلك خذلان وعقوق وخسران»^(٣).

وقد «خطب زياد ذات يوم على منبر الكوفة فقال: أيها الناس، إني بت ليلتي هذه مهتماً بخلال ثلاث: بذي العلم، وبذي الشرف، وبذي السن، رأيت أن أتقدم إليكم فيهن بالنصيحة.

(١) أخرجه الشاشي في «المسند»، (٣/١٨٤)، ح(١٢٧٣)، والطبراني في «مكارم الأخلاق»، ص(٣٦٧)، ح(١٤٧)، وقال الهيثمي في «المجمع»، (٨/٣٣)، ح(١٢٦١٠): «رواه أحمد والطبراني وإسناده حسن».

(٢) فيض القدير، للمناوي، ٣٨٩/٥.

(٣) التيسير بشرح الجامع الصغير، للمناوي، ٦٤١/٢.

اضطهاد العلماء.. أسبابه وآثاره وواجب الأمة تجاههم

رأيت إعظام ذوي الشرف، وإجلال ذوي العلم، وتوقير ذوي الأسنان.
والله لا أوتى برجل رد على ذي علم ليضع بذلك منه إلا عاقبته.
ولا أوتى برجل رد على ذي شرف ليضع بذلك من شرفه إلا عاقبته.
ولا أوتى برجل رد على ذي شيبة ليضعه بذلك إلا عاقبته.
إنما الناس بأعلامهم وعلمائهم وذوي أسنانهم»^(١).

هذه الحقوق للعلماء في الأحوال العادية، فما بالناس إن بذل العلماء دماءهم
وأعمارهم وأوذوا في أبدانهم وأعراضهم في سبيل حماية الدين والأمة من ظلم
الظالمين، وانتكاس المتكسبين، وفجور الفاجرين... إلخ.

إنهم يستحقون وقتها حقوقاً فوق تلك الحقوق المعروفة، وقد اجتهدنا
في تبيانها، ومنها:



(١) جامع بيان العلم، لابن عبد البر، ٢/٦٤١.

المبحث الأول الالتفاف حول العلماء الراسخين

حينما يقع العلماء في المضايق بسبب مواقفهم، فإنه مما يثبت جنانهم أن يروا أو يستشعروا وقوف الناس بجانبهم، حتى وإن لم يملك الناس أن يخففوا عنهم شيئاً من البلاء.

في كثير من الأحيان يكون ساعد الحق ضعيفاً، لكن يكون لسانه ومنطقه قويين، ويستمد هذه القوة من قوة جنانه، ويستمد الجنان هذه القوة من إيمانه الوثيق بالله وأنه على الحق، وكذا بكلمة قد يسمعا من غيره تثبته وترفع همته وعزيمته، أو إحساسه أن القلوب المؤمنة به وبموقفه معه تسانده وتؤازره.

لكنه إن كان في محتته ورأى انصراف الناس عن مؤازرته فلا شك أنه سوف يشعر بخيبة أمل ومرارة وغصة.

هو يلوذ ويعتصم بإيمانه بالله حتى لا يحبط عمله، لكن هذا لا يمنع من تجربته للغصص والمرارات من مواقف الناس وانصرافهم عنه، أو انحيازهم لخصومه، وهو الذي يفعل ذلك من أجلهم، ولو شاء لصان عرضه، وحفظ دمه، وأبقى مهجته، وبلغ المناصب العالية، ورفل في النعيم.

«حضر أحمد بن حنبل أبو محمد الطفاوي، فذكر له حديث، فقال أبو عبد الله: أخبرك بنظير هذا، لما أخرج بنا، جعلت أفكر فيما نحن فيه، حتى إذا صرنا إلى الرحبة، أنزلنا بظاهرها، فمددت بصري، فإذا بشيء لم أستشبهه،

فلم يزل يدنو، وإذا أعرابي جعل يتخطى تلك المحامل حتى صار إلي، فوقف علي، فسلم.

ثم قال: أنت أحمد بن حنبل؟.

فسكت تعجباً!!.

ثم أعاد، فسكت.

فبرك على ركبتيه، فقال: أنت أبو عبد الله أحمد بن حنبل؟.

فقلت: نعم.

فقال: أبشر واصبر، فإنها هي ضربة هاهنا، وتدخل الجنة هاهنا.

ثم مضى.

فقال الطفاوي: يا أبا عبد الله! إنك محمود عند العامة.

فقال: أحمد الله على ديني، إنما هذا دين، لو قلت لهم، كفرت^(١).

وهذا الالتفاف من العامة حوله جعل السلطة تخاف من الإقدام على

قتله، بل كانت تخشى على نفسها من العامة، يقول الذهبي: «قال ابن سبيعة:

يا أمير المؤمنين، اضرب عنقه ودمه في رقبتني.

فقال ابن أبي دؤاد: لا يا أمير المؤمنين، لا تفعل؛ فإنه إن قتل أو مات

في دارك، قال الناس: صبر حتى قتل، فأتخذة الناس إمامًا، وثبتوا على ما هم

عليه، ولكن أطلقه الساعة، فإن مات خارجًا من منزلك، شك الناس في

أمره، وقال بعضهم: أجاب، وقال بعضهم: لم يجب.

(١) سير أعلام النبلاء، للذهبي، ١١/٢٥٨-٢٥٩.

الفصل السادس: واجب الأمة تجاه علمائها

وقال ابن أبي حاتم: سمعت أبا زرعة يقول: دعا المعتصم بعم أحمد، ثم قال للناس: تعرفونه؟ قالوا: نعم، هو أحمد بن حنبل.

قال: فانظروا إليه، أليس هو صحيح البدن؟ قالوا: نعم.
ولولا أنه فعل ذلك، لكنت أخاف أن يقع شيء لا يقام له.
قال: ولما قال: قد سلمته إليكم صحيح البدن، هداً للناس وسكنوا.

قلت: ما قال هذا مع تمكنه في الخلافة وشجاعته إلا عن أمر كبير، كأنه خاف أن يموت من الضرب، فتخرج عليه العامة.
ولو خرج عليه عامة بغداد لربما عجز عنهم.

وقال حنبل: لما أمر المعتصم بتخلية أبي عبد الله، خلع عليه مبطنة وقميصاً وطيلساناً وقلنسوة وخفّاً، فبينما نحن على باب الدار، والناس في الميدان والدروب وغيرها، وغلقت الأسواق إذ خرج أبو عبد الله على دابة من دار المعتصم في تلك الثياب، وأحمد بن أبي دؤاد عن يمينه، وإسحاق بن إبراهيم -يعني: نائب بغداد- عن يساره.

فلما صار في الدهليز قبل أن يخرج، قال لهم ابن أبي دؤاد: اكشفوا رأسه فكشفوه، يعني: من الطيلسان، وذهبوا يأخذون به ناحية الميدان نحو طريق الحبس.

فقال لهم إسحاق: خذوا به هاهنا يريد دجلة، فذهب به إلى الزورق، وحمل إلى دار إسحاق بن إبراهيم، فأقام عنده إلى أن صليت الظهر.

وبعث إلى والدي وإلى جيراننا ومشايخ المحال، فجمعوا وأدخلوا عليه، فقال لهم: هذا أحمد بن حنبل، إن كان فيكم من يعرفه وإلا فليعرفه.

وقال ابن سعاة - حين دخل الجماعة - لهم: هذا أحمد بن حنبل، وإن أمير المؤمنين ناظره في أمره، وقد خلى سبيله، وها هو ذا، فأخرج على فرس لإسحاق بن إبراهيم عند غروب الشمس، فصار إلى منزله، ومعه السلطان والناس، وهو منحن^(١).

ورغم وجود الضيق وحلول البلاء يلتفت الناس حول بعض العلماء، فلا يعجب ذلك بعض أطراف السلطة، فتمعن في التضييق والإيذاء، يقول ابن حجر عن ابن تيمية: «عقد مجلس في ثالث عشر منه [أي: رمضان] بعد صلاة الجمعة، فادعي على ابن تيمية عند المالكي فقال: هذا عدوي، ولم يجب عن الدعوى، فكرر عليه فأصر، فحكم المالكي بحبسه، فأقيم من المجلس وحبس في برج، ثم بلغ المالكي أن الناس يترددون إليه، فقال: يجب التضييق عليه أن لم يقتل وإلا فقد ثبت كفره، فنقلوه ليلة عيد الفطر إلى الحب^(٢)».

والتفاف الناس حول ابن تيمية جعل السلطة تخفف من قبضتها عليه، يقول ابن حجر: «اعتقل بسجن بحارة الديلم في ثامن عشر شوال إلى سلخ صفر سنة ٧٠٩ فنقل عنه أن جماعة يترددون إليه، وأنه يتكلم عليهم في نحو ما تقدم، فأمر بنقله إلى الإسكندرية فنقل إليها في سلخ صفر، وكان سفره

(١) سير أعلام النبلاء، للذهبي، ١١/٢٥٩-٢٦٠.

(٢) الدرر الكامنة، ١/١٧١.

الفصل السادس: واجب الأمة تجاه علمائها

صحبة أمير مقدم ولم يمكن أحدًا من جهته من السفر معه، وحبس ببرج شرقي، ثم توجه إليه بعض أصحابه فلم يمنعوا منه، فتوجهت طائفة منهم بعد طائفة، وكان موضعه فسيحًا فصار الناس يدخلون إليه ويقروون عليه ويبحثون معه»^(١).

والتفاف الناس حوله كان مصاحبًا له في كل مكان، في الشام ومصر يقول ابن حجر: «سكن القاهرة وتردد الناس إليه إلى أن توجه صحبة الناصر إلى الشام بنية الغزاة في سنة ٧١٢، وذلك في شوال، فوصل دمشق في مستهل ذي القعدة، فكانت مدة غيبته عنها أكثر من سبع سنين، وتلقاه جمع عظيم فرحًا بمقدمه»^(٢).

فالتفاف الناس حول أحد العلماء في وقت محنته سلاح ذو حدين: إما يجعل السلطة لا تبالغ في التضييق عليه إن كانت عاقلة.

أو تحاول إثبات هيبتها بالإمعان في التضييق والإيذاء إن غرته قوتها ونسيت سياستها.

وفي كل الأحوال هذا الالتفاف يخيف السلطات.

* * *

(١) الدرر الكامنة، ١/١٧٣.

(٢) السابق، ١/١٧٤.



المبحث الثاني توفير الكفاية المادية لهم

«العلماء شريحة من شرائح المجتمع، ويلزمهم ما يلزم غيرهم من النفقات على النفس والعيال، وتوفير المال والاحتياجات لهم ولمن يعولون، والاحتراف للعيال واجب على كل عائل، ولكن كيف يجمع العالم بين الاحتراف وطلب العلم؟».

وقد يبدو أن هذين الأمرين متعارضان، ولكن بتدقيق النظر رأينا أن كبار العلماء كانوا من ذوي المهن والحرف بجانب العلم.

وهم في ذلك مقتدون بالأنبياء -صلوات الله وتسليماته عليهم؛ فعن المقدم رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده)^(١)، وقد سأل معاوية عمرو بن العاص عن المروءة، فقال: (العفة والحرفة)^(٢).

فيعف عن التطلح لما بين يدي غيره، ويقنع بما بين يديه، ويحفظ نفسه ومن يعول بالاحتراف؛ حتى لا يكون عالة على غيره.

وقد وعى علماؤنا الأولون ذلك حتى إن سعد تميم صنف كتاباً يرى السمعاني أنه لم يسبق إليه، هذا الكتاب سماه: (كتاب الصناعات من الفقهاء والمحدثين) ذكر فيه جماعة كثيرة قريباً من خمسين نفساً^(٣).

(١) أخرجه البخاري في «اليبوع»، باب: «كَسْبِ الرَّجُلِ وَعَمَلِهِ بِيَدِهِ»، (٣/٥٧)، ح (٢٠٧٢).

(٢) إصلاح المال، لابن أبي الدنيا، ص ٧٨.

(٣) الأنساب، للسمعاني، (٣/٢٥٥، ٤/٢٠٧).

وللدكتور محمد بن عبد الله التميمي كتاب (مهن الفقهاء في صدر الاسلام وأثرها على الفقه والفقهاء)، وقد جمع عبد الباسط بن يوسف الغريب في كتاب أسماه: (الطرفة فيمن نسب من العلماء إلى مهنة أو حرفة) قرابة أربعائة حرفة ومهنة، منسوبة إلى قرابة ألف وخمسمائة محدث، وفقهه، وأديب.

فلم يكن طلب العلم ليمنع أحدهم من أن يكون عطّارًا، أو طبيبًا، أو تاجرًا، أو خوّاصًا، أو مزارعًا، أو فلكيًا، أو نجّارًا، أو حدّادًا، أو قصّابًا.

وقد انتسب كثيرون إلى مهنتهم، يقول السمعاني: (العطّار: هذه النسبة إلى بيع العطر والطيب، والمنتسبون إلى هذه الصنعة جماعة كثيرة من العلماء والمحدثين)^(١).

فهذا الباقلاني نسبة إلى الباقلًا وبيعها، وهذا التوحيدي نسبة إلى بيع التوحيد وهو نوعٌ من التُّمور، وهذا الجصاص نسبة إلى العمل بالجصّ وتبييض الجدران، وهذا القفال، والحراز، والخباز، والصبان، والقطان، والحدّاء، والسّمّان، والصوّاف، والزّيّات، والفراء... إلخ.

واحتراف العلماء لأنفسهم ولمن يعولون كان عاصمًا لهم من إذلال أنفسهم على أبواب السلاطين، وهو من أعظم المداخل للاستقلالية المنشودة.

وكان كبار العلماء يوصون بذلك؛ حتى لا يخلف خلوف من العلماء يبيع نفسه بعرض من الدنيا زائل، فقد كان أيوب السخيتاني يقول: (يا فتيان احترفوا؛ فإني لا آمن عليكم أن تحتاجوا إلى القوم، يعني: الأمراء)^(٢).

(١) الأنساب، للسمعاني، ٤/٢٠٧.

(٢) ربيع الأبرار، للزخشري، ٣/١٠٨.

الفصل السادس: واجب الأمة تجاه علمائها

وقد كان التحذير الدائم للعلماء من الوقوف على أبواب السلاطين، فلا يأمن العالم من أن يأتي يوم يطوع فيه علمه خدمة لهوى السلطان، قال جعفر الصادق: (الفقهاء أمناء الرسل، فإذا رأيتم الفقهاء قد ركنوا إلى السلاطين، فاتهموهم)^(١).

فبدلاً من أن يكون العالم موجَّهًا ومقوِّمًا للسلاطين إذا انحرفوا ومالوا فإنه يكون -باحثياً إليهم، ووقوفه على بائعهم، وانتظاره لأعطياتهم - ذراعاً لهم، ومسوغاً ومبرراً لأفعالهم الخاطئة، قال سفيان الثوري: (إذا لم يكن للعالم حرفة ولا عقار كان شرطياً لهؤلاء الظلمة، وإذا لم يكن للجاهل حرفة كان رسولاً للفساق)^(٢).

فالعالم يجب أن يكون حرّاً...

ويجب ألا يكون واقعاً تحت سيف المنع والعطاء...

ويجب أن يكون صادقاً بالحق، ولا يخشى في الله لومة لائم...

فإن قام قام لله، وإن قعد قعد لله، فلا تكون قومته لمنع، أو قعوده لعطاء... وعلى المجتمعات أن تحمي استقلالية العلماء بتوفير الأوقاف التي تنفق على العلماء، فإن لم يتنبه المجتمع لذلك فلا سبيل إلا الجمع بين المهنة والعلم على ما سبق ذكره^(٣).

(١) سير أعلام النبلاء، (٦/٢٦٢).

(٢) ربيع الأبرار، (٣/١١٣).

(٣) مهن العلماء والبحث عن الاستقلالية، مقالة لمحمد فتحي النادي، موقع المجتمع.

وحماية استقلالية العلماء بكفائتهم ليست رفاهية أو منة من المجتمع على العلماء؛ لأن استقلالية العلماء حماية للمجتمع ذاته؛ فالعلماء خط الدفاع الأول عن المجتمع، فإذا تم اختراق العلماء يسهل بعد ذلك اختراق المجتمعات والإمعان في إفسادها.

وليس المقصود أن يكون العلماء عالة على المجتمعات ينتظرون منهم الأقوات، لكن إيجاد الآليات والسبل التي تمكن العلماء من العمل بعلمهم دون احتياج لمال السلطة والأنظمة.

وهذا الأمر كان رائجاً في مصر حتى مجيء انقلاب ٥٢؛ إذ كانت الأوقاف المرصودة للأزهر والتي تنفق على العلماء والطلاب تجعل للعلماء سطوة على الحكام، فبكلمة منهم يثور الناس لو رأوا طغياناً من الحكام.

فلما جاء عبد الناصر وضع يد الدولة على تلك الأوقاف الضخمة، فأفقد الأزهر ومشيخته الاستقلالية التي كان يتمتع بها.

لذا فلا بديل أمام العلماء والمجتمعات إلا بالبحث عن الوسائل المعينة على تلك الاستقلالية، والبحث عن الكفاية المادية بعيداً عن الأنظمة والسلطات التي تستخدم المال والمنصب لتوجيه الآراء نحو رغباتها وأهوائها وتوجهاتها.

* * *

المبحث الثالث

الدفاع عنهم والذب عن أعراضهم ونصرتهم

إن لقالة السوء انتشارًا ورواجًا، وإذا زُنَّ بها شخص وهو منها بريء ليأتي عليه وقت يتمنى أن لم يكن يومًا بين الأحياء.

وإن قالة السوء ليُنْفَخَ فيها حتى تصير نارًا عظيمة تأكل أعراض الناس وبيوتاتهم.

وقالة السوء يصنعها السفهاء، ويتلقفها من في قلوبهم مرض، وينشرها السذج بلوكها وكثرة الحديث عنها، ويميتها الورعون الأتقياء.

وقد ابتلي أفضل البشر بمن يطعن فيهم ويتنقصهم ويرميهم بها هم منه براء؛ فهذه مريم البتول الكاملة تتهم بالفاحشة، فلا تملك إلا أن تقول: ﴿يَلَيَّتَنِي مِثُّ قَبَلٍ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا﴾ [مريم: ٢٣]، وأما الصديقة عائشة تتهم بصحابي جليل فينزل القرآن مبرئًا لها قائلًا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإفكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١].

والعلماء لم يسلموا ممن يطعن فيهم، أو ممن يفتش عن عيوبهم، ولا يخلو إنسان خلا الأنبياء من معائب ومقابح.

وهذا الطعن قد يصدر من الأنظمة التي تريد تشويه صورة بعض العلماء عند العامة؛ حتى لا يؤخذ عنهم كلام.

وقد يصدر من أقرانهم حسداً من عند أنفسهم.

والآلة الإعلامية الضخمة تعمل على النشر والإذاعة والتضخيم والكذب والتلفيق، لا سيما وأنها تحت سيطرة الأنظمة بالفعل أو بالقوة. وقديماً كانت مجالس السوء والغيبة والنميمة تقوم بهذا الدور المشبوه، والعامّة بطبعها عقولها في آذانها، تسمع قالة السوء فتنقلها مباشرة دون تمرير لها على العقل.

وقد وقع في ذلك أهل المدينة المنورة، فوصف ربنا -تبارك وتعالى- هذه الحالة بقوله: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥].

لكنه -سبحانه- عاتب المؤمنين في هذه الحالة وأمثالها بقوله: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢].

يقول الطبري: «وهذا عتاب من الله تعالى ذكره أهل الإيمان به^(١) فيما وقع في أنفسهم من إرجاف من أرجف في أمر عائشة بما أرجف به، يقول لهم تعالى ذكره: هلا -أيها الناس- إذ سمعتم ما قال أهل الإفك في عائشة ظن المؤمنون منكم والمؤمنات بأنفسهم خيراً.

(١) كذا.

الفصل السادس: واجب الأمة تجاه علمائها

يقول: ظننتم بمن قُرف بذلك منكم خيرًا، ولم تظنوا به أنه أتى الفاحشة، وقال بأنفسهم؛ لأن أهل الإسلام كلهم بمنزلة نفس واحدة؛ لأنهم أهل ملة واحدة»^(١).

وجاءت السنة النبوية المشرفة لتؤكد على دفاع المؤمنين بعضهم عن بعض، وذبح بعضهم عن عرض بعض، كأن العرض المؤذى هو عرضك أنت، والثواب العظيم على من يرد الأذية عن أخيه المسلم؛ فعن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من ذب عن عرض أخيه كان له حجابًا من النار»^(٢).

وعن مسعر عن بن عون قال: وقع رجل في رجل فرد عليه آخر فقالت أم الدرداء: لقد غبظتك؛ إنه من ذب عن عرض أخيه وقاه الله - قال مسعر: نفع أو لفع - النار»^(٣).

والخذلان كأس يشربه من يخذل أخاه؛ فعن جابر بن عبد الله وأبي طلحة بن سهل الأنصاري قالوا: قال رسول الله ﷺ: «ما من امرئ يخذل امرأ مسلمًا في موضع تُنتهك فيه حرمة ويُنْتَقَص فيه من عرضه إلا خذله الله في موطن يحب فيه نصرته، وما من امرئ ينصر مسلمًا في موضع يُنْتَقَص فيه

(١) تفسير الطبري، ١٩/١٢٨.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف»، (٥/٢٣٠)، ح (٢٥٥٣٩).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف»، (٥/٢٣٠)، ح (٢٥٥٤٠).

من عرضه ويُنتهك فيه من حرمة إلا نصره الله في موطن يجب نصرته»^(١).

والعلماء من حقوقهم ألا نناق خلف الإشاعات التي تثار حولهم، والتشنيعات التي تلقى جزافاً دون بينة؛ فقد ذَكَرَ رجلٌ عالماً بسوء عند الحسن بن ذكوان -رحمه الله تعالى- فقال: «مَهْ، لا تذكر العلماء بشيء، فيميت الله قلبك»^(٢).

وينظر إلى تاريخ الطاعن وسيرته، وتاريخ المطعون فيه وسيرته، فإذا كان الغالب على الطاعن أنه من أهل الفسق أو الكذب أو الاستهتار بالدين، أو التفريط في العبادات والشعائر... إلخ، فلا يصح أن يؤخذ كلامه مأخذ الجدل، بل يرد في وجهه.

وإذا كان الغالب على تاريخ المطعون فيه أنه من أهل العلم والصلاح والتقوى، فلا يصح نقل الكلام الوارد فيه.

والطاعن في أهل الديانة والصلاح والعلم هو المتهم، يقول يحيى بن معين -رحمه الله تعالى: «إذا رأيت الرجل يتكلم في حماد بن سلمة، وعكرمة مولى ابن عباس، فاتهمه على الإسلام»^(٣).

(١) أخرجه أبو داود في «الأدب»، باب: «مَنْ رَدَّ عَنْ مُسْلِمٍ غِيْبَةً»، (٤/ ٢٧١)، ح (٤٨٨٤)، وقد حسن الألباني إسناده في «صحيح الجامع»، ص (٩٩٢-٩٩٣)، ح (٥٦٩٠).

(٢) الصمت، لابن أبي الدنيا، ص ٢٦٧.

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة، للالكائي، ٣/ ٥١٤.

الفصل السادس: واجب الأمة تجاه علمائها

ومن التشويه الذي يقوم به الإعلام للعلماء دون جريرة منهم ما تقوم به المواقع ضد الدكتور القرضاوي والدكتور الريسوني، فعند مراجعة صياغة العناوين تجد أنه تشويه متعمد وطعن مبطن، فمثلا هذه الصياغة للعنوان: «فضيحة أخلاقية في المغرب تطارد قريبة خليفة القرضاوي»^(١).

ما دخل الريسوني بالأمر فضلاً عن القرضاوي؟! يقول تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

لذا فهذه الأمور وأمثالها على المجتمعات لفظها والاعتراض عليها ومهاجمة كاتبها وناشرها ومذيعيها.

* * *

(١) موقع صحيفة المرصد.



المبحث الرابع الضغط على ذوي السلطان لمنع إيذائهم

هناك بعض أدوات القوة التي يمكن استخدامها لمنع إيذاء العلماء، أو للتقليل منه؛ فالإعلام والصحف من الأدوات القوية التي لو أحسن استخدامها وتوظيفها لنقل معاناة بعض العلماء والمظلومين وما يلاقونه بلا سند أو مبرر أو جريمة مقترفة، فإنها قد تغير الوضع لرفع المعاناة أو تقليلها.

فصناعة رأي عام عن طريق الإعلام يمكن أن يشكل قوة ضاغطة على السلطات الحاكمة فتخفف من وطأتها على العلماء المختلفين معها، وتحاول امتصاص الغضب الجماهيري إن حدث بصيغ تقبلها الجماهير ولا تقلل من هيبتها، أو تدعن لرغبة الجماهير تمامًا إذا خشيت ما هو أكبر من الغضب.

لكن إن رأت بعض الأنظمة أن هذا الرأي العام لم يحرك الجماهير، أو لم تكن غضبتهم قد دخلت مراحل خطيرة، فإنها تبقى على موقفها المتشدد تجاه بعض العلماء المختلفين معها.

وهناك في بعض الأوقات تكون العداوة مستحكمة في السلطات تجاه بعض العلماء فلا تسمع لأحد وتصم أذانها عن النداءات المتكررة من الشعب، أو حتى من تدخلات بعض الأنظمة الأخرى، كما حدث مع الأستاذ الشهيد سيد قطب الذي لم يستجب عبد الناصر للتدخلات أو للنداءات بعدم إعدامه، ونفذ به الحكم.

وكذا المظاهرات الضخمة من الجماهير قد تغير الموقف تجاه العلماء، لكن إن سكنت الجماهير ولم تتحرك، وكان جل فعلها هو الكلام على استحياء، أو مجرد التملل، فإن هذا الموقف سيجعل الأنظمة تفعل ما بدا لها، وتقدم على أي شيء دون خشية من عاقبة.

والإضرابات من أدوات الضغط على الأنظمة، فلو أن طلبة الجامعة أضرَبوا عن حضور المحاضرات اعتراضاً على اعتقال أساتذتهم أو إهانتهم... إلخ، لأقلق ذلك السلطات، وقد تدخل معهم في صدامات أو تفاهات أو مفاوضات، وذلك حسب قوة الإضرابات وطول نفسها، وكذا حسب تعنت السلطات أو تفهمها لما يقوم به الطلبة.

وإقامة الندوات والمؤتمرات الكاشفة عن اضطهادهم ومعاناتهم من أدوات الضغط على الأنظمة، وكلما انتشرت وكثر الحضور لعل صداها يكون له أثر عند السلطات، لذا قد تقوم الأنظمة بعدم إعطاء التراخيص لإقامة مثل هذه الفعاليات.

ومنظمات حقوق الإنسان التي تفضح الانتهاكات والممارسات القمعية الواقعة على العلماء، ونشر تقريرها في العالم، قد يكون لها الأثر الجيد على حال العلماء المعتقلين.

وفي البلدان المحتلة كفلسطين يكون للمقاومة دور في رفع الظلم والاضطهاد عن العلماء بأن تعمل على إيقاع بعض الأسرى من المحتل للقيام

الفصل السادس: واجب الأمة تجاه علمائها

بالتبادل مع سلطة الاحتلال، وإخراج أكبر عدد من الأسرى، وعلى رأسهم النساء والقادة والعلماء.

وفي بعض البلدان التي تقع فيها الفوضى والقتال الداخلي قد يقوم بعض المسلحين المناصرين لبعض العلماء بالهجوم على السجن واستنقاذهم.

وعلى العموم فهذه الأعمال والفعاليات إما أن تتوجه للجماهير للضغط على الأنظمة، أو تتوجه للأنظمة مباشرة.

والأنظمة قد تستجيب وقد تتهاذى في ممارساتها، لكن يبقى أن يكون المرء أو الجماعة قد أدت بعض ما عليها تجاه علمائها، ولم تسكت وترض بهذه الممارسات.

* * *



الخاتمة

١ - خلاصة البحث:

الأمم لا تستغني عن السياسة والعلماء؛ فهما القادة والسادة.

وقد يمارس بعض العلماء السياسة، وقد يلم بعض السياسة بأطرافٍ من العلم، والعلاقة بين السياسة والعلماء ليست في غالبها على ما يرام؛ فهما في صراع دائم يظهر حيناً ويختفي أحياناً، يحاول السياسة السيطرة على العلماء وتوجيههم، ويحاول العلماء أن يكونوا مستقلين، وناصحين ومقومين للعامّة والخاصة.

ونتيجة لرؤية كل فريق تنشأ الاختلافات، فيحاول السياسة الاستفادة من العلماء بما لا يضر بهيبتهم وسلطانهم، فإذا وجدوا ما يقلقهم من العلماء حاولوا إخضاعهم، فإذا لم تنجح عملية الإخضاع يكون العزل، فإذا استمر القلق تأتي مرحلة التأديب، فإذا وصلت الأمور لنقطة اللا عودة كان الصدام والاضطهاد.

وفي المقابل يحاولون تثبيت الولاء لهم بالترغيب ومنح المناصب وإغداق الأموال، أو اصطناع بطانة من علماء لا يخرجون قيد أنملة عما يراد منهم أن يكونوا عليه.

والعلماء إذا لم يجدوا أنفسهم في المناصب والوظائف اكتفوا بالتعليم والتأليف والتصنيف، ويعتزلون السياسة والعمل العام، ويتعدون ما استطاعوا

اضطهاد العلماء.. أسبابه وآثاره وواجب الأمة تجاههم

عن أبواب السلاطين، فإذا اشتبك العلماء بالعمل العام ونقموا على السلاطين أفعالهم فإنهم ينصحون، وقد يتطور الأمر للاشتراك في الثورات عليهم، أو يفتون بخلع هؤلاء السلاطين وعدم أهليتهم للحكم.

لكن في الغالب الغلبة والقوة تكون في يد الساسة؛ لذا فإنهم تغريهم هذه القوة بالتخلص من هؤلاء المنافسين بوسائل كثيرة يصل أقصاها إلى القتل.

والعامة يتنافس عليهم كل فريق، ويحاول الطرفان أن يكسبهم في صفه؛ لأنهم قد يرجحون الكفة في بعض الأحيان والمراحل.

٢- نتائج البحث:

- العلماء صمام أمان للأمة والمجتمع.
- الحكم لا غنى له عن العلماء.
- الحكم الرشيد يحسن الاستفادة من العلماء ويستوعبهم.
- الحكم المستبد يضيق ذرعاً بالعلماء العاملين.
- العلماء الفاسدون سلاح قوي في يد الحكام المستبدين.
- لا يخلو عصر إلا ما ندر من علماء مبتلين لاختلافهم مع الحكام.
- العلماء ليسوا على درجة واحدة في الإنكار وتحمل نتائج مواقفهم.

- عصور الاستبداد أكثر العصور قهراً للعلماء العاملين.
- أكثر العلماء ابتلاء واضطهاداً أكثرهم خلوداً في ذاكرة الأمة.
- نسيان التاريخ للعلماء الذين مالؤوا السلاطين ووقفوا ضد إخوانهم العلماء العاملين.
- اضطهاد العلماء شؤم على مضطهديهم.
- فساد المجتمعات أثر مباشر لاضطهاد العلماء.
- الاضطهاد لا يقع فقط على علماء الشرع، بل أيضاً على علماء السياسة والاقتصاد والاجتماع والكيمياء والفيزياء... إلخ.

٢- توصيات ومقترحات:

- إنشاء نقابات ونواد للعلماء لها هيئات ومجالس ترعى مصالح المنتسبين إليها، على غرار نقابات الأطباء والمهندسين... إلخ.
- إنشاء اتحادات دولية للعلماء والمفكرين يقومون من خلالها بتبادل الآراء والأفكار والتجارب، وعرض القضايا والنوازل ومناقشتها وطرح الحلول لها.
- إعادة تفعيل الأوقاف الإسلامية لضمان استقلالية العلماء.
- الإكثار من المراكز البحثية التي تدرس المشاريع العلمية للعلماء العاملين وتستخرج منها الأسس التي يمكن من خلالها بعث الأمة من جديد.

اضطهاد العلماء .. أسبابه وآثاره وواجب الأمة تجاههم

- توجيه الباحثين للتركيز على أن الاضطهادات أثرها السلبي الأعظم كان واقعاً على الحكام والشعوب، وأن مكاسب العلماء في المدى البعيد كانت أعظم دنيا وأخرى.
- إنشاء مرصد دولية لها فروع في الدول تقوم برصد الانتهاكات الواقعة على العلماء، ونشرها في العالم، وتنبيه مراكز حقوق الإنسان لها.
- توكيل محامين دوليين للترافع في القضايا الملفقة ضد العلماء.
- تخصيص برامج في الفضائيات لتسليط الضوء على الانتهاكات الواقعة على العلماء.



المراجع

- ١ - **الأدب الشرعية والمنح المرعية:** لأبي عبد الله محمد بن مفلح المقدسي، حققه وضبطه نصه وخرج أحاديثه وقدم له: شعيب الأرنؤوط وعمر القيام، طبعة مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.
- ٢ - **الأحكام السلطانية:** لأبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي، طبعة دار الحديث، القاهرة.
- ٣ - **الأحكام السلطانية:** لأبي يعلى محمد بن الحسين بن محمد بن خلف بن الفراء، صححه وعلق عليه: محمد حامد الفقي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
- ٤ - **إحياء علوم الدين:** لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي، طبعة دار المعرفة، بيروت.
- ٥ - **إخبار العلماء بأخبار الحكماء:** لجمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القفطي، علق عليه ووضع حواشيه: إبراهيم شمس الدين، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
- ٦ - **أخلاق العلماء:** لأبي بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الأجرئي البغدادي، قام بمراجعة أصوله وتصحيحه والتعليق عليه: الشيخ إسماعيل بن محمد الأنصاري، طبعة رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، السعودية.
- ٧ - **أدب الإماء والاستملاء:** لأبي سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني، تحقيق: ماكس فايسفايلر، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
- ٨ - **أدب الدنيا والدين:** لأبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي، طبعة دار مكتبة الحياة، ١٩٨٦م.

اضطهاد العلماء .. أسبابه وآثاره وواجب الأمة تجاههم

- ٩ - **إصلاح المال:** لأبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، طبعة مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
- ١٠ - **إعلام الموقعين عن رب العالمين:** لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي (ابن قيم الجوزية)، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، طبعة دار الجيل، بيروت، ١٩٧٣م.
- ١١ - **الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين:** لخير الدين الزركلي، طبعة دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة، أيار (مايو) ١٩٨٠م.
- ١٢ - **إنباء الغمر بأبناء العمر:** لأبي الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، تحقيق: د. حسن حبشي، يشرف على إصدارها: محمد توفيق عويضة، طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، مصر، ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.
- ١٣ - **الأنساب:** لأبي سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني، تقديم وتعليق: عبد الله عمر البارودي، مركز الخدمات والأبحاث الثقافية، طبعة دار الجنان، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- ١٤ - **أنوار التنزيل وأسرار التأويل:** لناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
- ١٥ - **الأوائل:** لأبي هلال العسكري، تحقيق وضبط وتعليق: د. محمد السيد الوكيل، طبعة دار البشير للثقافة والعلوم الإسلامية، مصر، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.

المراجع

- ١٦ - **الإيجابية حياة الأفراد والمجتمعات**: لمحمد فتحي النادي، طبعة الأندلس الجديدة للنشر والتوزيع، مصر، الطبعة الأولى للناسر، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.
- ١٧ - **البحر الرائق شرح كنز الدقائق**: لزين الدين بن إبراهيم بن محمد، المعروف بابن نجيم المصري، وفي آخره: تكملة البحر الرائق لمحمد بن حسين بن علي الطوري الحنفي القادري، وبالْحاشية: منحة الخالق لابن عابدين، طبعة دار الكتاب الإسلامي، الطبعة الثانية، د.ت.
- ١٨ - **بدائع السلك في طبائع الملك**: لأبي عبد الله بن الأزرق، تحقيق وتعليق: أ.د.علي سامي النشار، طبعة دار السلام، مصر، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.
- ١٩ - **البداية والنهاية**: لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، طبعة مكتبة المعارف، بيروت.
- ٢٠ - **البداية والنهاية**: لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي ت ٧٧٤هـ، تحقيق: عبدالله بن عبد المحسن التركي، الناشر دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط ١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
- ٢١ - **البدع والنهي عنها**: لأبي عبد الله محمد بن وضاح بن بزيع المرواني القرطبي، تحقيق ودراسة: عمرو عبد المنعم سليم، طبعة مكتبة ابن تيمية، القاهرة - مصر، مكتبة العلم، جدة - السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.
- ٢٢ - **البيان والتبيين**: لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: فوزي عطوي، طبعة دار صعب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٨م.
- ٢٣ - **تاج العروس من جواهر القاموس**: لأبي الفيض محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، (مرتضى الزبيدي)، تحقيق: مجموعة من المحققين، طبعة دار الهداية.
- ٢٤ - **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**: لأبي عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد ابن عثمان بن قَأيَاز الذهبي، تحقيق: الدكتور بشار عواد معروف، طبعة دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م.

اضطهاد العلماء .. أسبابه وآثاره وواجب الأمة تجاههم

- ٢٥ - **تاريخ بغداد:** لأبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٢٦ - **تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري:** لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، وصلة تاريخ الطبري لعريب بن سعد القرطبي، طبعة دار التراث، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٨٧هـ.
- ٢٧ - **تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار:** لعبد الرحمن بن حسن الجبرتي، طبعة دار الجيل، بيروت.
- ٢٨ - **تاريخ قضاة الأندلس (المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا):** لأبي الحسن علي بن عبد الله بن محمد بن محمد بن الحسن الجذامي النباهي المالقي الأندلسي، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، طبعة دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- ٢٩ - **تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من واردتها وأهلها:** لأبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي ابن عساكر، دراسة وتحقيق: علي شيري، طبعة دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- ٣٠ - **التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»:** لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، طبعة الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤هـ.
- ٣١ - **تذكرة الحفاظ:** لأبي عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايّاز الذهبي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- ٣٢ - **ترتيب المدارك وتقريب المسالك:** لأبي الفضل القاضي عياض بن موسى اليعقوبي، تحقيق: عبد القادر الصحرراوي، طبعة مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، الطبعة الأولى، ١٩٦٦م.

المراجع

- ٣٣ - **نكلمة المعاجم العربية**: لرينهارت بيتر آن دُوزي، نقله إلى العربية وعلق عليه: محمد سليم النعيمي وجمال الخياط، طبعة وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، الطبعة الأولى، من ١٩٧٩ - ٢٠٠٠م.
- ٣٤ - **تهذيب الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**: لأبي اليمن مجير الدين عبد الرحمن ابن محمد بن عبد الرحمن العليمي الحنبلي، تحقيق وتهذيب: محمد فتحي النادي، تحت الطبع.
- ٣٥ - **تهذيب الكمال**: لأبي الحجاج يوسف بن الزكي عبد الرحمن المزني، تحقيق: د.بشار عواد معروف، طبعة مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
- ٣٦ - **التيسير بشرح الجامع الصغير**: لزين الدين عبد الرؤوف المناوي، طبعة مكتبة الإمام الشافعي، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- ٣٧ - **الجامع لأحكام القرآن**: لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري القرطبي، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- ٣٨ - **جامع بيان العلم وفضله**: لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، طبعة دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
- ٣٩ - **جامع البيان في تأويل القرآن**: لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، طبعة مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
- ٤٠ - **الجامع الصحيح (سنن الترمذي)**: لأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي السلمي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرين، طبعة مكتبة ومطبعة البابي الحلبي، مصر.
- ٤١ - **الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه (صحيح البخاري)**: لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير ابن ناصر الناصر، طبعة دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

اضطهاد العلماء .. أسبابه وآثاره وواجب الأمة تجاههم

- ٤٢ - **جمهرة الأمثال**: لأبي هلال العسكري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وعبدالمجيد قطامش، طبعة دار الفكر، الطبعة الثانية، ١٩٨٨ م.
- ٤٣ - **حاشية رد المحتار على الدر المختار شرح تنوير الأبصار في فقه مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان**: لخاتمة المحققين محمد أمين الشهير بابن عابدين، ويليهِ تكملة ابن عابدين لنجل المؤلف، إشراف مكتب البحوث والدراسات، طبعة دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.
- ٤٤ - **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة**: لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م.
- ٤٥ - **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**: لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥ هـ.
- ٤٦ - **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**: لأبي الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، مراقبة: محمد عبد المعيد خان، طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد/ الهند، الطبعة الثانية، ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م.
- ٤٧ - **ذيل طبقات الحنابلة**: لزين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، تحقيق: د. عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، طبعة مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٥ م.
- ٤٨ - **ربيع الأبرار ونصوص الأخيار**: لجار الله الزمخشري، طبعة مؤسسة الأعلمي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢ هـ.
- ٤٩ - **الرد على الزنادقة والجهمية**: لأبي عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني، تحقيق: محمد حسن راشد، طبعة المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٩٣ هـ.
- ٥٠ - **رسائل الجاحظ**: لأبي عثمان عمرو بن بحر بن محبوب (الجاحظ)، تحقيق وشرح: عبدالسلام محمد هارون، طبعة مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م.

المراجع

- ٥١ - **روح البيان**: للمولى أبي الفداء إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوقي، طبعة دار الفكر، بيروت.
- ٥٢ - **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**: لشهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألويسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
- ٥٣ - **سراج الملوك**: لأبي بكر محمد بن محمد بن الوليد الفهري الطرطوشي المالكي، مصر، ١٢٨٩هـ - ١٨٧٢م.
- ٥٤ - **سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها**: لمحمد ناصر الدين الألباني، طبعة مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى للطبعة الجديدة، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
- ٥٥ - **سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة**: لمحمد ناصر الدين الألباني، طبعة مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى للطبعة الجديدة، ١٤١٢هـ - ١٩٩٣م.
- ٥٦ - **السلوك لمعرفة دول الملوك**: لتقي الدين أبي العباس أحمد بن علي بن عبد القادر المقرئزي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
- ٥٧ - **سنن أبي داود**: لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، طبعة المكتبة العصرية، بيروت، د.ت.
- ٥٨ - **سنن البيهقي الكبرى**: لأبي بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، طبعة مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
- ٥٩ - **سنن الدارمي**: لأبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، تحقيق: فواز أحمد زمرلي وخالد السبع العلمي، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

اضطهاد العلماء .. أسبابه وآثاره وواجب الأمة تجاههم

- ٦٠ - **السنن الواردة في الفتن وغوائلها والساعة وأشراتها:** لأبي عمرو عثمان بن سعيد المقرئ الداني، تحقيق: د. ضياء الله بن محمد إدريس المباركفوري، طبعة دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.
- ٦١ - **سير أعلام النبلاء:** لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ومحمد نعيم العرقسوسي وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة التاسعة، ١٤١٣هـ.
- ٦٢ - **السيرة النبوية لابن هشام:** لجمال الدين أبي محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، طبعة شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الثانية، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م.
- ٦٣ - **سيكولوجية الجماهير:** لغوستاف لو بون، ترجمة وتقديم: هاشم صالح، طبعة دار الساقى، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩١م.
- ٦٤ - **شذرات الذهب في أخبار من ذهب:** لأبي الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد (ابن العماد الحنبلي)، حققه: محمود الأرنؤوط، خرج أحاديثه: عبد القادر الأرنؤوط، طبعة دار ابن كثير، دمشق - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- ٦٥ - **شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة:** لأبي القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور اللالكائي، تحقيق: د. أحمد سعد حمدان، طبعة دار طيبة، الرياض، ١٤٠٢هـ.
- ٦٦ - **شعب الإيمان:** لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.
- ٦٧ - **صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير):** لمحمد ناصر الدين الألباني، أشرف على طبعه: زهير الشاويش، طبعة المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

المراجع

- ٦٨ - **صحيح سنن أبي داود للإمام الحافظ سليمان بن الأشعث السجستاني**: لمحمد ناصر الدين الألباني، طبعة مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى للطبعة الجديدة، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- ٦٩ - **صحيح سنن الترمذي للإمام الحافظ محمد بن عيسى بن سورة الترمذي**: لمحمد ناصر الدين الألباني، طبعة مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى للطبعة الجديدة، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
- ٧٠ - **صحيح مسلم**: لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ٧١ - **الصمت وآداب اللسان**: لأبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن أبي الدنيا، تحقيق: أبي إسحاق الحويني، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.
- ٧٢ - **صيد الخاطر**: لجمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، بعناية: حسن المساحي سويدان، طبعة دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.
- ٧٣ - **ضعيف الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)**: لمحمد ناصر الدين الألباني، أشرف على طبعه: زهير الشاويش، طبعة المكتب الإسلامي، الطبعة المجددة والمزينة والمنقحة.
- ٧٤ - **طبقات الشافعية**: لتقي الدين أبي بكر بن أحمد بن محمد بن عمر الأسدي الشهبي الدمشقي، ابن قاضي شهبة، تحقيق: د. الحافظ عبد العليم خان، طبعة عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
- ٧٥ - **طبقات الشافعية الكبرى**: لتاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي، تحقيق: د. محمود محمد الطناحي ود. عبد الفتاح محمد الحلو، طبعة دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ.

- ٧٦ - **طبقات الصوفية**: لأبي عبد الرحمن محمد بن الحسين النيسابوري، السلمي، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- ٧٧ - **الطيوريات**: انتخاب: صدر الدين، أبي طاهر السلفي أحمد بن محمد الأصبهاني، من أصول: أبي الحسين المبارك بن عبد الجبار الصيرفي الطيوري، دراسة وتحقيق: دسمان يحيى معالي، وعباس صخر الحسن، طبعة مكتبة أضواء السلف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.
- ٧٨ - **العبر في خبر من غير**: لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، تحقيق: أبي هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٧٩ - **العثمانية**: لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، طبعة دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
- ٨٠ - **الفائق في غريب الحديث والأثر**: لمحمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة دار المعرفة، لبنان، الطبعة الثانية.
- ٨١ - **فتح الباري شرح صحيح البخاري**: لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي، طبعة دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.
- ٨٢ - **الفردوس بمأثور الخطاب**: لأبي شجاع شيرويه بن شهردار بن شيرويه بن فناخسرو، الديلمّي الهمداني، تحقيق: السعيد بن بسيوني زغلول، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- ٨٣ - **فصل المقال في شرح كتاب الأمثال**: لأبي عبيد البكري، تحقيق: د. إحسان عباس ود. عبد المجيد عابدين، طبعة مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٣م.
- ٨٤ - **فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيات والمسلسلات**: لعبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، تحقيق: إحسان عباس، طبعة دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٢م.

المراجع

- ٨٥ - **فيض القدير شرح الجامع الصغير**: لعبد الرؤف المناوي، طبعة المكتبة التجارية الكبرى، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٥٦هـ.
- ٨٦ - **كشف الأسرار عن أصول فخر الإسلام البزدوي**: لعلاء الدين عبد العزيز بن أحمد البخاري، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت.
- ٨٧ - **كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس**: لإسماعيل بن محمد الجراحي العجلوني، طبعة دار إحياء التراث العربي.
- ٨٨ - **لسان العرب**: لمحمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، طبعة دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى.
- ٨٩ - **لسان الميزان**: لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي، تحقيق: دائرة المعارف النظامية - الهند، طبعة مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- ٩٠ - **مجمع الأمثال**: لأبي الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني النيسابوري، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، طبعة دار المعرفة، بيروت.
- ٩١ - **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**: لنور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، طبعة دار الفكر، بيروت، ١٤١٢هـ.
- ٩٢ - **مجموع الفتاوى**: لأبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي وساعده ابنه محمد، دار الرحمة، القاهرة، د.ت.
- ٩٣ - **الحن**: لأبي العرب محمد بن أحمد بن تميم التميمي، تحقيق: د. يحيى وهيب الجبوري، طبعة دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.
- ٩٤ - **المختصر في أخبار البشر**: لأبي الفداء عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب، الملك المؤيد، صاحب حماة، طبعة المطبعة الحسينية المصرية، الطبعة الأولى.

اضطهاد العلماء.. أسبابه وآثاره وواجب الأمة تجاههم

- ٩٥ - **مرآة الزمان في تواريخ الأعيان**: لشمس الدين أبي المظفر يوسف بن قزأوغلي بن عبد الله المعروف بـ «سبط ابن الجوزي»، تحقيق وتعليق: محمد بركات وآخرين، طبعة دار الرسالة العالمية، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.
- ٩٦ - **المستدرك على الصحيحين**: لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.
- ٩٧ - **المستقصى في أمثال العرب**: لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م.
- ٩٨ - **المسلمون وقضية فلسطين**: لأبي الحسن علي الحسيني الندوي، طبعة دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.
- ٩٩ - **المسند**: لأبي سعيد الهيثم بن كليب بن سريج بن معقل الشاشي البُنْكَثِي، تحقيق: د. محفوظ الرحمن زين الله، طبعة مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.
- ١٠٠ - **مسند الإمام أحمد بن حنبل**: لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال ابن أسد الشيباني، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرين، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، طبعة مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.
- ١٠١ - **مشكاة المصابيح**: للخطيب التبريزي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- ١٠٢ - **مصنف عبد الرزاق**: لأبي بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، طبعة المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.
- ١٠٣ - **المصنف في الأحاديث والآثار**: لأبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي، تحقيق: كمال يوسف الحوت، طبعة مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

المراجع

- ١٠٤ - **المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين:** لمحيي الدين عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي، تحقيق: الدكتور صلاح الدين الهواري، طبعة المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م.
- ١٠٥ - **معجم ابن الأعرابي:** لأبي سعيد أحمد بن محمد بن زياد بن بشر بن درهم البصري الصوفي (ابن الأعرابي)، تحقيق وتخرّيج: عبد المحسن بن إبراهيم بن أحمد الحسيني، طبعة دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
- ١٠٦ - **المعجم الكبير:** لأبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، طبعة مكتبة العلوم والحكم، الموصل، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م.
- ١٠٧ - **معرفة الصحابة:** لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، تحقيق: عادل بن يوسف العزازي، طبعة دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- ١٠٨ - **مغاني الأخبار في شرح أسامي رجال معاني الآثار:** لأبي محمد محمود بن أحمد ابن موسى بن أحمد بن حسين الحنفي، بدر الدين العيني، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.
- ١٠٩ - **المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة:** لشمس الدين أبي الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد السخاوي، تحقيق: محمد عثمان الخشت، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- ١١٠ - **مكارم الأخلاق (مطبوع مع مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا):** لأبي القاسم سليمان ابن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي الطبراني، كتب هوامشه: أحمد شمس الدين، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

اضطهاد العلماء .. أسبابه وآثاره وواجب الأمة تجاههم

- ١١١ - مناقب الإمام الأعظم - رضي الله عنه -: لحافظ الدين محمد بن محمد بن شهاب المعروف بابن البزاز الكردي، طبعة دائرة المعارف النظامية، الهند، الطبعة الأولى، ١٣٢١هـ.
- ١١٢ - المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج: لأبي زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ.
- ١١٣ - النظرات: لمصطفى لطفي المنفلوطي، طبعة مؤسسة هنداوي سي أي سي، المملكة المتحدة، ٢٠١٩م.
- ١١٤ - نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان: لابن القطان المراكشي أبي محمد حسن بن علي بن محمد بن عبد الملك الكتامي، درسه وقدم له وحققه: د. محمود علي مكي، طبعة دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
- ١١٥ - الوابل الصيب من الكلم الطيب: لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي (ابن قيم الجوزية)، تحقيق: محمد عبد الرحمن عوض، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- ١١٦ - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، تحقيق: د. إحسان عباس، طبعة دار صادر، بيروت، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.



فهرس المحتويات

رقم الصفحة	الموضوع
١٤ - ٧	المقدمة
٨	١- قيمة العلم وفضل العلماء
١٠	٢- أهمية الموضوع
١١	٣- إشكالية الدراسة
١١	٤- أهداف الدراسة
١٢	٥- الدراسات السابقة
١٢	٦- المنهج المتبع
١٣	٧- الخطة
٤٦ - ١٥	الفصل الأول: فصل تمهيدي
١٩ - ١٧	المبحث الأول: تحديد المفاهيم الخاصة بعنوان الكتاب
٣٠ - ٢١	المبحث الثاني: الصراع من أبعاد الوجود البشري
٣٨ - ٣١	المبحث الثالث: الأتلاء بالمصائب سنة ماضية
٤٦ - ٣٩	المبحث الرابع: أهمية قول الحق ونصح الخلق
٩٧ - ٤٧	الفصل الثاني: ممن يحصل اضطهاد العلماء؟
٤٩	توطئة
٥٣	المبحث الأول: من العوام
٦٣	المبحث الثاني: من الأقران
٦٧	المبحث الثالث: من الساسة وذوي السلطان

اضطهاد العلماء .. أسبابه وآثاره وواجب الأمة تجاههم

الموضوع	رقم الصفحة
المبحث الرابع: إعانة المرء على نفسه	٧٥
المبحث الخامس: من الإعلام	٨٣
المبحث السادس: من القوى الخارجية	٩١
الفصل الثالث: أسباب اضطهاد العلماء	٩٩ - ١٥٥
توطئة	١٠١
المبحث الأول: ضعف العلماء وركونهم إلى الدنيا	١٠٥
المبحث الثاني: التأويل الفاسد والحيل المحرمة	١١٣
المبحث الثالث: الجهل	١١٩
المبحث الرابع: الغيرة والحسد	١٢٥
المبحث الخامس: مخالفة ذوي السلطان	١٣١
المبحث السادس: اختلاف المذهب الفقهي والاعتقادي والسياسي	١٣٩
١- الاختلاف المذهبي الفقهي	١٣٩
٢- الاختلاف الاعتقادي	١٤٤
٣- اختلاف الرؤية السياسية أو الموقف السياسي	١٥٠
الفصل الرابع: أنواع الاضطهاد	١٥٧ - ٢٢١
توطئة	١٥٩
المبحث الأول: التهديد	١٦١
المبحث الثاني: العزل من المنصب	١٦٥
المبحث الثالث: المنع من تولي المناصب	١٦٩

فهرس المحتويات

رقم الصفحة	الموضوع
١٧٣	المبحث الرابع: المنع من الإقراء والإفتاء والتدريس
١٧٥	المبحث الخامس: الإقامة الجبرية والمنع من السفر
١٧٩	المبحث السادس: الجلد
١٨٣	المبحث السابع: السجن
١٨٧	المبحث الثامن: النفي
١٩٣	المبحث التاسع: القتل
١٩٧	المبحث العاشر: مصادرة الأموال والأموال
١٩٩	المبحث الحادي عشر: تأليب العامة
٢٠٣	المبحث الثاني عشر: التشهير
٢٠٧	المبحث الثالث عشر: حرق الكتب ومنع نشرها
٢١١	المبحث الرابع عشر: تأليب علماء السلطان
٢١٣	المبحث الخامس عشر: تلفيق القضايا
٢١٥	المبحث السادس عشر: التكفير والاتهام بالزندقة
٢١٩	المبحث السابع عشر: تأليب القوى الخارجية
٢٢٣ - ٢٥٧	الفصل الخامس: آثار اضطهاد العلماء
٢٢٥	توطئة
٢٢٧	المبحث الأول: فشو الجهل بين الناس
٢٣١	المبحث الثاني: اتخاذ رؤوس جهال
٢٣٧	المبحث الثالث: الخوف من قول كلمة الحق
٢٤١	المبحث الرابع: كره الدين والعلم الشرعي

اضطهاد العلماء .. أسبابه وآثاره وواجب الأمة تجاههم

رقم الصفحة	الموضوع
٢٤٧	المبحث الخامس: ظهور الفساد والتحلل الأخلاقي
٢٥١	المبحث السادس: إضعاف الأمة وتمزيقها
٢٥٥	المبحث السابع: استمرار القمع والاستبداد والظلم
٢٨١ - ٢٥٩	الفصل السادس: واجب الأمة تجاه علمائها
٢٦١	توطئة
٢٦٣	المبحث الأول: الالتفاف حول العلماء الراسخين
٢٦٩	المبحث الثاني: توفير الكفاية المادية لهم
٢٧٣	المبحث الثالث: الدفاع عنهم والذب عن أعراضهم ونصرتهم
٢٧٩	المبحث الرابع: الضغط على ذوي السلطان لمنع إيدائهم
٢٨٦ - ٢٨٣	الخاتمة
٢٨٣	١- خلاصة البحث
٢٨٤	٢- نتائج البحث
٢٨٥	٣- توصيات ومقترحات
٣٠٠ - ٢٨٧	المراجع
٣٠٤ - ٣٠١	الفهرس

